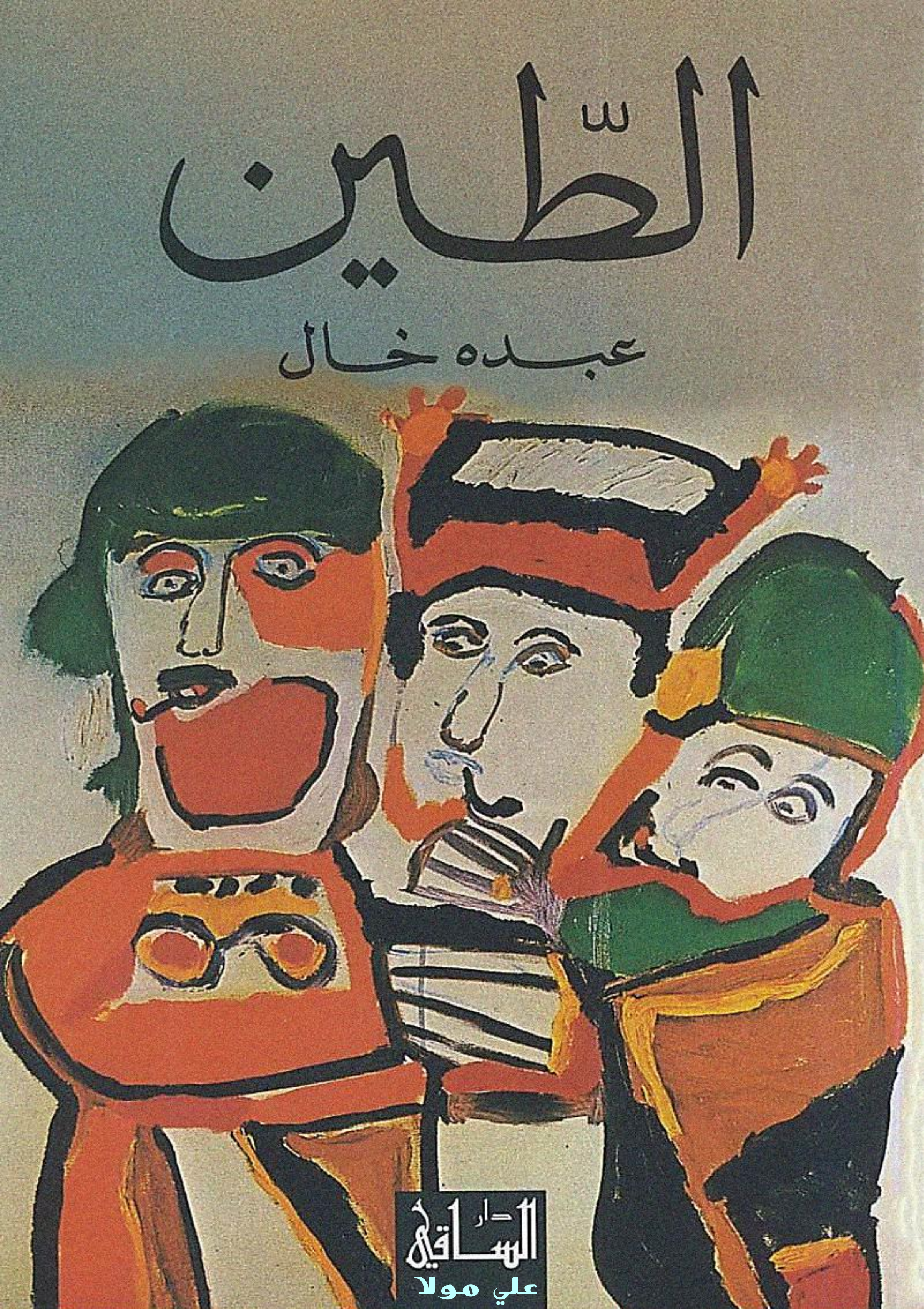

الطّين
عبده خال
دار الساقي
علي مولا

عبده خال





صدر للمؤلف عن دار الساقي:
مدن تأكل العشب (رواية)

لوحة الغلاف للفنانة الشعبية طلال
الهزليون ١٩٧١ (تفصيل)

الطّين

الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ISBN 1 85516 726 3

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7-221 9347, Fax: 020-7-229 7492

أمي:
منذ أن رحلتِ لم أركِ بتاتاً...
أنا وحيدٌ من غيرك...
كلُّهم يقفون للنباح في طريقي، وابنُك الصغيرُ،
نسي الدمعَ، وهو ينتظركِ.
فكيف يتخلّصُ من كل هذا النباح؟

مقدمة لتقرير لم يُكتب

أحمل لكم فجيعة لم أكن أنتظرها بتاتاً.

كنت أنتظر شيئاً ما إلا هذا الأمر.

وقبل الحديث عن مريضي، اسمحوا لي بأن أتقدم بعرض حالتي أولاً.

ثمة تشابه يجمعنا، وربما حدث لبس بين الحالتين، أو بأن ما حدث تأكيد صارخ لحالة مريضي أو تأكيد لحالتي.

وأصْدقكم القول: إن حالته لم تعد تشغلني، فقد بلغ الأمر حداً جعلني أرتاب مما يحدث، وأنه ربما استهدفني بتلك الأحاديث التي بثها على مسمعي، فغدوت معذَّباً بها، وسخَّرت جُلَّ وقتي لإثبات او نفي مقولاته. هل ثمة حَرَج لو قلت: غدوت أنا المريض.

حقا أنا المريض. أعترف بهذا من غير أن يعتريني الخجل أو الركض بعيداً لتجويف الأرض وإلقاء أسراري في القاع وطمرها والعودة أواباً لنفي هذه التهمة.

لن أنفي هذه التهمة. أصرُّ عليها كما يصرُّ فتى غر على اقتراف إثم

عظيم. فالآثام العظيمة هي الحجارة الوحيدة القادرة على جعل الدنيا لا تنام مبكراً.

هاتان الصورتان (لي ولمريضي) هما اللتان كانتا تتقابلان في ظلمة النفس، وكل منهما تحاول زحزحة الأخرى من موقعها. كل منهما تحاول انتزاع ورقة التوت التي يغطيان بها على قناعتهما. فالحقيقة عورة نسعى جميعا لسترها.

الغريب والمقلق في آن أنه حينما كان يتحدث عن بيئته وحياته الأُسرية كان ثمة شيء يُلتَقَطُ من أغوار ذاكرتي ويلامس جوانحي. شيء ما يؤكد لي أن ما يتحدث عنه إنما رجع صدى لحياة عشتها في زمن ما لا أستبينه. كان يتحدث عني بشكل ما. هذه أُولى الكوارث التي أحسست بها، فالأب هو الأب، والأم هي الأم. كل شيء كان متطابقاً مع حياة عشتها في زمن ما.

إن اللغة تخلق واقعاً نتواطأ على تثبيته في مخيلتنا، ويتحول إلى حياة بينما هناك واقع خارج هذه اللغة.

سأسرف في الحديث عن حالتي كتوطئة لتشابك الحالتين.

هل يحق لي أن أقول، منذ البدء، إني أحمل كارثة إنسانية تمَّ تجاهلُها عبر تاريخ البشرية الطويل. هل يحق لي ذلك؟ أم إن هذا قفز مبكر على الحقائق الراسخة في أذهاننا، وقولي يأتي من باب التهويل. لن أكترث. وجملة «لن أكترث» تنسجم مع حالتي النفسية تماماً.

سأقول لكم:

في طفولتي كنت طفلاً مغموراً لا يتنبه لغيابه أو حضوره أحد، فأقراني يهملون وجودي ويلتفتون لبعضهم بعضاً في الألعاب والأسرار وتقاسُم الحلوى، ولا يَدعُونني أطَّلع على غَزْلِ أحلامهم بين ضفائر الصبايا، وأساتذتي قنعوا بأن إصبعي لن ترتفع حتى ولو كان السؤال:

- من يعرف اسم أبيه؟

كنت خامل الذِّكْر، لا أحرك شهية بعوضة لأن تدس خرطومها في جلدي وتهرِّب شيئاً من دمي لجوفها.

وفي غياهب هذا التجاهل، كنت مفتوناً بذاتي، أشعر بأن ثمة نجابة أمتلكها من دون سواي، وأني موعود بقدَر عظيم. هذا الوهم - اليقين كنت أسير به، وحين تقذفني الشوارع لبعضها في مشوار لقضاء حاجة لأسرتي في الأماكن القريبة او البعيدة، أظل طوال الطريق مخدَّرا بتلك النشوة؛ نشوة الشهرة التي غزلتها مخيِّلتي، فأتخيل صبايا الحي يتربصن بي من شقوق النوافذ أو من خلال الأبواب المواربة، أو يدسسنَ سيرتي في كتب استذكارهن، أو رسائل عشقهن، وألمح أصابعهن تنغرس في صدري:

- هذا هو!!

فأحرص على التباهي وأتبختر في مشيتي كطاووس ملَّ من العيون المحدِّقة بريشه من غير أن تتغنى به ألسنتهن. وتعاظمت هذه الأهمية في داخلي، وانتقلت إلى أطوار عدة. بدأت أحس بأن الحجارة تحدّثني، والشجر يحنو بأوراقه ليلامسني، وأن الغيم يظلِّلني. بدأت أحس بأن شيئاً ما يُلقى في روعي.

وكلما عبرَتْ سنو عمري كبر هذا الوهم. وكلما انقشع يوم سرى في داخلي ألم مبرح لعدم ظهور أي بشارة تقرِّبني مما كانت مخيِّلتي تغدق به علي. وتكشَّف لي أن ليس لدي أي ميزة تُذكَر. فقد عبرتُ سنيَّ الدراسة كما تعبرها الدواب الضالة، أو كما تعبرها الريح لكنس قاعات يجلس بها أناس كالأواني المستطرقة. الشيء الوحيد الذي اخترته أن تخصصت في دراسة علم النفس. لم يكن هذا الاختيار بحثاً عن تميز. كنت أبحث عما يلجم تلك الأخيلة المتراكضة في جمجمتي والبحث عن فوهات البراكين التي تطفح بحممها على جنبات خاطري. اخترت هذا التخصص بالرغم من هيامي بالتاريخ وعشقي للأيام البالية المقذوفة في سحّارة الماضي.

ربما برعت في تخصصي. وبراعتي هذه مردها إلى رغبة عميقة في التعرف إلى ذاتي، التعرف إلى المنابع التي تفيض من داخلي وتمنحني قيمة وصوراً لا أجدها في الواقع. كنت أتنقّل بين ردهات التاريخ، أرى نفسي منهمكا في إنجاز مهامَّ جسام، ونقل البشرية من عهد لعهد. يخال إليّ أني مَفْصَل لكل الثورات الاجتِماعية والصناعية والسياسية، وأني شغلت مناصب عدة: قائدَ جيش في العهد النحاسي، وملكاً في بلاط بيزنطي، وأميراً في عصور السلاجقة، وساحراً في زمن فرعون، وطبيباً في عهد المسيح، ومنجّماً في العهد الأول، ومفكراً للثورة الصناعية، وعالماً في زمن لم يأت بعد، وأحدَ المستشارين الذي مكّن حمورابي من سَنّ شرائعه، ومكتشفَ البحار المخبأة في الماء، والسياسي المحنّك الذي يهندس سياسة العالم. صور عدة تنثال فتشبعني زهواً وخيلاء.

هذه الحياة المتخيلة التي أعيشها، جعلتني آنف من محاكاة الناس، أو التقرب لذوي المكانة. كنت أرى نفسي أكبر من كل هذه الكائنات الحقيرة التي تجاورني في هذه الحياة. أرى كل هؤلاء البشر مجردَ نفايات عليَّ التخلص منها في إحدى القمائم المنزوية على جنبات الطرق. كائنات وُجدت في حياتي كما توجد أوراق المناديل في مرحاض صقيل ليس لها من دور سوى التذكير بأن هذا المرحاض سيتلوث (ربما يُفهم هذا التعبير بصورة خاطئة لكن لايهمني ذلك). هؤلاء البشر - بجميع أعراقهم - ذوو الروائح الكريهة والأفواه المفتوحة كبيارات لم يُحسَن إغلاق منافذها، يذكّرونني بأن علي واجباً إلزامياً بأن أتخفف من حملهم. هم أشبه ببراز أحمله في أحشائي وكلما تخلصت منهم احتجتُ إلى جلسة أخرى لنبذهم خارج أحشائي. كل هذا الاشمئزاز والاحتقار لم يحصِّنّي من تلك المرأة.

ذلك الكائن الضعيف الجارح أذللت نفسي لها. هي الوحيدة التي كسرتني. وجدتها بغتة تنمو في داخلي. كان عليَّ أن أُخرجها مع بقية الفضلات التي أتبرَّزها يومياً إلا أنها استبدلت موقعها ونبتت في أعلى

صدري. هكذا فجأة وجدتها هناك تغزل حياة أنا الذليل الوحيد فيها. وحين ركعتُ بين يديها، كانت تجلس جلستها الأخيرة لتنبذني خارج أحشائها. نبذتني في العراء واستبدلت أردية عشقي برداء حائل وتركتني معذَّباً بها، أسيراً لزبد الكلمات التي وشوشتني بها في زمن المراهقة وتفتُّق الحياة في الأوردة. كانت تمضي في أيامها وأسكن في أيامي، ساكناً أتحرك بأوهام لم تتحقق، وكلما داهمت مخيِّلتي - عنوة - أجلستُها لتقضم أصابع الندم على تفريطها بشخص لا يشبهه أحد.

أوشكت أن أُفرغ جمجمتي من ذلك الوهم الذي عشت به سنيَّ الطفولة والشباب لكنّ مجيئه ذكّرني بذلك الدعاء الذي ابتهلتُ به حينما كان القلب طاهراً ونقياً. فحين عذبتني هواجسي، اغتسلت ونويت العمرة. أذكر أنني لم أكمل الطواف، فقد أمسكت بباب الملتزم وانهمر داخلي. ظللت أبكي وأسكب تذرعي بأن أُمنح علماً لم يُمنَح لأحد قبلي. وبعد أن جف بكائي وغدوت معلَّقاً بستائر الكعبة، لم أعد أفعل شيئاً سوى متابعة خواطري المتجددة، وأسمع همساً خفيضاً من الطائفين بالبيت:

- هذا هو!

بقيت على هذه الحال وقتاً طويلاً، وحين تركت ستار الكعبة لم أكمل طوافي، وعدت إلى مدينتي فأحللت إحرامي، وظللت أنتظر شيئاً ما يسقط في ذاكرتي عله ينشِّطها لأن تقف على شيء له قيمة.

وقد مضت على ذلك الدعاء أعوام طوال من غير أن يتحقق شيء مما اعتراني من خيالات، فأيقنت أنني سأبقى خامل الذِّكْر كملايين من البشر الذين يعبرون هذه الأرض بوهم لا يتحقق.

كدت أنسى كل شيء. وحين وقف أمامي أيقنت أنني على موعد مع علم لم يسبقني إليه أحد.

أنا الآن أحمل قنبلة ستفجّر هذا العالم، ستحوله إلى هباء، غبار،

وستجعل الجميع ينسف المعارف التي اكتسبها ويعيد تهجئة الحياة من جديد.

كل ما أتمناه ألاّ يكون هذا القول استكمالاً لهواجس الطفولة الأولى وأوهامها.

الدكتور حسين مشرف
أستاذ علم النفس
بالمستشفى العسكري

أذكر أنني متُّ. . .

الآن أذكر هذا جيداً. . .

لستُ واهماً البتة.

راعني منظرُه.

أي رَحِم حمل كل هذه القامة تسعةَ أشهر من غير أن يتفتق تاركاً لها أن تتمدد خارجه.

تلك الدهشة جعلتني أبدو وقحاً. فأول سؤال جابهته به من غير لياقة تُذكَر:

- هل ماتت والدتكَ وهي تلدك؟

لم يُشبع فضولي، حيث ترك ابتسامته مدلاّة على شفتيه، وقبل أن أستأنس بعذوبة ملامحه، عبس:

- دكتور جئتك لأمر خطير!!

لم أُبدِ اكتراثاً لتهويله، وظللت أنظر إليه ببرود ضاعفه أنني استرخيت في أحضان الكرسي الذي أقتعده، وأخذت أتمايل ذات اليمين وذات الشمال مندهشاً من قامته الضخمة التي تُشعرك بأن ثمة سراً صبَّ في هذا الهيكل العجيب. تناسُق ملامحه ودقتها يبعثان الدِّعَة والجاذبية مكتسباً تعاطفي من حيث لا أعلم. شفتاه مضطربتان، تحاولان التخلص من رغوة كلام انحشر في مجرى حنجرته:

- كنت أبحث عنك منذ زمن بعيد!!

- عني أنا!

- نعم، أنت بالتحديد.

بلّلني زهوٌ داخلي، وشجعني هذا الكلام لأن أبادره بألفاظ يخالطها الابتسام:

- ممَّ تشكو؟

- هل لديك الاستعداد لسماعي؟

- . . .

- عفواً، أريد القول: هل لديك رغبة في مساعدتي؟

- أنا أسمعك.

- لا أريدك أن تسمعني فقط، أريدك أن تتعاطف معي، وأن تأخذ كلامي على محمل الجِد لا الاستهزاء والسخرية.

- العلاقة بين المريض والطبيب هي الثقة. أريدك أن تثق بي.

قفز من مكانه متبرِّماً:

- أنا لست مريضاً. عليك أن تفهم هذا جيداً.

- حسناً، أنت لست مريضاً، فأي أمر خطير جئت تحدثني عنه.

تعكر فجأة وأخذ يهذي كرجل داهمه النزع الأخير:

- للتو عدت من الموت. . .

أذكر هذا جيداً. . .

ولست واهماً البتة.

لم يستطع دلق تلك الحمم دفعة واحدة، كان يلقي الجملة ويحدق في وجهي فزعاً وتتسع حدقتاه، وكمن يتعقبه خطر داهم يستحث مخيلته لتسعفه بالكلمات التي توصل كارثته من أيسر الطرق، فتجافيه المفردات ويظل يستجمعها في جملته التالية يقولها في تراكيب مقتضبة ويدسها بين هلعه وإنصاتك. يدسها حذراً، أشبه بمن يضع لغماً ويحاول الابتعاد عن

موقعه في أسرع وقت قبل أن تنفجر تلك العبوة الناسفة في وجهه. وعندما رآني بارداً، أتقبَّل جُمله - التي تعسَّر في صياغتها - بحيادية، وأستزيده في الحديث، صمت صمتاً عميقاً، وبادل نظراتي الحيادية بارتعاشات خاطفة من شفتيه ولمعة نادرة تقفز من بين عينيه المتسعتين لاحتواء ما يصادفهما:

- أتشك في ما أقول؟ نعم تشك!

- استرخِ واحكِ كلَّ ما تشعر به، فأنا منصت إليك. نعم منصت تماماً.

- إنني أحمل سراً لن أبوح به إلا لك، فإذا كنتَ في ريب، فأخبرني من البدء، فأنا غير قادر على قراءة ملامحك... تبدو كمن لا يسمع.

- لا عليك... قل ما تشاء.

- قلت لك: عدت من الموت للتو.

انفرجت عن شفتيَّ ابتسامة صغيرة:

- ومن أي مقبرة خرجت؟

- سؤالك يشي بخبث مَن لا يصدِّق.

- حسناً، كيف عدت.

- لا أظن أن هذا سؤال الراغب في معرفة حالة نادرة.

ونهض مودعاً، غير مبالٍ بنظرات الاستنكار التي أظهرتها:

- سوف أزورك مرة أخرى، فإذا شعرت بتفاعلك معي، فسأروي لك كل شيء. أما إذا ظللت على هذه الهيئة فلن تأسف على تفويت فرصة نادرة لسماع شيء غريب.

وغادر قبل أن أستجمع دهشتي، وأبقيه.

خلق في داخلي فضولاً غريباً، ومضى. ظننت أن هذه الحالة لن

تشغل مخيِّلتي كثيراً، فقد كنت مستعجلاً لمغادرة المستشفى ولم أشأ تفويت فرصة تحللي من جلسة ربما لو استمرت لأخَّرتني عن موعدي. حمدت له صنيعه أن غادرني وفق رغبته من غير أن يُحدِثَ في داخلي تبرُّماً واستحثاثاً في إنهاء الجلسة وفق ما لا أحب ممارسته مع مرضاي.

أدرت مفتاح السيارة واتجهت لمقصدي. لمحته وأنا «أنحني» بسيارتي من مخرج المستشفى. كان يسير منكفئاً، مباعداً بين خطواته، شارداً بعينيه صوب المباني السكنية لموظفي المستشفى. لوّحتُ بيدي محيياً فلم ينتبه، وظل يوسع خطواته مندلقاً لداخل المدينة. أذهلتني خطواته المتسارعة في طريق غير مسلوك، والتي خبأته في لمح البصر بين عدد كبير من المباني وإن خُيِّل إليّ أنه اخترق جدرانها كشبح أتقن هذه اللعبة مراراً!!

انطلقت شحنة اهتمام مفاجئ بهذه الشخصية الآسرة، فأخذت مخيِّلتي تتتبّع تلك اللحظات الخاطفة واستسلمت لإفرازاتها بتآمرٍ مع أعماقي لأن تكون شخصية أقلِّبها في مخيلتي كفرصة لقطع الوقت وتدريب ذاكرتي على استرجاع بعض العلل النفسية العصية التي يمكن أن تصيب الإنسان بعوارض تقرض أعصابه من غير هوادة، مناداحة به إلى تجويفات عصية. وخلصتُ إلى أن النفس البشرية لا يمكن مسحها بتلك النظريات والتحليلات المطروقة، وأيقنت أن المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتلاحقة أدت إلى إصابة البشر بأنواع جديدة من العلل تستوجب مراجعة تلك المسلَّمات وتلك الخرائط التي رسمت تضاريس النفس البشرية منذ سنوات ران عليها التقاعس، والانقياد، وصُيِّرت كقماشة خلفية يتم بسط كل حالة عليها، ومعاودة تضليل المرضى، وأنفسنا بها، وإعمار جيوب الشركات المنتجة لتلك الأدوية التي تترك الإنسان مخدَّرا لبعض الوقت، وربما تُنسيه حالته، وتبقيه أسير البحث عن روشتات تعيد إليه خِدره.

طرأت في بالي فكرةُ أن أتوقف لكتابة هذا الانهمار من الكلمات

علّني أستطيع الإمساك بها كما تنزَّلَتْ لألقيها في محاضرة، أو في مقالة لإحدى المجلات المتخصصة، فقد غدت الذاكرة تسرِّب كثيراً من الأفكار التي أقف عليها فجأة، وأمنّي نفسي بكتابتها حين أكون في وضع يليق بالكتابة. وحين تتوفر شروط الكتابة تكون تلك الأفكار قد تبخّرت وغارت واستعصى عليَّ تذكُّرُها.

كنت جازماً أن مهمتي مع تلك الشخصية انتهت بمجرد وصولي إلى موعدي المضروب للقاء صديق حميم أبعدتنا الأيام والمشاغل عن بعضنا، وغدا تواصلنا يتم من خلال مناسبات عزاء أو فرح.

هاتفَني اليوم مبتهجاً، ومبدياً رغبة ملحّة بتناول الغداء معاً. عرفت في ما بعد أن وليمته جاءت لحصوله على ترقية علمية بسبب فك طلاسم نقش يعود لعهد الأنباط عُثر عليه في المنطقة الشمالية ومكث سنوات يقارن بين رسالة ذلك الحجر وبقية الرسائل المسجَّلة والتي أهدته مفاتيحها الصلدة من غير أن يقدر على مواصلة عمله الميداني بسبب انشغالات أكاديمية صيفية.

كان يحمل مشروعاً ضخماً، يحاول من خلاله إثبات أن الشمال هو الأصل في جغرافية الكون، وأن قوافل الحضارات القديمة نبتت في الشمال، ثم توزعت عبر المضائق والصحارى والبحار في بقية المعمورة. وكان يوسوس بأن حضارة متقدمة اتخذت من الأرض مرمى لنفاياتها. وفي أحد انفعالاته - حين كان يشرح فكرته بحماسة زائدة - هَرَّبَ جزءاً من وسواسه:

- ما الذي يمنع أن تكون الأرض مدافن لحضارة بعيدة تنظر علينا من علٍ. الأقوياء وحدهم الذين يسيِّرون الحياة وفق ما يرغبون. انظرْ للدول القوية الآن، لا تكترث بأخلاقيات رانت في أذهاننا كقيم إنسانية، فهي نبذت تلك الأخلاقيات مستغلة احتياجات الدول الفقيرة لتحويلها إلى مدافن نووية. ألا يمكن أن قوة ما عبرت في زمن ما، وكنا - بالنسبة

إليها - نمثّل آفة في جسد حضارتها، فلجأت لنبذنا لهذا الكوكب، وهذه فكرة شاطحة لن يقبل بها أحد، لذلك يمكن تلبُّس الأشياء وفق عقولنا المركبة على المعلومات التي وُضعت على رفوفها، ولا ضير من تكديس مقولة: إن كوكبنا مقبرة لكائنات أخرى. . .

هذا التهريب وجد أذناً تجول المجالس، وتُفرغ محتوياتها في أماكن لتصفية كدر الكلمات، ليجد صديقي لوماً وتقريعاً أخرساه عن الإتيان بالأدلة التي تعزز ظنه، فاعتذر عن زلة لسانه، ودأب على تسفيه رأيه السابق في كل المجالس التي يرتادها علَّ تلك الأذن تطهّر سيرته مما علق بها من توجُّس وريبة.

صديقي باحث في الحضارات القديمة. هذا التخصص الذي كنت توّاقاً إليه في بداية مشواري الجامعي.

كنت توّاقاً لأن أعرف سرَّ تلك الحضارات البالية التي عبرت الأرض في زمن من الأزمان، وتركت مفاتيح صدئة نادراً ما تكشف عن مغاليقها. كنت - وما زلت - توّاقاً لفحص رفات الأمم السابقة ومعرفة الأسرار التي سحقت تلك العظام النخرة، علّني أعثر على رسالة عشق سرَّبها عاشق، أو ضفيرة لامرأة أسقطت عرش ملك بينما تركت دمه لتتخضب به، أو الوقوف على آفة قرضت كرسي عرش مكين. كنت توّاقاً لمعرفة التفاصيل الصغيرة في بيوت الملوك والوزراء، أو معرفة كيف كان يفكر الرجل المنهوك في الزمن الحجري، ومعرفة مقدار ضخامة أولئك الذين «جابوا الصخر بالواد»، ومعرفة سر القوة التي تمتّع بها العامل الذي شيَّد الأهرامات. كنت قد قرأت أن هناك قوى ذاتية يمتلكها الإنسان كان يستغلها في حياته السابقة (فلقد تنبَّه الإنسان منذ القدم لوجود ملكات خفية لديه مثل التخاطر والجلاء البصري والسمعي والقدرة على تحريك الأشياء بالفكر، واختراق الماضي والمستقبل، والتعرف إلى مكامن الماء أو المعادن في الأرض، والوجود في مكانين في وقت واحد، والطرح

النجمي او الخروج من الجسد). ويظهر أن هذه القوى أُصيبت بالضمور مثلها مثل تلك الحضارات التي اندثرت تحت الرمال، أو رسبت في المياه العميقة، ليخبئها الزمن كهدية مفرحة للقادمين.

وكنت توَّاقاً لمعرفة انطلاقة شرارة ثورة المستضعفين، وتتبُّع خطواتهم، وكيف يستبدلون الثياب الرثة بالحرير وأواني الذهب والفضة. أعلم أن اللعبة واحدة في كل العصور: اللعبةُ دائريةُ الاختلاف في كل اللعبات التاريخية هي نقطةُ البداية، من أي نقطة من محيط الدائرة انطلقت اللعبة.

كنت توَّاقاً لمعرفة ذلك لكنني تراجعت عن هذا التوق بعد النظر في حالة صديقي الذي انطفأ توهجه بسبب هبوب رياح غبية من أفواه المسؤولين الذين يتعامل معهم، فهم يلومونه على صرف الوقت والمال في أتربة، ونقوش، وحجارة بائدة نهضت في زمنها ولم يعد تقليبها مجدياً. وغالى بعضهم في رفض عمله هذا الذي يمجِّد زمن الجاهلية الأولى، ويعيد سرد حكاية كُفر تلاشى. وبالرغم من وقوفه على كثير من المعلومات التي توصَّل إليها لكنه لم يفلح في أن يحوِّل تلك المجهودات إلى عمل يحظى باحترام مسؤوليه، ويحفِّز تلك النفوس الخاملة لأن تنشط، وتدعم دأبه. حاول معهم كثيراً، وعندما وجد أن كل الآذان لاهية عما يقول عَمِي معهم، ولم يعد يقوم إلا بالجهود اليسيرة غير المضنية، كأن يصوِّر نقشاً ويتسلى بفك أسراره من على مكتبه الوثير من غير أن يتحمل الوقوف بين الأتربة والأزمان السحيقة. غدا عمله كعمل العاهرة، مهمتها الارتماء في مخدع أي رجل، والتناكح مع أي جسد مرّ. لقد غدا مشغولاً بتوافه الأمور.

عندما التقينا، كان كعادته يقلِّب في حطب الماضي. وعندما رآني هيَّج النفس لأمور لم أكن راغباً في تذكُّرها. ولكي لا يواصل في مد الحاضر بالماضي طرحت عليه سؤالاً لإشغاله عما نوى:

- أسمع عن العماليق، هل سُموا بهذا لقاماتهم الطويلة؛ بمعنى هل يختلفون في تركيبهم الجسماني عنا.

ضحك منشرحاً:

- وما علاقة العماليق بهند؟

- أرجوك، لا أريد الخوض في هذا الأمر.

- ألا زلت تهواها؟ سمعت أنها غدت جدة.

حمدت اللّه على دخول ضيوفه وانشغاله بهم.

هطلت جيوش الشوق دفعة واحدة. من عينيها تخرج الدنيا، لتوزِّع أفراحها على الناس، والأشجار، والأماكن. تلك الفتاة الريانة كغصن تشبَّع بالفرح ولم يملَّ من الرقص البهيج:

- هل حقاً غدت جدة؟ كيف تغدو تلك الوردة جدة؟

أظنها لا تشيخ، فتلك الروح لا يمكن لها أن تخمد، وتنسى مهمتها في توزيع الفرح على الخليقة، ولا يمكن للهرم أن يجد منفذاً لجسدها المتدفق بالحيوية، والمُصطَفى لمراقصة الهواء في رقصته الأبدية.

- هل حقاً غدت جدة؟

اعتذرت منه بعد الغداء مباشرة، لأجدها تقف في مخيِّلتي عبر أغنية فاحت من حنجرة محمد عبده من خلال مسجّل السيارة: «يا صاحِ، أنا قلبي من الحب مجروح...». هلَّت بضفائرها تمخر في أعماقي كسفينة تقلِّب موجاً ساكناً نسيته التيارات الهوائية حين كان يعبر البحار موزعاً رقصته على الكون. تطاير شعرها على جبينها المستوي. خفق كأشرعة القوارب الضالة في بحر اختطفته عاصفة هوجاء، فظلت خصلاته تتناثر في المدى وتسد أمامي الدروب. تتحول الأشجار، والطرقات، والمتاجر، والأرصفة إلى لافتات تعلن مقدمها، وصوت محمد عبده يعبث في ذكريات بالية، يُخرج فساتينَها، عطرَها، مشيتها، ضحكتها، غضبها، ويترك جراحاً دامية بجوار خطوتها: «جرح عطيب ما له مداوي يالا لالا».

أجلس أرتّب كارثتي معها، وأتخلى عن عناد الأمس. أستحضر لحظة ندم، ورغبة جامحة لأن أقف بين يديها. ألمح تلك العينين المتَّقدتين الذابحتين، وَلْينتهِ بعدها العمر، فما جدوى حياة مكتظة بالنجاح وهي هناك في موانئ الغياب، والهجر، والصدّ. ما جدوى كل هذه الحياة من غير قلب يخفق لانتصاراتك، أو شفتين ترتجفان فَرَقاً عليك؟ أي هزيمة وجدانية أعيشها الآن؟ لا زال هذا التهاميّ يُوجعك بصوته العذب ويمعن في مضاعفة انكساراتك: «لو ينشرى... لو ينشرى قربك... شريناه». أغلقت جهاز التسجيل. شعرت بأن هذا الصوت سيجرِّدني من هروبي الدائم؛ ذلك الهروب الذي تعاظمتُ به أمام لوعتي المنداحة بين الحين والآخر. لا، لن أمكّن أحداً مني، من كبريائي، وأَنَفَتي. سأهرب منها. ليس أمامي سوى مواصلة الهرب. سنين طويلة، وأنا أمارس هذا الهرب. لن أمكِّنها من أخذ الماضي والحاضر معاً.

ظللتُ طوال تلك الليلة أقرأ عن حالات المواليد الذين يمتلكون قامات فارعة، وعلاقة ولادتهم بموت أمهاتهم، فلم أكن أقدر لأنام، وهو يطل عليَّ من سطح غرفتي، بملامحه العذبة وضخامته العجيبة، ولم أجد علاقة بين المواليد ذوي الوزن الزائد والوفاة. وعدت لكُتب التاريخ فوجدت شخصيات شهيرة عديدة كانت ولادتها غريبة ترافقها أساطير أثناء الولادة، ويبدو أن هذا متعلق بشهرة الشخص بعد أن يمضي في الحياة طوراً من الكفاح، ويغدو مرموقاً، فتعلق على سيرته حكايات زائدة، ونوع من الغموض.

طرأت في بالي فكرة قراءة علاقة الجنون بذوي القامات الفارعة، والأجساد الضخمة. قلَّبت الكتب المتراصة في مكتبتي محاولاً العثور على بغيتي فلم يمدَّني أيُّ كتاب بشيء من ذلك، فوجدت نفسي أقرأ في علوم تجافيني وأجافيها؛ فقرأت في: الجيولوجيا، البيولوجيا، الأنثربولوجيا، البيئة، والديانات القديمة ونشأة الحضارات، وأسرار ما بعد الموت.

وضعت أمامي جدول مندل، واقتفيت خطواته لمعرفة متى يصبح السائد متنحياً، والمتنحي سائداً (اللون، الطول، الشَّعر). كانت لعبة مضنية، فهي تحتاج إلى سنوات طوال للوقوف على محصلة «المتنحي والسائد».

في كل تلك القراءات لم أعثر على أي علاقة ما بين الجنون وضخامة الجسم أو نحوله. كل الكتب كانت تعيدني إلى الظروف المحيطة التي يتفاعل معها المريض ويصاب بحالات نفسية تتفاوت في حالاتها وفق الظروف المعيشة. وبعض الكتب ركز على حالات وراثية تؤدي بالشخص إلى احتمال إصابته بالجنون بنسبة مرتفعة! فهل تقودنا الظروف حقاً للجنون؟

من خلال وقوفي على كثير من الحالات يظهر لي أن بذرة الجنون المغروسة فينا جميعاً، هي أشبه بجين السرطان، أو جين العبقرية، وتتفاوت أعراض ظهور هذه الجينات من شخص لآخر. وأكاد أجزم أننا جميعا مصابون بلوثة عقلية نتستر على ظهورها بخلق أعذار لطباعنا الفاسدة!!

نحن مجانين بنسب متفاوتة!

في تلك الليلة لم أذق طعم النوم الهانئ، فكلما أغمضت جفنيَّ رأيته يتدلى من سقف السطح، كخفاش انزوى طوال النهار وتدلى مع العتمة - ربما نثر ابتسامته -، وكرر جملته المستفزة:

أذكر أنني مت. . .

الآن أذكر هذا جيداً. .

لست واهماً البتة.

من خصائص العسكر أن يكونوا ذوي أجسام ضخمة، فما الغرابة التي تجعلني لا أستطيع الفكاك من أَسْر تلك الشخصية التي أغدقتُ عليها من خيالاتي ما لا يمكن أن يتطابق معها حرفياً، وكلما سكنت تموجات

مخيِّلتي المضطربة بمثل هذه القناعات تضطرب من جهات أخرى، وأظل ما بين فتق ورتق.

غالباً ما يمتلك ذوو الأجساد الضخمة ملامح قاسية ومتضخمة، بينما هذا الشخص الذي سلبني من نومي، يمتلك وجهاً عذباً متناسقاً تناسقاً ملائكياً، وكأنَّ وجهه ليس مُلكاً له، كأنه سرقه في غفلة من صاحبه!!

بجهد، تخلصتُ من ابتسامته الوديعة وتهيُّجه المرعب، وغفوت في نوم متقلب. وكلما أحسست بأنني غفوت رأيته يقف أمامي ساكناً، واجماً، خائفاً، ساخراً. أراه يمشِّط الكون بخطواته المتسارعة وأخال أنه في كل مكان، وأرتئي لتوهمي أنه اخترق ذلك الجدار من غير أن يُحبس. صور عديدة يقف بها وكلها تحيطني بهلعها.

ما بال أشياء محددة تسيطر علينا وتُرغمنا على الإبحار معها صوبَ الممكن وغير الممكن، ما بين أزمان متباعدة، تعيد لك مرارتك شهْداً، تصفّي ألمك وتجعلك تحنُّ إليها. تخلصت - بجهد - من تعبيرات ملامحه المرعوبة، وعكّرتُ مخيلتي بأمور عديدة، أخذت تصفو رويداً رويداً، ليبزغ وجهها كنبتة شقت تربتها المجدبة، وأزهرت بوجهها. وجدتها مختبئة هناك، تصْليني في تنورها، وتضحك، تعبس، تمسك خصلات شعرها التي تسرقها الريح دوماً، ترف بهدب عينها اليمنى في اختلاس لحظة غزل هاربة، تقضم طرفاً من شفتيها، وتقف منتصبة، مستعمِرة كلَّ مخيِّلتي:

- هل حقاً غَدَتْ جدة؟

تلك الناعمة النضرة، كيف يتيبَّس فيها الشباب. لم أحنَّ لرؤيتها بعد ما حدث. الآن أنا تواق لرؤية وجهها ولو من بعيد. أريد أن أتيقَّن من أنها غدت جدة، وأن جبروت جمالها تهدَّم، وأنها لم تعد تلك الشهية، وأنها لم تعد نقشَ حنّاء على كف الخليقة (كما كان يصفها صديقي)!!

كنتُ رافضاً أن يتهدَّم ذلك الوجه بتجاعيدِ صَلَفه. أناخت جمالاً

فائراً، وامتطت وجنتين جلاّهما دم دافق. هل تجرأَتْ التجاعيد على أن تهدَّ ذلك الوجه الطافح بالحياة؟

أغمضتُ عينيَّ علّني أسرقها بحلم ما، علها تأتي كما وعدتني في حلم ليلة البارحة، فكلما اشتقت إليها جاءت تتبختر في حلم يُحيي عجافَ السنين.

فستان أبيض، وزغاريد، وأكفٌّ تُلهب الطبول، وبخور. تخترقها ضاحكة كما لم تضحك من قبل. تغطي وجهها بطرحة تفضح ملامحها. تخطو نحو بحر متلاطم الأمواج، ورجل ذو قامة ضخمة يناديها من عمق البحر، وقد ابتلع نصفَ قامته العلوية. تسير حثيثاً، غيرَ مكترثة بامرأة سحبت طرحتها، تستبدلها بطفلة ذات عينين شبيهتين بعينيها، تتقدم إلى الشاطئ، ولا تستجيب لصيحات المتنزهين. تقذف بالطفلة إلى الماء، وتحمل ناقوساً، تدقه لتلك القامة المنتصبة وسط البحر. يتبادلان قَرع النواقيس. تسقط الشمس فتغيب تلك القامة الضخمة بين أمواج البحر. أركض باتجاههما. يتحول المكان إلى جبال أرتقيها، وهي تصعد عالياً وحيدة، تتضرَّج بصفرة شمس باهتة، وتعلو... تعلو، تغيب ويبقى ناقوسها يقرع في الكون بضجيج متواصل، يصم أذنيّ فأنزل من تلك القمم خائرَ القوى. أهبط، أهبط... وأستعيد موقعي شيئاً فشيئاً.

عندما استويتُ في فراشي كان جرس المنبّه يقرع بتواصل مزعج مشيراً بعقاربه الدقيقة إلى الساعة الثامنة والنصف. تخلصت من ضحكتها الريانة فوجدته يتلبَّسني فجأة، يطل عليَّ بعينين فزعتين ونصف قامته التي ابتلعها البحر. كان يقف بكل ضخامته في مخيِّلتي ويُرهقني، وظل مقيماً بها طوال استعدادي للذهاب للعمل. قررتُ البحث عنه في سجلات صف الضباط حالما أصل إلى المستشفى. تذكرت أنه لم يفصح عن اسمه أو عن موقعه أو عن أي شيء يدلني عليه. كنت مُعاراً للمستشفى العسكري، وبزوغ نجمي في المستشفى العام إثر علاج إحدى الشخصيات المهمة في

البلد من أثر هياج عصبي لم يفلح في انتزاعه كثير من المستشفيات الخارجية. عقب شفائه مباشرة تلقيت خطاباً للعمل في هذا المستشفى الذي أقضي فيه طوال النهار وفي المساء أكون في عيادتي الخاصة.

أمراض نفسية عديدة وقفتُ عليها وكانت أسباب حدوث أغلبها تعبر من مضيقَي: الجنس، أو المال.

أحدهم اختلَّ توازنه النفسي من خلال علاقة شاذة بابنته، وآخر يجد متعة في رؤية تفاصيل جسد أخته، وثالث مغرم باللواط، ورابع يتصيد الفرصة لرؤية أمه في مخدع زوجها الجديد، وخامس فقد عقله كلياً حينما خسر كلَّ أمواله في مضاربة كان يخطط لأن تقفز به الى مصاف المليونيرات، وقفز قفزة عالية جداً أفقدته عقله ومكّنته من ادّعاء ذلك أثناء الليل والنهار.

عملي المتواصل في المصحّات النفسية جعلني أمد أولئك المرضى بتسامحي وأجد لهم أسباباً وجيهة لغياب عقولهم. ومن خلال الكلمات القليلة التي سمعتها من هذه الشخصية الضخمة أيقنت أن لديه اختلاطاً معرفياً حاداً؛ تلك المعرفة التي انطلقت من قاعدة المعتقدات الشعبية واختلاطها بقراءات مكثَّفة في الديانات القديمة مكّنت رواسب خاملة من أن تعلق بقاع جمجمته لتحوله إلى رجل مهووس بفكرة الإصلاح وأنه الرجل الموعود الذي تنتظره الأرض منذ زمن بعيد ليطهّرها من رجس الشياطين ويكون هادياً للبشرية وحاملاً للواء التجديد. لم أكن راغباً في جعل هذا التصور تصوراً نهائياً، فلا بدَّ من البحث في جهات أخرى من حياته وإن كانت ثمة إشارات تؤكد افتتانه بذاته واعتداده بنسَبه الذي يدّعي أنه يوصله بالبشارة الموعودة.

كنت أستعجل الوقت لكي يأتي وقت ذهابي للمستشفى، فهذا المريض الذي بزغ عليّ من الغيب أحال ليلتي الماضية الى هواجس لا تنتهي. كنت على يقين من أنني سأعثر عليه حالما أصل لمكتبي، فعلاجه

في المستشفى العسكري يقتضي أن يكون له ملف. كان تفكيري منصبّاً على كيفية الوصول إلى اسمه، وكنت أمنّي نفسي بأن أجد اسمه في الأوراق التي تقابلني على مكتبي، فلربما سجلته في إحدى الروشتات التي أضعها أمامي في كل حين.

هذا التمنّي سقط حين اقتعدت مكتبي ولم أعثر بين أوراقي على اسمه. واستحضرت مقدمه، فعندما دخل عليّ لم تقم الممرضة بإيصال ملفه، وفات عليّ أن أسأله عن اسمه، فبأي اسم يمكن لي الآن البحث عنه. كبست الزر الذي يجاورني مستدعياً الممرضة التي ترافقني في غرفة الكشف:

- أين ملف آخر مريض زارني البارحة؟

اعتذرت متمنية عليّ أن أمنحها لحظات، وظهرت تحمل ملفاً ممتلئاً بالتقارير الطبية. فتحته على عَجَل. كان الاسم لامرأة تعاني اكتئاباً مزمناً لهجر زوجها لها، زفرت بحدة:

- بعد هذه المرأة دخل عليّ رجل ذو قامة ضخمة.

- كانت هذه آخر المرضى الذين دخلوا عليك!!

- بلى، جاء رجل ضخم الجثة فارع القامة وسيم الملامح.

- لم أشاهده يا سيدي!!

لكنتها الآسيوية جعلتني أتذمر من إهمالها وتقصيرها في أداء واجبها، فصحت بها:

- يبدو انك غادرتِ مكانك مما مكّنه من الدخول من غير ملف، وربما لم يكن له ملف أصلاً (كيف لو كان عابراً، جاء فقط ليمازحني وتركني في هذه الحيرة).

- صدقني يا سيدي. إنني لم أنتقل من مكاني.

- لو صدقتك فسأفقد عقلي لا محالة.

بعد هذه المحاورة العقيمة، مضى شهر كامل من غير أن يظهر ذلك الرجل، وكلما حاولت تناسيه قفز إلى مخيلتي عنوة، وأحسست بأنني بدأت أدخل دائرة مَرَضية ستعيق كل قِواي، وقد بدأت فتوحاتها بشل التركيز في عملي، وغدت حالتي مربكة للغاية، وارتفع صوتي لاشعورياً، فحين أفكر فيه بعمق أجد الكلمات تخرج من فمي عنوة:

- اظهرْ وسأصدقك.

نبهتني ممرضتي إلى أنني أفكر بصوت مرتفع، وحاولت أن تبدو كيِّسة وهي تلقي ملاحظتها:

- دكتور أنت تردد جملاً لا أعرف معناها. أتمنى أن تخبرني بمعناها حتى أستطيع تلبية كل ما تأمر به.

دُهشت من قولها، وعندما طالبتها بترديد ما أقول، جاءت جملة «اظهرْ وسأصدقك» كحجر فلق رأسي، وأضافت جملاً تعسَّرت لكنتها الآسيوية في ترديدها:

- هل أردد مثل هذه الجمل دائماً؟

هزت رأسها كدمية لم يسعفها تسجيلها أن تنطق جملتها بوضوح. وقبل أن تتدهور حالتي توصلت لفكرة نفذتها على الفور.

قمت بكتابة إعلان مصغّر وزعته في ردهات المستشفى:

«على المريض الذي ادّعى أنني غير مصدق لحالته، أخبره أنني مؤمن تماماً بما قال. الرجاء منه التفضل بزيارتي.

الدكتور حسين مشرف»

كان إعلاناً شاذاً ركيكاً، أفقدني ثقة بعض الزملاء ومن بينهم مدير المستشفى الذي استهجن مثل هذا التصرف ولامني على سلوكي الخاطئ، كما وصفه، وعنّف رعونتي:

- ماذا يقول عنا المرضى وذووهم، بل ماذا يقول المسؤولون لو رأوه؟

- يا دكتور هذا أمر يخصني.

- لا، هذا لا يخصك، بل يخص المستشفى، بل من أدق خصوصيات المستشفى.

وتخلَّى عن هدوئه الدائم بانفعال واضح:

- وهل تقوم بالكشف على مرضى مجهولي الهوية. ألا تعرف أننا نعمل داخل مستشفى عسكري؟

حرت ولم أجد جواباً، ولم أستطع المناورة، فاعترفت بخطئي، وأخذت أبحث عن هذا المريض الذي تركني في حيرتي ومضى.

الجنس هو المفتاح الذي ننساه في كل مرة
ونحن نحاول فتح أبواب أنفسنا المغلقة.

كنتُ منكبّاً على إغلاق ملف لشخص يعذبه الشك في زوجته، ذلك الشك الذي أوصله لأن يرسل لها جوابات غرامية يومياً، بتوقيع عشّاق مجهولين. وعندما يرى تلك الرسائل أسفل قامته يزداد يقيناً أنها بارعة في أداء أدوار العفة!

كان جندياً مكلَّفاً بحراسة أحد القصور، يقف أمام تلك البوابة الضخمة شاداً بندقيته على ظهره ولا تتحرك منه إلا عينان ذابلتان، يمضغ مَلَل الدوام بالتطلع للسيارات العابرة للرصيف المقابل. كل امرأة يلمحها يجزم أنها غانية أو عشيقة خرجت من بيتها لموعد غرامي بينما زوجها محنَّط في عمل يبعده عنها وقتاً طويلاً، يمكّنها من أن تغيب كما تشاء قبل أن يعود، يحدّق باتساع حدقتيه في السيارات الحاملة لأي امرأة تجلس بجوار السائق وخاطره يسكب ملامح زوجته على كل واحدة منهن!

معذَّب بهواجسه، وتعذّبه كثيراً معرفتها أنه لا يستطيع - أثناء دوامه - مغادرة بوابة القصر ساعة واحدة. كان يمسك لسانه بيده ويشده بقوة، متمتماً جوار حائط القصر الذي يحرسه:

- هذا اللسان بحاجة للقص. لو لم أخبرها لربما خشيتْ أن أباغتها فجأة!

منذ أن يبدأ دوامه الليلي يسرج مخيِّلته بصور الخيانات الزوجية،

ويقرب ما يتطابق مع حالته الوظيفية، ويغزل خطى خيانة زوجته له:

يغمض عينيه، ويثرثر بوساوسه. الآن جرت أناملها على أرقام الهاتف... صوتها يخترق قحف جمجمته متموسقاً:

- ألو حبيبي، وحشتني.

- هلا حبيبتي، أنا مشتاق، راغب في تكرار إشعال حرائقك.

- وأنا مشتاقة أيضاً لذلك الحريق.

- هل خرج؟

- تقصد ذلك الغبي. نعم لقد مضى من لحظات، وقد هيأت لك نفسي فلا تتأخر كثيراً.

شقته مقذوفة في السطح تستقر هناك وحيدة وبعيدة عن تلصص الجيران، هذا الوضع سيمكّن العاشق من التسلل إلى هناك من غير أن يثير شكوك الآخرين. يكفي أن يقفز الدرجات العشر من الدُّور الأخير ليكون في مأمن، كما أن شقته الملاصقة لتلك البيوت المنخفضة القامات تضفي على العاشق التمتع بالأمان الكامل. يكفي سماع وقع قدميه القادمتين من الخارج ليتمكن العاشق من تسوُّر تلك الجدران الهابطة والاختفاء عن العين الباحثة عنه، ومن تلك الأسطح الشعبية سيهبط من إحدى المواسير ويسير في الشارع بثقة مفرطة.

اليوم جاءني محمرَّ العينين، مسهَّد الجفنين. جلس يحدق في الفراغ تمتم:

- قبل ليلتين تركت القصر، وربضت في سطحنا كقط متوحش. كانت ساعات الانتظار تمضي بطيئة. ومع كل ثانية أجزم أن قدميه المتدربتين قد قفزتا السلالم العشرة واختبأ في سرير نومي. وفي كل لحظة أهمُّ بالدخول عليهما، إلا أنني أتراجع خشية تفويت فرصة كهذه التي سنحت لي بتعليق رجاء على مسامع أحد الأصدقاء أن يستلم خفارة هذه الليلة بدلاً مني، قبل أن أخرج للعمل. كانت تحثني ألاّ أتأخر عن

دوامي، فأيقنت أنها على موعد هذه الليلة، فرجوت صديقي باتصال قصير أن يأتي إلى مكاني، وربضت لهما فوق السطح منذ وقت مبكر. لم أكن قادراً على إشعال سجارة لأتلهّى بها في قطع رتابة الوقت، فانشغلت بمتابعة أضواء الشوارع والبيوت المحيطة ببيتي. هناك بيت أبي خالد الذي استلم زوجته من المخفر، يجاوره من الخلف بيت أبي طارق، يبدو أنهما تبادلا غزلهما من فوق السطح وانتهى الأمر بخراب البيتين.

لا زال الشارع يغص بالعاطلين والمرتمين على باحات الحارة العتيقة: صخب، ونفث دخان، وتبادل نكات عار، وأغاني عشق تهرب من مسجلات بعض السيارات الرابضة أمام البيوت، ومجموعات تلعب لعبات مختلفة (ورقية، ضامنو، كيرم)، وأصوات نساء تنده على بعض الصِّبية الغارقين في الأزقة... لا زال الليل حياً وصاخباً.

وكلما تقدم الوقت أصيبت الشوارع بخِذْر، وتقلص العابرون، وتبقى قلة من الشباب، يديرون رؤوسهم صوب النوافذ المفتوحة.

- أيٌّ منهم غريمي؟

تثبتُّ من مسدسي، واطمأننت لاستعداده بالقيام بالمهمة من غير تلكؤ. كانت رغبة التدخين تلازمني في كل لحظة، وأهمُّ بالنزول لإشباع رئتيَّ بالدخان والعودة من جديد، وفي كل مرة أقبر هذه الرغبة.

رحّل الليلُ كثيراً من الأجساد إلى مخادعها، وأخذ يستعد لأن يطوي سجادته بعد أن يئس من إغماض تلك العيون الساهرة هناك. لم يتبق سوى ثلاث ساعات، أو أقل، لينبلج الصباح. كنت نادماً على أنني لم أستطع توقيت وقت الخيانة بصورة دقيقة. وقبل أن أكمل حسرتي، سمعت باب شقتي يُفتح، ويُغلَق على عجل... أُصبت بحالة رجفان وهبوط حاد تملّكانني، وهويت:

- وقت مناسب جداً للخيانة. بعد هذا اليقين، ماذا أصنع الآن؟

استويت في وقفتي، وقدحت همتي:

- عليك الآن أن تثأر لشرفك المهدور.

تثبتُّ من مسدسي للمرة الألف. أدرت المفتاح بعين الباب، وبخطى هادئة سرت لغرفة النوم. كنت أسمع تناشحاً حاراً:

- يالا الكلبة!!

وبعجل مضاعَف، قفزت فاتحاً غرفةَ النوم، ومادّاً مسدسي في اتجاههما.

كانت غارقة في بكاء محموم، وهي تحتضن ابنتنا وأمها تهدهد عليها:

- لقد أرعبتني. هي مصابة بحمى كأي حمى تصيب الأطفال في مثل هذا العمر.

وعندما رأتني مصوّباً مسدسي على رأسها، خرجت مع أبيها الذي كان لا يزال يصعد السلم. خرجت ولم تعد.

- مشكلتي الآن أنني أشك في أنها في بيت أهلها تمارس البغاء بعيداً عن عيني!!!

أغلقت ملفه بعد أن دوَّنت هذه الملاحظة:

هناك أنفس تتلذذ بالشك، ويغدو وجوده ملازماً لها، لا تريد الخروج منه لأن الحياة - عند هذه الشخصية - هي شك دائم؛ شك في ظاهرة العلاقات الإنسانية، وربما عبرت حياته الطفولية لحظة خيانة عميقة فترسَّبت في داخله.

كنت قد قررت أن أبحث في تضاريس هذه النفس، واهتديت إلى حكاية سمعتها من رجل مسنّ، حيث كان يرى أن زوال الشك لا يحدث إلا بزحزحته في اتجاه آخر، وروى هذه الحكاية:

في زمننا، لم يكن هناك أطباء نفسانيون، والمرضى النفسانيون يعيشون بيننا ولا نعرف أنهم مرضى، ونُرجع ما اختلفنا فيه لطبائع

البشرية. وكان بيننا رجل توهم أنه حامل. كنا نراه يغطي بطنه بـ«كوت» أثناء الحر والبرد، ولم يطَّلع على أوهامه أحد. ومع مضيّ الوقت كان يحصي مرور الشهور، وحين بلغ في إحصائه الشهر السابع، انفجر باكياً أمام صديق له، وحكى له الحكاية، وكان بيننا رجل يطبّب الناس بالأعشاب وبالحكايات المقنعة، وعندما عرضناه عليه لم يسخر من وهمه بل أجلسه كما تجلس الحوامل، وبالغ في العناية بحمله، وتمريخ بطنه، وحدّثه مستبشراً:

- لا تخفْ، ستكون الولادة يسيرة!!

وأخذ يتطلع إلى بقية جسده، ووقف على رأسه مبدياً اهتماماً زائداً بعينيه، فارتبك الرجل متسائلاً:

- ما بالك تتطلع في عيني هكذا؟

- صحيح أن ولادتك ستكون يسيرة... لكنني الآن اكتشفت أن عينيك بهما مرض غريب.

- ما بهما عيناي؟

- إذا لم تتنبه لهما فإنك ستُصاب بالعمى.

وودَّعه، فنسي الرجل بطنه وجنينه، وأخذ يتطلع إلى عينيه في كل حين. وبعد ثلاثة أيام عاد صائحاً مستجيراً بالمطبب:

- أنقذني...

فقال له مازحاً:

- لم يحن موعد ولادتك

فصاح: لم يعد في بطني شيء. أنا الآن لا أرى... أرجوك، ابحث لي بين أعشابك عما يعيد إلي بصري!!

لا بدَّ من البحث عن شيء يزحزح شكه باتجاه آخر.

** **

كانت ثمة ورقة لا تزال تستقر في مقدمة مكتبي، لتذكّرني بذلك المارد الذي أقلقتني حالته عما سواه. ورقة صغيرة، كُتب عليها:

للتو عدت من الموت.

جملة قصيرة باترة ومرعبة، حروف رُتبت بشكل معين فخلقت الفوضى داخلي وداخل مريضي. أنا سامع أو قارئ لها، فكيف بصاحبها الميقن كل اليقين بحدوثها.

استدعيت الممرضة لتجلب لي كأساً من الشاي، وتشاغلت بتصفح ملف امرأة دنا موعد دخولها، ولم أتنبه للباب وهو يُفتح. أحسست بنَفَس حار يشاركني الغرفة. لم يسبقها عطرها الرخيص كالعادة، أو طَرقها الخفيض على الباب. أحسست بشيء كالمارد يقف بيني وبين العالم. رفعت رأسي وتطلعت. ارتبكت وفزَّ قلبي من موضعه في تموجات سريعة مقتضبة. حاولت السيطرة على وجيبي قبل أن يختفي فجأة:

- أنت!!

- نعم... أرى في وجهك بوادر اهتمام.

- منذ فترة وأنا أبحث عنك، أين كنت؟

- ها أنا جئت.

حاولت أن أبدو متماسكاً، وهادئاً:

- هه أخبرني، لماذا عدت مرة أخرى؟

- أنت طلبت مني زيارتك.

- هل قرأت الإعلان.

- لا.

- نعم، تذكرت، فالإعلان لم يدم سوى يوم واحد، فكيف عرفت بطلبي لك؟

- لا زلت تبحث في الأشياء الجانبية، وهذه بوادر غير مشجعة.

أجفلت لتأرجحه بين النهوض والجلوس، وخشيت أن يغادرني فجأة، فأسرعت بالرد:

- لا . . . لا! ولكن أحببت معرفة درايتك بطلبي لك.

- يمكن أن أقول لك إن أحد زملائي أخبرني به، وسوف أروي لك حيرة زملائي من هذا الإعلان، وعندما سمعتهم وسألتهم أخبروني بالحكاية. هل هذا كاف لإشباع فضولك؟

- نعم كاف، استرح الآن، وأخبرني عن قصتك.

جلس في مواجهتي بحركة رشيقة لا تتناسب مع ضخامة جسده. ضغطت على الزر - المجاور لمكتبي - فصدر رنين متواصل. نهض متوتراً:

- ماذا تفعل؟

- هل أنت خائف؟

- من ماذا؟

- لا أعرف، فهيئتك تُبدي كمّاً هائلاً من الرعب.

- لا . . . فقط أردت أن أعرف لماذا ضغطت على الجرس، فأنا جئت لأكون أنا وأنت فقط.

- سنكون بمفردنا، أردت من الممرضة إحضار ملفك.

- أي ملف؟

- ملفك الطبي.

- ليس لدي ملف.

- حسناً، سأقوم بتحويلك إلى الاستقبال لتأسيس ملف.

(ندمت على كلمة تحويلك وخشيت إن هو غادرني ألاّ يعود)

- لا أريد . . .

- وكيف يتم علاجك.

- أنا لستُ مريضاً، جئت لأوقفك على حقيقة تُلازمني وأمضي.

- أنا أعرف أنك لست مريضاً، ولكن أنظمة المستشفى تقتضي أن يكون لك ملف.

- إذا كان هذا ضرورياً فأنا أعتذر.

أحسست بأنه سيغادر، فهدّأت من روعه، ونهضت من كرسيي، فقفز من مكانه:

- إلى أين؟

- ماذا بك، لا تخف، سوف أغلق الباب علينا، لكي نكون بمفردنا.

عاد لجلسته متمتماً:

- حسناً.

كانت الممرضة على وشك أن تدفع الباب، وهي تحمل كأس الشاي، فتناولته منها طالباً عدمَ السماح لأحد بالدخول. رمت في مسامعي جملة مقتضبة بالموافقة، وأغلقت الباب. وضعتُ كأس الشاي بجواره، وجلستُ أمامه مباشرة:

- أخبرني الآن ما هي قصتك.

- لقد أخبرتك.

- كان كلاماً عَجِلا مضى عليه شهر أو يزيد، ولم أدوّن شيئاً عنك.

أخرجت ورقاً من درجي، ونهضت من كرسيَّ، وطلبت منه أن يسترخي على كرسي الكشف، فتبسَّم ابتسامة آسرة:

- يا دكتور لو استرخيت هنا فستجد ثلاثة أرباع قامتي على الأرض. أفضّل أن أبقى في مكاني.

- كما تحب... أخبرني ما هو اسمك.

- ليس مهماً.

- أنت غريب جداً، بماذا أناديك إذاً؟

- لا أعرف، ولكن لا أراه مهماً، فالأسماء سجون، وأنا خارج هذا السجن.

- الاسم سجن! كيف ترى ذلك؟

- الاسم دليل على أنك داخل حيّز، داخل إطار، وأنا جئتك من خارج الأطر، أتمنى لو أن لي اسماً معيناً أستند إليه ويُخرجني من هذه الدوامة.

- فلسفة رائعة. هل تقرأ في الفلسفة أو الديانات القديمة.

- أنا لم آت لأدلق حِكَماً، أو أستعرض قراءات. أنا أريدك أن تصدق ما أقول وتقف على حالتي وتساعدني. لقد تعبت كثيراً.

- أمرك عجيب، كيف تريدني أن أقف على حالتك وأنت لا تريد أن تمنحني حتى اسمك. إن علاجي قائم على معرفة كل التفاصيل التي عشتَ فيها.

- سوف أختصر كل الكلمات التي يمكن أن تخدعك، أو تخدعني، فالكلمات وسائل قاصرة!!

- ...

- هل يمكنك الخروج معي للحظات وبعدها لك الحق في سماعي أو رفض مساعدتي بتاتاً.

- هل خروجي معك، يغيّر في الأمر شيئاً؟

- قلت لك سأريك شيئاً. سيُغْنيك عن كل شيء. سيُغْنيك عن كل الكلمات التي يمكن أن تسمعها مني، ويجعلك تفكر ألف مرة قبل أن تتفوه بكلمة، وأنا جازم - بعدها - بأنك ستصدقني في كل ما أقول.

تباطأتُ مقلِّباً تلك الورقة الصغيرة التي أمامي، فنهض مادّاً يده:

- وداعاً يا دكتور.

لم أمد يدي إليه، أخذت أتفحص معالم وجهه:

- لماذا لم تقل إلى اللقاء؟

- لأنني لن أعود، فأنت لم تزل في ريب مما أنا فيه، وتصرّ على أنني مريض. . . أولاً، أنا لست مريضاً حتى تصر على فتح ملف. ثانياً أنت تزرع الشك في كلماتي وبهذا لن يُجْدي الكلام الكثير. كنت راغباً في كشف حالتي لشخص ما: هذا الشخص كان أنت.

- اجلس.

- أردت أن أريك ما لم ترَ، أن تقف على حالة نادرة وعند رؤيتها ستكون أول شخص يقف على حالتي.

- ولماذا تريد أن تُريني أنا.

- لا أعرف. . . إحساس داهمني منذ زمن أنك الوحيد الذي يجب أن يقف على هذه الحالة. ليس إحساساً، بل يقين. فأنا لا أعرفك تماماً بل أشعر بك، وكثيراً ما داهمني خاطر باسمك، واسمك بالتحديد، هل تؤمن مثلاً بتوارد الخواطر.

هززت رأسي من غير أن أجيب فأكمل حديثه:

- أنا أؤمن بأبعد من ذلك.

- مثل ماذا؟

- لن أجيب. إذا أردت أن تخرج معي فستعرف.

- اجلس.

منحني ظهره، ومضى صوب الباب مودّعاً. وعندما وجد الباب مغلَقاً التفت إليَّ مبتسماً:

- لو جذبته بعنف فسينخلع في يدي.

خلعت معطفي، ونهضت متودداً:

- لا حاجة لك في خلعه. سأكون رفيقاً لك.

احتفل وجهه بابتسامة واسعة، ومضينا. كانت الشمس لا تزال تثرثر

في الخارج، سحبته للسيارة، فامتنع:

- مشواري لن يبتعد بك عن المستشفى.

- أين تريد أن تذهب بنا؟

- أريد أن أقف تحت الشمس! تعال إلى حديقة المستشفى.

كدت أقول له: يا مجنون، لولا أن استدركت جملتي في آخر لحظة:

- وماذا تريد أن نفعل تحت الشمس. وهل أخبرك أحد أنني بحاجة لحمام شمس.

- أنا سأكون تحت الشمس وعليك أنت أن تلاحظ فقط.

(أي حمق هذا الذي يقودني إليه هذا المعتوه. رغبتي في مجاراته جعلتني أتسامح معه فوافقته، بينما كان يبدو أكثر حيوية ونشاطاً. رأيته يركض إلى منتصف حديقة المستشفى، ويغيّر مكانه في زوايا متعددة ويصيح بي):

- هل لاحظت شيئاً؟

تصنَّعتُ أنني أتأمل حركاته، وقفزاته المتسارعة المتناغمة:

- جسدك ريان بعكس ما تبدو عليه من ضخامة. يبدو أنك تجيد الرقص بشكل فذ يغبطك عليه الكثيرون.

- ركِّز ملاحظتك، ودع رشاقة جسدي جانباً.

(حيَّرني، فأخذت أتأمل ما يمكن أن يقوله جسده من إيماءات أو إشارات دالة على رقصة أو على لغة من لغات الجسد. فقد قرأت أن هناك من يتحدث بجسده، وأذكر عندما كنت عضواً في مسرح الجامعة أن المخرج كان دائم الصراخ: للجسد لغة لا يفهمها إلا البارع في قراءة تلك اللغة).

أطلتُ في تأملي، عاد صائحاً:

- هل لاحظتَ شيئاً؟

- حقيقة لم أقرأ في لغة الجسد كثيراً، ولأول مرة أكتشف أن الجسد يمكن ان يقول جملة رائعة كما تفعل أنت الآن.

صاح ضَجِراً:

- انظر لعلاقة جسدي بالشمس.

(الآن أيقنت من جنونه. ما هي العلاقة التي يمكن أن تنشأ بين الجسد والشمس) وعندها زاد هياجه:

- انظر لهذه العلاقة الشاذة. . . الغريبة النادرة المستحيلة: لا أعرف أي كلمة يمكن أن أُطلقها على هذه العلاقة.

أحسست بأنني لن أقدر على مجاراته فصحت به:

- أي علاقة يمكن أن تنشأ بين جسدك والشمس؟

- عليك أن تجيب أنت؟

- لم أستطع فهم ما ترمي إليه.

- حسناً، تعال قف حيث أقف.

تحركت باتجاهه. وقفت مكانه وابتعد عني محرِّضاً:

- ما هي علاقة جسدك بالشمس الآن؟

(لعنة اللّه على هذا المخلوق. بدا شكلي كمهرِّج يستجيب لصيحات الجمهور في إحداث حركات بلهاء لا تُضحك سوى الأطفال. ماذا لو رآني الآن أحد من مسؤولي المستشفى. حتماً ستنطبق عليَّ مقولات كثير من الناس الذين يصمون المعالجين النفسانيين بالعته من كثرة مجالستهم لمرضاهم. وإذا تسامحوا معي في هذا الجانب فلربما يتقوَّلون إنني لا أحتفظ بمهابتي في الطرقات.)

كان لا يزال يردد صراخه:

- ما هي علاقة جسدك بالشمس الآن؟

صحت به مغتاظاً:

- أي علاقة تتحدث عنها؟

- كنت أظن أنك قوي الملاحظة.

تشقق صوتي حتى خشيت أن يهرع أحد من داخل المستشفى لنجدتي:

- خلِّصني... ماذا تود أن تقول؟

- أود أن أتركك هنا وأمضي... فأنت لا تستحق أن تقف على هذا السر العظيم!

- أقف على أي سر يا مخبول!

- كلمتك الأخيرة سوف أتجاوز عنها. وإذا تفوهتَ بها فلن يكون بيننا تواصل أبداً.

أحسست بأنه جُرح، فاستكان بجملته السابقة، تلعثمت متحرجاً:

- أعتذر... فقط لا أعرف ماذا تود الوصول إليه من كل هذه الحركات.

أقبلَ عليَّ وأمسكني من يدي - بدوت كمن تعلَّق بجدار وتمددت قدماه في الهواء - وابتعد عني قليلاً كمن يراقص فتاة في رقصة طائرة:

- يا أحمق ماذا تفعل؟

- تنبه إلى أنك تعيد اللفظة ذاتها بصورة أخرى، وسوف أتجاوز عنها إكراماً لنفسي هذه المرة!!

- أعتذر.

- ها أنت تُخرج اعتذاراتك مرتين متتاليتين من غير أن تحبس يقينك من كوني مجنوناً، أو مريضاً نفسياً وفق التعريف الذي تحبّذ قوله!

- نحن لا نجلس في قاعة للمجادلة. أخبرني ماذا تصنع بي؟

أخفَضَ قامته كثيراً، وشبك يده اليمنى بيدى، واستدار كراقص متيَّم بملاحقة نغمة هاربة من عُود أضناه الوَجْد فاستهام وانتشى مرفرفاً ومحلقاً

في رقصة تدلَّت لها رقبته كطائر ذبيح رفَّ كثيراً في محاولة لانتزاع جسده من بين نُطَف دمائه المسكوبة.

- أنظرْ إلى جسدينا وقل لي مَن الأحمق.

- أي جسدين. ها نحن متماسكان كعشيقين، وهذا المشهد ستكون عاقبته وخيمة لو أن شخصا رآنا ونحن نجسّده بهذه الحالة.

جأر بصوت حاد:

- لم أظنَّ أنك بهذا العته.

أطلقتُ ضحكة طويلة:

- وها أنت تتهمني بلفظة مرادفة للجنون.

- لا أحد يستطيع إثبات أنه غير مجنون. كلنا نقع بين الظل والضوء.

وفترت عن فمه ابتسامة واثقة:

-... كلنا نجلس بين الظل والضوء. بعضنا تظهر صورهم، والبعض لا تظهر.

- ها أنا أسمع فلسفة مرة أخرى.

- دع عنك الحمق الجاهز وركز. انظر لنفسك تحت الشمس.

كدت أشتمه قبل أن تقع عيناي على ظلي معلّقاً يده في نصف استدارة من غير أن يجاوره ظل مريضي. فصحت مرعوباً:

- من أنت؟

- ...

- أعوذ باللّه منك!

- ...

- ابتعد عني، أرجوك ابتعد...

- كنت متوقعاً أنك لن تصمد أمام هذه الحالة... تماسك وتذكَّر أنني قلت لك:

«أذكر أنني مت. . .
الآن أذكر هذا جيداً. . .
لست واهماً البتة».

لم أكن قادراً على استجماع أنفاسي اللاهثة أو السيطرة على وجيب قلبي. أوشكت أن أدخل في إغماء، فأسندني. نفرت من بين ذراعيه مذعوراً:

- أنت لست إنساناً. . . نعم أنت لست إنساناً.

كالمنتشي كان يحدق بي باسماً:

- هل مرت عليك مثل هذه الحالة؟

- . . .

- ما بالك صامتاً. هل نتبادل أدوار الصمت؟

- . . .

- كنت جازماً أنك لن تتحمل. أنت المتسلح بكل النظريات، ها أنت تتصنَّم وتخرس. ربما تكون ذاكرتك الآن تركض في الخرافات الشعبية، وتتلو آيات من القرآن كي أحترق وأتبخر ولا تراني ثانية، وربما تعود لتحكي لأصدقائك أنك التقيت بجني، جني حقيقي، وتبخَّر من بين يديك.

- . . .

- هل ستستمر على هذا الوضع؟

- . . .

- أرجوك، تعبت من هذه الحالة، وجئتك لكي تساعدني.

- . . .

- يظهر أنك لم تعد تمتلك شيئاً تقدمه لي. وداعاً.

وقبل أن يبتعد تبعته صائحاً مجهَداً: انتظر. . . انتظر.

. . . بينما كانت خطواته تسابقني لبوابة الخروج.

السؤال يمنحنا جناحين للتحليق بعيداً.

أما الإجابات فهي شَرَك، نظل بقية العمر نحاول الفكاك منه.

رسالة(*)

«أذكر أنني مت. . .

الآن أذكر هذا جيداً. . .

لست واهماً البتة».

دائماً ما يكرر جُمله السابقة قبل البدء بالحديث. يحدث هذا في كل الجلسات التي خصصتها له. يكررها من غير تحريف او تعديل في نغمة الصوت، أو الفجيعة التي تعتري ملامحه أو في ارتباك شفتيه واتساع حدقتي عينيه، وكأن المشهد تم تصويره وعليَّ مشاهدته في كل حين من غير أن يصيبني الملل أو يداهمني الشك باستماعي لحكاية معادة، بل عليَّ أن أستقبله بنفس الدهشة الأولى والحيرة المتكررة والعجز الدائم عن البتّ في أمره.

هناك تصرفات حمقاء نمارسها في كل حين ولا نكفُّ عن افتعالها بالرغم من معرفتنا بعمق تلك الحماقة التي نرتكبها في كل حين.

ما إن يقف أمامي حتى يعيد التفاصيل المرعبة نفسها التي تعبر مخيِّلته. . . وأبادله بدوري تلك المشاعر نفسها، المتناقضة حيال إصراره ومحاولة استكشاف بؤرة الخلل الذي يشي بأن الحالة ما هي إلا توهمات

من صنع الخيال، وأضيع وسط تلك المحاولات وأبدأ معه في افتراض صحة ما يقول.

في أول مرة حين دلق وساوسه انتابني شعور بأن من يقف أمامي يعاني تهيجاً عصبياً متقدماً، ولا زال هذا الظن يعيش فتياً في ذاكرتي حتى أوقفني على أمر جعل كل النظريات التي عملت وآمنت بها تسقط أرضاً مستغيثة بعقولنا للبحث في هذه الحالة وتحليلها وفق المنطق الذي تسير به قوانين الكون أو إثبات أن هناك أموراً أخرى تسير عكس المنطق والنظريات العلمية التي شاخت في أذهان الفلاسفة والمفكرين وعلماء الطبيعة...

كان عليَّ أن أحزر منذ البداية أنني أقف على حالة نادرة، وربما تدخل ضمن المستحيلات التي لا يقدر أحد من البشر على إثباتها كحقيقة، بل تظل حكاية يتلذذ السامعون بسماعها لتزجية الوقت من غير الدخول في التفريعات أو المطالبة بتحليل هذه الحالة كحدث استثنائي ربما يقود لدهليز سري خبأته الحياة عن أعين البشرية منذ الأزل إلى الآن... ومن وجد نفسه داخل ذلك النفق وأراد أن يوصل الآخرين إليه سخروا منه وألبسوه رداء الجنون، وإذا تسامحوا معه تركوه يعيش ممتناً لهم هذه الأريحية:

أن يتركوه يقرض وساوسه بينما هناك يقين لدى كل من رآه بأن في الأمر خطيئة ارتكبها فعوقب بملاحقة الوساوس... وربما ظن أن جسده أصبح مستوطنة لأحد المردة فوقف على أبواب الشيوخ وتمرَّغ بمروخهم وتقبَّل بصاقهم وبقي يبحث بقيةَ عمره عمن يطرد ذلك المارد من جسده.

لقد وصلت إلى يقين بأن هذا الكائن هو سر لم يعرفه أحد... وقد تم تهريبه في غفلة من الحياة. ولأنني واثق من أني سأقع ضحية تلك السخريات من قبل الأكاديميات الطبية أو الباحثين النفسانيين والاجتماعيين، وربما تجرأ أحدهم ونصحني بالوقوف على أبواب أحد

الشيوخ اقتداءً بمريضي، إلا أنني مصرّ على مواصلة تسجيل كل الأحداث التي ذكرها، ولذلك لن أحرص على ترتيب مقولاته وحوادثه وسأتركها كما هي لعلّي أتمكن من تصنيفها وفق خطة سأتّبعها لدراسة هذه الحالة.

وقد سعيت لمعرفة كل المحيط الذي عاش فيه، من خلال توثيق كل أقواله. وغامرت بالسفر الى قريته والوقوف على تفاصيلَ من حياته وحياة أسرته وخشيت أن أكون في محل ريبة من قبل أمير القرية الذي دس العيون في كل مكان أصل إليه، برغم إصراري على مقابلته ورفضه الدائم الاستجابة لهذا الطلب. الآن أنا محتاج لأراكم فهل أطمع في ذلك؟

مريضي ميقن يقيناً تاماً من أنه مات، وعاد. يقف في تلك اللحظة المتأرجحة بين الحياة والعدم، ويرى أن هذه العودة ليست وهماً بل حقيقة يدلل عليها من خلال كثير من الأحداث التي مرت به والتي يمكن أن تخضع للتمحيص والمقارنة. هذه هي المعضلة التي لم أستطع رفضها أو قبولها، ويبدو أنني أُصبت بلوثة مريضي، فصرت مريضاً بوساوسه. لم يعد هناك ما يشغلني سوى إثبات أو نفي مقولاته، ولهذا أجدني محتاجاً لمساعدتكم.

- هل مرّت بكم مثل هذه الحالة؟

ليقل كل منكم رأيه أياً كان، فربما كلمة من هنا أو هناك تُوصلني لبغيتي... أرجو منكم مد يد العون. وتقبلوا خالص التحيات.

د. حسين مشرف

أستاذ الطب النفسي

(*) أُرسلت هذه الرسالة لعدد من الأصدقاء في محاولة للتعرف إلى أفكار الآخرين. وبعد أن أُودع بعضها صندوق البريد، والبعض الآخر قمت بتفكيسه، شعرت بوخز الضمير:

- لماذا لم أخبرهم في تلك الرسالة عن السر العظيم الذي أوقفني عليه

مريضي... لماذا لم أخبرهم أنني غدوت متيقناً من قوله حينما وقف تحت الشمس... ولم يكن ظله منعكساً على الأرض.

- هل كنت أنانياً في هذا. إن تلك الرسالة تحمل لهم حالة مشكوكاً في صحة عقل صاحبها، هل أُتبعها برسالة أخرى أوضح لهم الأمر بصورة جلية.

لا... لا! فأنا أقف على سر، لو فتحت مغاليقه للآخرين فسأُحرَم من البركة التي خصَّني بها اللَّه؛ هذا السر الذي سيبقيني خالداً مدى الدهر... وربما وقوف هذا الشخص أمامي هو استجابة لدعوتي وأنا ممسك باب الملتزم داعياً:

- اللهم ارزقني علماً لم يسبقني إليه أحد.

وربما جاء هذا الشخص ليدلني على السر المخبوء، كاستجابة لذلك الدعاء.

أجدني هنا أكرر هواجس مريضي الثري ذلك الذي أيقن أنه الرجل الموعود بتطهير الأرض من رجس الشياطين.

وهل هذا هو الجنون الذي أحياه، وأبسط عليه عذر الكرامة المرجوة، والمنتظرة بتلقي السر المكنون.

فهل تَصدُق مقولته:

- كل منا مجنون بطريقة ما!

الأمر الشاذ يغدو قاعدة
في يوم من الأيام.

هي خمسة أيام خرجت فيها القرية بغير هدى

اليوم الخامس

فجأة انبعثت عاصفة من قاع الأرض، متقدمة على موسم هبوب الرياح بمقدار ثلاثين ليلة، أو تزيد، ولم تبعث نذيراً لمقدمها كما جرت عليه العادة.

قبل هبوبها بليلتين، كان الليل يعبر قريتنا وديعاً رحيماً يمس براحتيه أشجار الأثل التي انتدبتها الطبيعة كحرَس حدود مكلَّفين ببثّ عيونهم في طرقات المدى لرصد القادمين إلى داخل القرية، تشاركها أشجار السلم والرديف وأعشاب برية لا حصر لها توافدن كالأيتام الذين لم يجدوا عائِلاً فاقتعدوا قارعة الطريق تاركين أنفسهم ينمون كيفما يحلو لهم من غير أن ينهرهم أحد أو يشذِّب سلوكهم النافر مقص مزين.

ليل وديع يهف بنسائمه روائح الفل فيعبق المكان منتشياً بارتفاع أغاني الصبايا محتفلات بزفاف سلمى بنت عبده هادي. أغان استرق سمعها رجال القرية المتناثرون حول المخدرة - التي أقيمت في الجانب الغربي بجوار الطاحونة العثمانية - وفاحت منها روائح البخور اليمانية متغلبة على روائح الكاذي والعزاني، وتمددت رغبات طرية في قلوب الفتيات اللائي مكثن يترقبن العروس في خطوتها نحو بيت إفراغ الرغبات وهي تجاهد دماً طفر من وجنتيها وتدس رأسها في خفر مبالَغ فيه بينما هربت عيون

أندادها في اقتناص نظرة عشق من أولئك الشباب المارقين بين صفوفهن لرفع رأس صديقهم بتقديم أفضل الخدمات لضيوف الحفل.

وظل الكبار من الرجال يتبادلون الأحاديث على مقربة من مكان العرس بعدما أفرغوا بنادقهم في طلقات متعددة غابت في الفضاء وبقي دخان واهن يتراقص على فوهات تلك البنادق العتيقة، ولم يتنبهوا لمقولات حسن العجمي؛ تلك المقولات التي لم يكن أحد ليركن إليها في الأساس.

فلم يكونوا يعتدّون بأحاديثه التي يشبّهونها بالعشب المتطفل. كان يغتاظ منه البعض حين يُظهر علما زائفاً، على حد تعبيرهم، وينعتونه بالمتنطّع، وقلما يشاركونه أوهامه التي تنبت في رأسه على حين غرة وتحولهم إلى بهائم ينهقون به ليكف عن جَلدهم بتلك الآراء العرجاء التي لا تعبر عرجتها أقرب بوابة من عقولهم. ولم يكن ليكفَّ عن نثر أفكاره كلما عنَّت له. فُلِقَ رأسه في إحدى المرات حينما تندَّر بإحدى العجائز التي عللت اهتزاز الأرض تحت أقدامهم بأن الثور المكلَّف بحمل الأرض نقلها من قرنه المُجهَد منذ مئات السنين لقرنه الآخر. سخر منها واتهمها بالجهل، وقبل أن يوضح لها استدارة الأرض وتجاذبها مع كواكب أخرى في دوران منتظم، قبل أن يفعل ذلك شجت رأسه بعصا دابتها الغليظة وهي تصيح به:

- لا تمحقنا أيها الكافر... تُبْ قبل أن تصيبنا قارعة من لسانك الجالبة للعذاب.

ولم تجد شكواه أذناً صاغية، فقد نهره ابنها وأمره بمغادرة البيت قبل أن يُفرغ فمه من لسانه الطويل.

وبعد تلك الليلة أقسم ألا يحدثهم بأي شيء يطوف في رأسه مهما احتاجوا إليه. وقد حنث بقسَمه مراراً، ففي كل مرة يجد أن لسانه سرَّب كنوزه التي لا يقدِّر ثمنها أحد. وفي ليلة زفاف سلمى كان يقلِّب بصره في

النجوم المتناثرة محاولاً جذبَ الناس إليه:

- الأنواء تنبئ بأن أمراً جللاً سيحدث!

كان يتطلع للسماء الصافية المحتفية ببدر تآكل منذ ثلاث ليال:

- الجوزاء على غير عادتها.

وعندما لم يلقَ له بالاً، نثر كلماته في الهواء:

- النجوم لوحُنا الذي نقرأ عبره ما سوف يحدث.

تلقَّفه بعض القرويين بالسخرية ومالوا على بعضهم في تبادل أحاديث الليل الملتهب بزغاريد أخذت تتمطّى في الأفق وتسقط في الآذان محرِّضة على إضمار شَبَق مستعر. وقد بيّت النية من كانت له مهرة تعبر به ذاك المساء العاصف بألا يتوقف ركضه حتى وإن سال النهار على حافتي الوادي.

كانت الكلاب تعزف عواءً متقطعاً على خدر ظلمة سقيمة اخترقتها بغلة خبت في مجاهل الخبوت منذ ليل قديم كانت تهرول بتحريض مستمر من قدمين تلكزانها بين خاصرتها مخترقة سوق القرية، وعلى ظهرها جلس صالح التركي متكبكباً وجيوش من الرغبات تخطط لمداهمة زوجته على حين غرة. كانت خواطره تهلُّ كمطر موسمي أغرق كل السنابل المتحفّزة للنهوض وذاكرته تجدِّف في الأيام الماضيات علها تمسك بآخر التقاء. فقد أنهكه سفر طويل نسي فيه استدارة صدرها وهيئة عظمة عجزها. انشغاله بخواطره مكَّن بغلته من التقاعس فمنحت مفاصلها الواهنة بعض الاسترخاء فأخذت تتلكأ في سيرها. وكلما استبطأ سيرها، وخزها بمهمازه لتعود إلى الانتباه ومواصلة السعي الحثيث لمبتغاه. حينما بلغ منزله كان البيت منطفئاً تجوس به أشباح من أخيلة نبتت على لبنات العشة لحمار ورجل طبعت متراكبة في نسخ توزَّعت في صدر العشة. ومن هناك كان صوت طبل يدوي ويتراقص بأيدي نساء فائرات. أنزل حمولة بغلته مكدّراً واضطجع متعللاً بطيفها منتظراً أن يرى استدارة نهديها، وسماع عتابها الشهي من

قسوة غيبته الطويلة التي هجرت معها ليالي رطبة دافئة. أطفأ فوانيس الدار وانتظرها على ضوء كشّاف أحضره من الحجاز.

ومع طلوع شمس ذلك النهار كان شيء ما يحتدم في الفضاء، ويغزل سراً ليوشوش به الأشجار الغافية على مداخل القرية، فاهتزت له وجلة. وقبل أن يصل خوفها لمسامع القرويين كانت العاصفة قد حلَّت وبسطت أطرافها في كل الأركان بنَزَق طفولي. لا، لم تحلَّ، بل ثقبت الأرض وانفجرت دفعة واحدة.

ومع مطلع انبعاثها كانت تهيّئ نفسها لأن تعيث في القرية فساداً من غير أن تستأذن أحداً في مهمتها الطارئة. هكذا توالدت أعاصيرها من شتى بقاع الأرض. كانت تسير متخفية في أردية رياح طيبة دخلت إلى القرية من كل منافذها حتى إذا استقرت في قلبها انفجرت فجأة...

ولم تمهّد لمجيئها بعلامات، كأن تلوّن الأفق بغبارها، أو تهبّ من مكان واحد، أو ترسل رائحتها، أو تأتي في موعدها المحدد على أقل تقدير. لم تشأ أن تفعل كل ذلك. أرادت أن تفاجئنا بقدومها دفعة واحدة، فوُلدت متكاملة: ظهرت على هيئة مخروط رأسه يدور على سطح الأرض بينما قاعدته تتسع وتبتلع كل شيء. اجتثت الأشجار وقلعت لبنات العشش وقلبت الصحون المعلقة داخل المنازل وأسقطت الأواني الفخارية المنتشرة في أفنية البيوت. عبثت بكل شيء، وهي تزمجر لاهية، فتعصف بكل شيء من غير هوادة، فكانت ثمة أوراق وأعشاب وبعض من أغصان الأشجار - التي تقصّفت من أشجار انحنت لهبوب الرياح وأذعنت لما تفعله بها - تدور في فلكها معلقة في الهواء، ومن لم يقع في مركزها اكتفت بسفيه برمالها الناعمة الحارقة فغطت البيوت المنكبة على أهلها وذرت رمالها في حدقات أولئك الذين سارعوا بالانزواء من بطشها أو أولئك الذين خرجوا مضطرين لإغاثة الصِّبْية المتغيبين عند آبار المياه، أو الرعاة الهائمين في بطن الوادي. ولم يكن في بالهم إغاثة الرعاة أو الزرّاع

الذين خرجوا من الغلس لحماية عذوقهم من نهم الطيور المحلقة على رؤوس السنابل.

كان داود بن ليلى العرجاء يعاكس الرياح في محاولة للوصول إلى مدخل بيته فحملته عالياً وطوحت به فسقط جثة هامدة وأخذت تدفعه مع كل ما حملته من القرية فصاح عبده إبراهيم:

- واللّهِ إنها ريح صرصر كريح ثمود.

وكلما حاول رفع يده للسماء هبطت على جانبيه فدعا بصوت جهوري:

- اللهم نشهد أنك لا إله إلا أنت فجنِّبنا ما كتبته على القوم الظالمين.

وأوصى بوصية لم يسمعها سواه ونفّذها على الفور حيث ربط نفسه بحجر كبير كي لا تجرفه الرياح مع من جرفته، وتأسّى به من رآه حيث كان همهم في تلك النازلة الإمساك بحجر وصنع أنشوطة من حبال الكتان المجدولة بإتقان وحجز أجسادهم النافرة بذلك الحجر أو التثبت به في أحسن الأحوال.

كانت الرياح تئز كحيوان جريح أخذ يبطش بمخالبه كلَّ من يصادفه بلا هوادة، وفي لحظات كانت تركض في الخلاء بزئير يحاول تضميد جرح انبثق ولم يلتئم.

خرج أهل القرية من بيوتهم متفقدين ما حل بماشيتهم وزروعهم وبيوتهم، وقبل أن يطمئنوا على مقدم الصِّبية الذين خرجوا لجلب الماء كانت تنتظرهم مفاجأة أخرى فقد غدا الجو محمرّاً ناشراً رائحةَ التراب وباذراً وحشةً رانت على أطراف القرية وحرَّكت أحشاءها بعاصفة أخذت تعوي بصلف.

تصايح بعض الرجال الملتصقين داخل السوق:

- واللّه هذا طالع حسن العجمي المشؤوم!

- تقول كأنه يقرأ من كتاب. . . ابن القحبة!
- لا تحمّل ذمتك بمثل هذه الكلمة الثقيلة في هذا الوقت.
- هذه علامات أمطار. . . يبدو انه سيكون يوماً ماطراً.
- لكن موسم الأمطار لم يحن بعد.
- وهل جاء هبوب الغبرة في موعده؟
- علينا الإسراع والاستعداد لاستقبال يوم ساحق.
قال العسكري موسى وهو يغطّي بضاعته عَجِلاً:
- بل هذا يوم سحت!

كان الجو يتلون ويفرز شيئاً يقترب من الكارثة. فقد احتجبت الشمس خلف سحب داكنة وغارت هناك تاركة الكون نهباً للظلام.

ظلام دامس تربَّع في الأفق كنمر أنهى للتو اصطياد فريسة دسمة وأخذ ينهشها لتسيل من بين أنيابه كسفاً من ليل مظلم.

وتحولت أطراف القرية إلى مداخل للصِّبْية العائدين من الآبار، والفلاحين القادمين من الحقول، والرعاة الهاشّين على أغنامهم التي ضلت الطريق بينما حاول الرعاة الاستهداء بحاستهم لمعرفة الاتجاه الصحيح.

- خسفت الشمس!!

انطلقت الحناجر مهلِّلة ومستغفرة حين اعتلى صوت عبده هادي محذّراً:

- لا تظهر هذه العلامات إلا في قوم عصوا اللّه، وما أظن خسوف الشمس إلا بداية نازلة تحل بنا فلا تُبقي ولا تُذر.

تفاقم الخوف في أوصال القرية فتقاطر الناس استجابة لنداء المؤذّن:

- الصلاة قائمة يرحمكم اللّه. . . الصلاة قائمة يرحمكم اللّه.

المؤذن يتغرغر بصوته كديك مذبوح حيث تتقطّع الكلمات على فمه تعلو لمناطق شاهقة وتهوي لقرار مكين. كان آخر نداء كمن يزفر روحه

مطمئناً لذلك الجهد الذي بذله منذ أن غاصت الشمس في لجة الليل البهيم. وقبل أن تتدافع خطوات المصلين لداخل المسجد، انشق صوت العبد مرزوق عن مفاجأة أخرى:

- يا ناس... يا ناس اسمعوا، لقد ظهر النبي إبراهيم!

صاخت الآذان في ترقب بينما ألقى مرزوق كلماته كالحجارة:

- النبي إبراهيم في بيت صالح التركي!!

تراجعت الخطوات وانسحبت قبل أن تخطو عتبة المسجد، وتحلَّقوا حول المنادي:

- هل جُننت يا مرزوق؟

- واللَّه لقد سمعت أنه في بيته.

- النبي إبراهيم في بيت صالح التركي، كيف؟

قال آخر:

- لا تصدقوا هذا الأخرق، فصالح التركي في الحجاز.

وُجد صوت آخر يجيب:

- لقد عاد أول البارحة.

كان لهاث المنادي قد هدأ بعض الشيء:

- واللَّهِ لقد سمعت أن النبي إبراهيم في بيت صالح التركي.

بلع ريقه مكملاً ومحاولاً إصباغَ ملامح وجهه بهول الأمر:

- ليس وحده، بل معه ابنه إسماعيل، وجبريل، وكبش من الجنة!!

- وهل دار الزمان دورة للوراء حتى يظهر النبي إبراهيم.

- لا أحد يركن لمقولات العبيد، فهذا العبد أخرق منذ أن ولدته أمه.

اغتاظ مرزوق ونظر لمحمد عبده ساخراً:

- أوَتظن نفسك من الأشراف يا ابن صالحة العجمى.

- أمي العجمى من سلالة العرب الخلَّص يا عبد يا ابن العبد.

كادا يتجاذبان السباب إلا أن المتجمهرين حالوا بينهما، وعاد السؤال ملحاً:

- هل أنت صادق يا مرزوق؟

- واللَّهِ كما أقول لكم.

صاح أحد المتجمهرين:

- واللَّهِ هذه الغمة لم تأتِ إلا لأمر جَلَل.

وخرج صوت ضعيف مردداً:

- واللَّهِ قامت القيامة!

وسجد في مكانه ولم ينهض من سجدته، فقد رف جسده كجناح طائر صغير سرعان ما سقط في مكانه مقلوباً وبقيت يداه معلَّقتين صوب السماء، فلم يكترث بحالته أحد، فقد تبرع الجميع بترديد تلك المقولة:

- لقد قامت القيامة!

هذا الصوت سرعان ما تضخم وغدا صوتاً جماعياً يردده الحضور، فمادت الأرض وزاغت العيون وارتج الناس وتراكضوا صوب بيت صالح التركي بينما كانت العاصفة تنهب أرديتهم وتقلل من اندفاعهم.

خرج إمام المسجد من مصلّاه بعد أن نفر الناس من داخل المسجد، وكانت دهشته بالغة لرؤية تقافُز المصلين من مواقعهم غير ملوين على شيء، فاعترك داخله خوف طاغ، وخشي أن تكون كارثة حلت بأهل القرية قبل أن يستجيبوا لنداء الصلاة القائمة، واستبدل خشيته بسخط عظيم حينما أسرَّ له المؤذن بما جاء به مرزوق فسفّه استجابتهم لمثل هذه المقولات وهمَّ بأن يخطب فيهم. وقبل أن تنطلق الكلمات من فمه كان جميع أهل القرية يتراكضون صوب بيت صالح التركي. كان محتدّاً وهو يتبعهم محاولاً اللحاق بهم:

- يا ناس، الذي يخرج في آخر الزمان سيدنا عيسى وليس سيدنا إبراهيم، وقبله يخرج المهدي المنتظر، فهل سمع أحدكم بظهور المهدي؟

- عيسى، موسى، قامت القيامة. وخلاص يا سيدنا!

فزع الأطفال والنساء بسبب الهوجة، وخرجوا من مساكنهم تابعين تلك الحشود المتراكضة، وهم لا يعرفون ما حدث سوى أن العاصفة والظلام اللذين حلاّ بالأرض يحملان كارثة لا يعرفون كنهها. فتساقط أطفال من أحضان أمهاتهم النادبات، وغالب العجزة عجزَهم، وتدافعوا حول بيت صالح التركي الذي راعه ذلك التزاحم... كان قد انتهى من وضوئه للتوّ وقد تقاطر الماء من لحيته الكثة. كان يشد مئزره مثبتاً جنبيته اليمانية على الجانب الأيمن من خاصرته ومتجها للمسجد لتلبية نداء المؤذّن، وحين لمح القوم مقبلين عليه تراجع متوجساً وذارفاً أسئلة متلاحقة:

- ماذا بكم؟ ما الذي حدث؟ بيتي ليس مسجداً.

جارت أصوات متعددة:

- يقول الخادم مرزوق إن في بيتك النبي إبراهيم.

- وابنه إسماعيل.

- وجبريل أيضاً.

- ويزيد أن معهم كبشاً من الجنة.

ضحك حتى كاد يقع من طوله، لكن ضحكاته استفزت المتجمهرين وعرفوا أن في الأمر كذبة من ذلك العبد فقبضوا على رقبته فتملص منهم وهو يصيح:

- واللّهِ هذا ما قالته زوجته!!

تراجعوا عنه، وأحاطوا بصالح التركي:

- ما الخبر يا صالح؟

- صدق مرزوق!

ندهت شهقات من أماكن متفرقة:

- صدق!!

- نعم وسوف ترونهم جميعكم!

فارتفع التهليل، والاستغفار، وتساقطوا حيث كانوا، وظلت قلة قليلة مترابطة الجأش:

- يا صالح، الأمر لا يدعو لأن تُظهر لنا ظرفك.

- أقول لكم سوف ترونهم لو أردتم.

- سيدنا إبراهيم، وسيدنا إسماعيل، وكذلك جبريل، والكبش!

- نعم، جميعهم.

- لا بد من أنك جُننت.

- إياك أن تسخر منا.

- وما الذي جاء بهم إليك؟

وصاح العسكري موسى:

- لم نعهد فيك طهارة حتى يأتيك المرسَلون.

لكن صوته حملته الريح بعيداً فلم يسمعه إلا من جاوره ولكزه بمعصمه:

- هذا من المجاهدين حارب اليهود وله كرامات.

فاغتاظ موسى ورد عليه:

- ذهب إلى جدة وقال لكم إنه ذهب إلى فلسطين.

قفز رجل ثالث بينهما:

- والله لقد ذهب إلى فلسطين.

- دع عنك القَسَم واسألني عنه.

- أنت خسيس يا موسى. أتظنه عسكرياً مثلك ترك حراسة القرية وامتهن بيع الموز والسمن.

تشاجرا في ما بينهما بينما كانت الأصوات تطالب صالح التركي ملحة:

- نريد رؤيتهم.

صاحت امرأة مسنة:

- وهل سيظهرون لنا في هذه الغمة؟!

لم تجد جواباً شافياً بينما انسحب صالح تركي إلى داخل عشته، وتجمع الناس داخل الفناء غير مصدقين الخبر. ومع دخوله صاح أحد المتجمهرين:

- من كان على جنابة أو ظلم نفس أو حيوان فليبتعدْ.

تنافر بعض الرجال وكثير من النساء وظلوا من على بُعد يرقبون ما سيحدث. وعندما وجدوا أن تلك التجمعات طوَّقت بوابة مدخل بيت صالح التركي تدافعوا غير عابئين بما سيحدث، ومع ذلك التدافع تساقط ضعيفو البنية، ووجدوا أنفسهم يستغيثون من تلك الأقدام التي هرستهم. وقبل أن يسترجع الجمع هدوءهم خرج صالح التركي حاملاً صورةً كبيرةً، ظهر بها شيخ وطفل وكائن له جناحان غطت أبعاد الصورة وكبش سمين أسفل قامة الشيخ والطفل الممدَّد على الأرض، فتصايح الناس:

- ما هذا يا صالح؟

- صورة النبي إبراهيم، وابنه إسماعيل، وجبريل، وكبش من الجنة!

كز الإمام على أسنانه:

- قبَّحك اللّه في كل كتاب، أنت ومن يتّبعك، فوَّتَّ علينا صلاة الخسوف.

وانسحب مع المؤذن باتجاه المسجد بينما ظل أهل القرية يتناوبون لمشاهدة تلك الصورة غير متحفزين لاستجابة نداء المؤذن:

- الصلاة قائمة...

وكمن يئس من استجابة لصوته ترك النداء وصاح:

- صالح التركي سبب كل المصائب فعودوا للمسجد يرحمْكم اللّه.

بزغ شعاع ضئيل من تلك الغمة وأخذت الشمس تنزع نفسها نزعاً من ذلك الظلام الدامس بينما كانت النساء والأطفال لا يزالون ينتظرون دورهم لرؤية النبي إبراهيم ومَن معه!

الحياةُ ظلٌّ عابرٌ، يتكرر تقيؤنا به في أزمان مختلفة.
فكلما عبرنا رحلتنا الطويلة، وجدنا ظلها في مكان آخر.

في البدء يحسن بي أن أصف لك بيتنا، وربما قريتنا، هذا إذا كنتُ أنتمي إليها بالفعل.

كنتُ مغطّى بالحمى وبثور صغيرة نفجت على جلدي، أزفر بأنين ثقيل، وبين الحين والآخر أصرخ بوهن:

- أمي... أمي!

بعد محاولات متعددة من الصراخ المتواصل يأتيني صوتها كالحلم قادماً من جهة التنور:

- أُوْقِد.

وأنتظر أن تستجيب لندائي، لكنها لا تأتي. فأعيد صراخي، ليأتي صوتها، يحمل تذمراً عنيفاً:

- قلت لك: أنجز الخبيز وآتيك.

ويهطل بين الصوتين صمت كالرصاص، وأنفاس ثقيلة رتيبة.

جسَّت الحمى جسدي للبيال، واشتهته، فمكثت به مقيمة لا تبرح، فتشرَّبَتْها كلُّ مفاصلي، تعمقت بين العظم واللحم. كانت تؤجج نار جسد ذابل، وتعصره فيكون وردة كالدهان، وتنهمر مياهه، فيرتعش ارتعاشاً قاسياً لا تعصمه منه كل الأغطية الملقاة عليه، فيتكوم كحية صغيرة لا

تسعفها ذاكرتها بالوسائل المنجية من هذا الهلاك.

في هذه التقلُّبات المريرة كنت أغفو - ربما إغفاءة وربما كانت إغماءة -. أشعر برأسي يكبر، ويكبر، ويرتفع رويداً رويداً، يقشع سقف العشة، وينتفخ، ينتفخ، ويحلق في الفضاء. ألمحه كجرم سماوي يثقل، ويثقل، يلف، ويلف، وكلما زادت سرعة دورانه خف، وتناقص. غدا شيئاً هلامياً، غدا هواءً يتقبقب كفقعات الماء، ويصعد، يصعد، ولا يعود يربطني به سوى إحساس بسيط بأن هذا الطائر ينتمي لجسدي. ويصعد، يصعد، يخترق السماوات، فأحس بقشعريرة تعتريني، وصقيع ينخر مفاصلي. تصطك عظامي وأتحوَّل إلى موجة من الارتعاد، ورأسي يتصاعد، أشعر به يبتعد عني كثيراً ولا يربطني به سوى خيط من إحساس، ويغيب عني هناك في البعيد، وأجاهد لاستعادته. يغدو ثقيلاً، كجبل أشم، كقبة تتسع لتغطية الفضاء، ويهوي كنجم ثاقب. وقبل أن يرتطم على صدري يخف، ويعاود تصاعده. تتشكل أمامي صور عديدة: فرس، ثور، حيات، جبل، قرص شمس منطفئ، ونساء بلّوريات، ورفيف حكايات أهبط معها لواد يفيض بمياه غزيرة، تتجمع وتتدفق في شعاب الأرض، تتسجّر وتُنزع من أوردتها، وتعود هامة مفصولة عن جسدها تتضخم في تصاعدها فتبتلع كل ما يصادفها ولا شيء يُسقطها.

في البدء كنت مرعوباً من هذه الخيالات أستصرخ بأمي فلا تجيب، فتتسارع نبضات قلبي. تغدو نبضاته قرعَ طبل ترقص على نغماتها تلك التخيُّلات وتنتظم حتى إذا استأنستُ بها وغدوت مسيطراً على تشكلات ذاك الرأس، مُنقصاً حجمه المفرط، فيستحيل إلى جبل، جمل، تيس، ديك! فجأة ينفلت من سيطرتي، ويصغر صِغَراً متناهياً: بيضة، عقرباً، حبة قمح، رأسَ إبرة! فيعود رعبي وهلعي في التنامي ويخضر في حنجرتي الاستصراخ، ولا أحد يرحمني من كل هذا، فأستكين لتلك التخيُّلات، أرقبها، أتصاعد معها، وأتضخم وأتقزّم في استسلام طاغ.

يتفصد عرقي، وأرشح، أرشح... يتبلل فراشي بالعرق ورائحة الكالمين تنداح من كل مفاصلي. أشعر بالضيق من ذلك العرق الذي ينداح من جبيني ويتجمع ما بين الترقوة وانثناءات رقبتي. يتراءى لي من خلال الجلالة التي وُضعت في صدر العشة امرأة تتشح بالسواد وتلبس مظلة خزفية وتحمل زنبيلاً كبيراً تُخرج منه رأسي وتقرّبه من رأس إسماعيل(*)، فأجزع وأصيح بكل قواي:

- أمي، الحقي بي.

فيأتي صوتها من بعيد متذمراً:

- قلت لك إنني أخبز... سوف آتي بعد قليل... كفَّ عن رُغائك.

ويمتد الزمن، وألمح تلك المرأة تقف في أقصى جانب الصورة تجاور الكبش وتُخرج رأس إسماعيل وهي تضحك مبدية أسناناً اصفرَّت من تخزين الشمة.

غدت الحمّى زائرتي اليومية تصطحب معها تلك المرأة الغائمة الملامح فيصيبني الذعر، وأغطّي وجهي بلحافي وأظل أقنت بيقين يقترب من الفجيعة.

أذكرها كحالتها الآن. بزغت كعادتها من خلال الجلالة تحمل زنبيلها، وتتطلع إليَّ وهي تجلس على عقبة العشة. أبانت أسنانَها المصفرَّة ونهضت بمهل. مدت يدها لداخل الزنبيل. لم تُخرج هذه المرة رأس

(*) انتشرت في تلك الفترة صورة ببرواز متواضع لسيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل وثمة كائن له جناحان يسحب كبشاً يمثل سيدنا جبريل. وكانت تُعلّق هذه الصورة في أماكن مختلفة من البيوت. والصورة ذات البرواز نقول عنها إنها جلالة... وهذه الجلائل قدم بها الحجاج الهنود إلى مكة المكرمة فيقتنيها الناس ويضعونها في صدور مجالسهم. وكانت توجد عدة صور لبعض الأنبياء...

د. حسين مشرف

إسماعيل. لقد رأيت رأسي مدلّىً بين يديها، وهي تشده من ناصيته. أذكر أنني صرخت كما لم أصرخ من قبل، وأفقت على أمي وهي تجاورني وتمسح جبيني الطافح بعرقه بطرف كرتتها متمتمة بعضَ آيات من القرآن وتضمني لصدرها:

- أحطتك بأسماء اللّه الحسنى، ماذا بك؟

لذت بصدرها وأنا أَلُمّ أطرافي مذعوراً مرتعشاً:

- كانت هنا.

- من؟

- المرأة التي حدثتكِ عنها... ألم تريها؟

- لا يوجد أحد هنا!

- قلت لك رأيتها وكانت تحمل رأسي هذه المرة بدلاً من رأس إسماعيل!

- باسم اللّه عليك...

- أنت لا تصدقينني.

(أحدق في الجلالة فألمح يديها ضائعتين داخل الزنبيل وأسنانها المصفرّة تفترش وجهي بضحكة مقزِّزة).

- انظري... ها هي تضحك!!

تلفتت أمي يميناً وشمالاً.

- لا... لا! إنها هنا.

- أين؟

- في الجلالة.

تضمني لصدرها وتربت على ظهري:

- هوِّن عليك. لا يوجد أحد غيرنا. سأُخرجك للباحة لتشم هواءً نقياً.

يعبرنا ليل موحش، وصنصنة الجنادب، وفحيح زواحف دنا موعد إخصابها، ورغاء عنزتنا الجائعة. وثمة نجوم متناثرة ألمحها تتشكل في هيئات مختلفة. أمي ترتمي بجواري على أريكتها، وتشخر شخيراً متعالياً. بلل طافح يترقرق تحت فراشي، وضيق جاثم على صدري:

- أمي... أمي!

تفتح عينيها بتثاقل وتردد بصوت ناعس:

- نم، لا زال الليل بأوله.

وتعود تجترُّ الهواء بصعوبة، فيجري في منخرها صفير متقطع. أفتح عينيَّ فتصطدمان بظلام دامس، يحف بي، ومن فوق رأسي نجوم تتلألأ وتتشكل: ديك، قط، فرس، ثور! تتجمع وتتناثر، فألمح رأساً كبيراً يتدلّى من السماء شبيهاً برأسي تماماً فصحت فزعاً:

- أمي... أمي!

نهضَتْ تُغالب نعاسَها الثقيل، ولسانها يلهج بذكر اللّه، واندسَّت داخل عشتنا، وأدعية متواترة تنثرها في فضاء تلك العشة النائمة منذ عهد قديم. أسرعَتْ للفانوس ترفع ذبالته فانتشر ضوء باهت مخلِّفاً ظلاً ضخماً في صدر العشة. وقفت على جسدي المسجَّى:

- ما بك؟

- قطفوا رأسي... انظري، إنه هناك.

- من؟

- رأسي، ألا ترينه؟

- يا ولدي أتعبتني.

وشدت شعري متضايقة:

- ها هو رأسك لا زال في مكانه. اهدأ.

انسحبت لأعماقي، شيء له رفيف جناح حمامة يُخطَف من صدري،

ارتطم بعتمة حلقية كثيفة، تزداد حلكة كلما صعدت للأعلى، وتوهج يتماسّ مع قطرها، ويتجانس. لون محمَرّ على سواد يظل يحترق ويغور في كبد السماء، وأنا أعبر تلك الدوائر، وأحس بأثقال تتهاوى مني. ألمح جسدي ملقى على أريكته، وهزات متوالية يجتذب لها فوج أبخرة يتعرَّق له الجلد المسجّى، وأنا أصعد وأصعد، أرشح ماءً مبرَّداً كالقطران ينتح من جنبات تلك العتمة. تتقبب العتمة، وتتحول إلى قوس مشدود بلهب من نار باردة. تتبخر مياه جسدي غازاً نشطاً، ينتشر حولي ويمنحني التحرر. معلَّق في مكان ما، معلَّق كنجم أحمر بردت أطرافه، وشع بتوهج، وكلما هوى صفا حتى غدا نوراً خالصاً، فانكشف له الغطاء. رأى: قُرىً، ومدناً، وشطآناً، وأودية، وجبالاً، وفلاحين، وحيوانات، وأبخرة لبحور مسجَّرة. عالم يكتظ بالحركة، الموج يتراشق من كل مكان على قطعة يابسة انتشر فيها بشر يتحركون كنمل، يسرعون، يتراجعون، يندسّون في شقوق الأرض.

غيوم تهلُّ بماء مخاطيّ يظل عالقاً بين السماء والأرض، وثيران تحرث الحقول، فتنبت فسائل كهيئة الطين، ونفير لبوق يتردد صداه بين الجبال البعيدة. . .

أراهم يجتمعون حولي، تتناوشني الأيدي، وعويل أمي يحرق حشاشة بطنها، تتجاذبها نساء القرية، مخفِّفات عنها:

- اذكري اللّه.

- كل ما أخشاه أن يكون قد انتقل إليه مرض يوسف عبيد.

هونتُ عليها الأمر. سميتها وهي تستعيذ باللّه من فالها:

- فال اللّه ولا فالك، انظري إليه، فليس به إلا العافية.

- يقولون إن الدود لا يظهر إلا بعد سبع ليال. بعدها ينتهي الأمر.

ضربتها. سَمِيَتها على كتفها:

- قدّمي الخير، ولو كان به مرض يوسف عبيد لما وجدت أحداً يجاورك الآن.

تقف مسعدة صائحة:

- لتخرجْ كل النساء، وتبقَ مَن عليها الدورة الشهرية.

تنسلّ النساء، وتبقى مسعدة، وأمي، وخالتي، وزينب. اقتربت زينب:

- بماذا تفكرين يا خالة مسعدة؟

- مسَّته إحدى الجنيات، وترغب في حمله عنا. الحل أن نشممه فروجنا الحائضة!

قفزت خالتي صائحة:

- هل جُننتِ يا مسعدة؟

- إذا رغبتِ في التعكير على جنية فدعيها تشمّ فرجاً غدقاً بدم امرأة حائض!

- ومن أين لك هذه الدراية؟

- لا تفوِّتي الوقت، هي تسحبه الآن بعيداً، علينا جميعاً أن نشممه فروجنا!

اعترفت أمي وخالتي بأنهما طاهرتان، فزجرتهما مسعدة وأمرتهما بالخروج، فتحركتا غير مصدقتين ما تقوم به مسعدة، وبقيت زينب بجوارها تتهيأ لمد يد العون لو طلبت منها مسعدة ذلك.

عادت أمي متناشجة:

- لن أبرح هذا المكان.

صاحت بها مسعدة:

- إذاً، لا تتحركي حتى آمرك.

هزت أمي رأسها موافقة، وانكفأت مسعدة فوقي. أسقطت حمماً من

براكين لمياه آسنة، وطفحت على جنبات تلك الجبال البعيدة. جرى سيلها متدفقاً، وكحجر ثقيل دفعته المياه المنسكبة، سقط مرتطماً بتلك الجثة التي شهقت لتزاحمها زغاريد مسعدة، وزينب، وهما تحملان جسداً ذابلاً، ونهضت به الحياة باحثة عن هواء يساعد تينك الرئتين على استعادة خفقان خبا.

كانت مسعدة وزينب بحثي الدائم، فمن خلالهما أجد هواءً يعيد جذوة الحياة لتينك الرئتين الخامدتين.

** **

بعد حين من الزمان، عاودتني تلك الحالة. ركضت أمي لمسعدة، كانت تقصع الصيب من رأس فتاة قدمت من الخبوت، وتهيئها لتُزَفَّ على الشيخ عبد الرحمن الشرقي بينما كانت الفتاة لاهية بتقليب يديها اللتين جرى في راحتيهما خضاب منمنم كتعرُّجات مسيرة نمل منتظم. جاء صوت أمي محروقاً:

- ابني سيموت يا خالة مسعدة!

دفعت الفتاة من بين فخذيها. ونهضت مستفسرة:

- ما به؟

- لقد عاودته الحالة نفسها.

- إذا لم تنفر الجنية من الحيض فلا بد من إيهامها بأنه مات.

- وكيف لنا إيهامها بذلك.

- لا عليك، هيَّا بنا.

ظلت الصَّبية تلم جدائلها المتناثرة، وتنظر إلى وجه أمي بعينين زائغتين، وقد فتر ثغرها عن ابتسامة عذبة:

- هل سيموت عريسي؟!

ضحكت مسعدة:

- لن يموت قبل أن يعقرك!!

بدت ليلة هادئة، ومع الضحى لمحت تلك المرأة تبزغ من الجلالة تمد يدها رافعة رأسي من غرته. صحت بأعلى صوت:

- أمي.

يبدو أنها كانت تجاورني، أخذت تتلو آيات التحصين. وعندما أخذتُ أرتعد نهضت راكضة، فصحت بها:

- أتتركينني لهذه المرأة؟

- سأعود حالاً.

شيء ما يُخطف من صدري، يتصاعد كأبخرة المياه المغلية، ظل بعض الوقت عالقاً أمام بصري، ثم علا، وعلا. كنت متشبثاً به، صاعداً صوب سماء مفتوحة، وعابراً غيوماً كثيفة كندف القطن الناصعة، معلَّقاً بخيط شعور واهٍ بجسد كعجز نخلة هرمة، مُثبَّت بأرض رخوة. وكلما علوت تحررت من لزوجة الطين الغدقة، وغدوت خليطاً من هواء وماء. واختلطت الأشياء. وقبل أن أمضي في علوّي بعيداً، عادت أمي بمسعدة التي رفعت صوتها نائحة. هلعت أمي وأطلقت نحيبها:

- هل مات حقا؟

استجابت الجارات لذلك النحيب، ووقفن مترددات بين تقليب جسدي ومواساة أمي. كانت مسعدة تتحرك بسرعة فائقة، فجلبت سدراً وطيباً، وغلغلت الماء في ثنايا بدني، وألقت عليَّ بكفن حائل البياض، ولملمتني عَجِلة ونادت:

- لا يخرج للمقبرة سوى النساء!

ولم يقدر الرجال المنتظرون في الخارج على اعتراض طلبها، فسارت جنازة تتبعها النساء فقط نادبات باكيات. وفي حفرة صغيرة، انكفأت مسعدة، وحملتني لصدرها صائحة في خلاء المقبرة:

- إن كنتِ راغبةً به فقد مات. اتبعيه الآن!

فرت من جسدي أبخرة دافئة، وذويتُ. طريق العودة ضبابي. سرعة مهوّلة وضجيج وحواجز تتخطاها كالبرق. تبقى معلّقاً في مكان ما تنعم بالطمأنينة. هي لحظات وتهوي، تهوي، وكلما اقتربت من جسدي المسجّى ثقلت كتلتي لتعود حجراً يرتطم بعنف ويفلق الحياة بآهة ظنت أنها تخلصت منها للتو.

حواجز وأشكال هندسية تضيق، وتتسع، ونحن أسرى تلك الأشكال. مَن منا يعرف سر هذا الشهيق وهذا الزفير؟ هذا الهواء الذي يمنحنا الحركة والأحلام والجبروت، فإذا ركد في داخلنا غدونا كأواني الفخار المهشّمة.

شعرت بيديها تعبثان برباط الكفن، وهي لا تزال تصيح منفعلة، وملقية جملتها في الاتجاهات الأربعة:

- إن كنتِ راغبة به فقد مات. اتبعيه الآن!

حلّت كفني. كنت عارياً تماماً. أخرجتني من كفني كغلف كاذي خشيت أن تحرقه أشعة الشمس فأدخلته بين جوانحها، وأمرت النساء المجتمعات بلف الكفن وقذفه داخل القبر. رمين لفافة الكفن في تلك الفجوة المفتوحة من أرض المقبرة، وطمرنها بالتراب، وعدن ينشدن أغنية للعاشقات الذاهبات لهضبة الجن. أحسست بأنني أقف بعيداً، وحين تحرك الموكب عائداً أمسكت بفستان أمي من الخلف. كانت تقفز كعصفورة تحاول أن تتخلص من هذا الثقل الممسك بها.

الحياةُ لفظةٌ صغيرةٌ

من مفرداتِ الكونِ الكبير.

هي خمسة أيام خرجت فيها القرية بغير هدىً.

اليوم الرابع

وقفَتْ على رابية تشدُّ بغلتها بلجام لمهرة نفقت في شوطة وباء حيواني. ربما عثرت عليه معلَّقاً بفم مهرة نفقت، ولم يجد صاحبها خياراً بإلقاء لجامها مع جثتها.

كان هذا أولَ أسبوع للتسوق بعد انقشاع الغمة التي عبرتنا، لذلك كان زهوها بلجام المهرة الغارق في فم بهيمتها مصدرَ غبطة لها. لم تكن راغبة في التسوق بل متشوقة لأن يرى المتسوقون لجام بغلتها الفضي، فكانت تجذب دابتها بين الحين والآخر صائحة بانفعال مبالَغ فيه:

- لا يُجْدي معك إلا لجام البغال!

في صبيحة سبت قائظ، هلَّ الباعة من كل القرى التي تقع على الوادي للتبضُّع، أو لبيع سلعهم ومقتنياتهم القديمة. دأب الباعة والمتسوقون على تفويج قوافلهم من الغلس، وقبل أن تثقب أشعة الشمس المدى يكونون على مقربة من السوق ليتحول الأفق إلى طرق تنبت بالوجوه والدواب والسلع والألوان. من كل مكان يلد المدى قامات الباعة: الخزّافين، وبائعي الفخار، والبزازين، والفاكهانيين والعطارين، وأصحاب الماشية، وبائعي الحبوب. كلٌّ انتصب فوق بهيمته المحمَّلة ببضاعته، وترك عينيه ترقبان انحناءات الدروب المؤدية للسوق، متحاشين

أشجار السلم والأثل والرديف المعترضة في تلك الدروب التي تتسع وتضيق في أماكن يعرفونها تماماً.

يوم صاخب كعادته. صياح النساء الراكضات خلف دوابهن، أو طيورهن، أو المتقاعسات تحت حمولتهن كبائعات اللبن والشوب والقطران، يجاهدن في السيطرة على ثيابهن الفضفاضة الرقيقة الصنع كي لا تعلق بتلك الأشواك المطلة من فروع بعض الأشجار العصية.

يوم عَبَر القرية باحتفاليته المعتادة مئاتِ المرات، لكنَّ يوم الشوطة بدأ غريباً. فمع شروق شمسه داهمتنا نفحةُ سموم ألهبت وجوهنا، وتركت ألسنتنا مدلاة ككلاب تلهث. وفي الضحى كانت الأبقار تلعق الروث، وقد اشتدت جلودها، وتفطرت، والصحيحة منها تقوَّبت مفاصلها، واسترخت، ولم تستجب لدفع أصحابها لجلبها للمجلاب. وقبل أن يمضي النهار بعيداً كان السوق يرزح بتلك البهائم التي استكانت في أماكنها ولم تبرحه برغم الأسواط المنهالة عليها.

وباء غريب اجتاح قريتنا وقطف كل الدواب الصحيحة وتسامح كثيراً مع تلك الحيوانات الهزيلة نافرة العظام، ولم يقترب أحد من تلك الجِيَف التي تراكمت على منافذ القرية. فمن ماتت له دابة سحبها سحباً وألقى بها مع تلك الجيف المتراكمة على كل مداخل القرية ولاذ بالفرار. وسبب هذا الهلع الطارئ ما تناقله أهل القرية عن مرض يوسف عبيد الذي أصيب بحالة غريبة لم يعهدها كبار السن - لم يجدوا لها سابقة في سجل الأمراض التي عبرتهم عبر السنين فتبادلوا الحيرة في ما بينهم عن طبيعة هذا الوباء - الذين وقفوا على جسد يوسف عبيد الذي انتفخ جلده في أماكن متفرقة، وتصلَّبت عروقه، وتقرَّح جلده عن دود صغير أخذ يختفي ويظهر من أماكن متفرقة من ذلك الجسد المسجَّى. وبعد ست ليال قضاها يوسف عبيد متألماً، متوجعاً متوسلاً ألاّ يُحرَق، مات متحسراً من غير أن يجد يداً تمتد إليه بشربة ماء. ومع موته خرج من جسده ذلك الدود باحثاً

عن إتلاف جسد آخر. وتناقل الأهالي عن انتقال ذلك الدود لأجساد خمسة من الحجّامين الذين وقفوا على حالته. وقد ظهرت عليهم الأعراض نفسها، ولم يستطيعوا الصمود كما فعل هو. فقد قضوا نحبهم قبل موته بأربع ليال. وتواصى الجميع ألا يقرب أحد بيته أو عياله. ولولا أن تداركته رحمة اللّه بأن قضى نحبه قبل أن ينفّذ فيه أهل القرية اقتراحَ صالح التركي الذي أسرّ به لآخر الحجامين المتبقين، لكان خبره رواية تُروى على امتداد الزمان. فهذا الحجّام أصابه الهلع لموت خمسة من الحجامين وهم يطببون يوسف عبيد وقد دفعه أهل القرية للوقوف على حالته فأبدى لهم الرعب وقال:

- هذا الرجل سينقل الموت لكل القرية، وأوصى بأن يُحرَق هو ومن معه من أهل بيته في مكانه.

يقولون إن الحجّام لم يكن ليقترح مثل هذا الاقتراح لولا أن صالح التركي رأى في موت يوسف عبيد نجاةً لتجارته التي جلبها من الحجاز، وبقاء الوباء سيقلل عدد المشترين ويشغلهم عن المفاجآت التي أعدها لأهل القرية، فَرَشا الحجّام بأن يتبنى فكرة الحرق. وقد استجاب لاقتراح آخر الحجامين عليّة القوم وتنادوا بحرق يوسف عبيد والتحريض على ذلك، حتى أن شيخ بني حسن عَدَّ حرقه عبادةً من العبادات، فصاح بأفراد قبيلته:

- من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يقعد حتى يجلب حزمة حطب ويلقي بها بالقرب من بيت يوسف عبيد!!

غُطِّيَ بيته بالحطب من كل مكان، وقبل أن يشعلوا ناراً، سمعوا زوجته تندبه، وتقسم عليهم ألاّ يحرقوها هي وأولادها معه، وتعهَّدت لهم بالخروج من القرية حالما يتم دفن زوجها. ولم يتقدم مغسّل القرية لغسله، وأفتى الشيخ عبد الرحمن الشرقي بأن مثل هذه الحالات يجوز دفنها من غير غسل. وبعد يوم من وفاته، سُحبت جثته، ورُميت مع جِيَف

الحيوانات المقذوفة خارج القرية، وقيل إن زوجته هي التي قامت بهذا الفعل.

ويقولون إن صالح التركي قذف بابنه خارج القرية - بالقرب من جِيَف الحيوانات النافقة - حين شك بأن ابنه مصاب بالداء نفسه، وأقسم البعض إن صالحاً يتهيأ لإحراق ابنه الوحيد من غير أن يهتز له رمش، أو يستجيب لبكاء زوجته التي تكفَّلت بالخروج بابنها للبراري حتى يشفى أو يموت!

في تلك الأيام حُرِّم أكل الدجاج. فقد أشيع أن الدجاج التقم الدود الخارج من جسده ففسد لحمه وبيضه. والحريصون على أنفسهم قبروا دجاجهم من غير ان تمسه شفرة. وغالى بعضهم بتحريم أكل اللحوم على نفسه. كان من المتوقع أن تنتهي هذه الشوطة خلال أسبوع، أو أسبوعين، لكن الأمر تخطى ذلك التقدير، وتغطت القرية بجيوش من الذباب، والبعوض، وتبقّى على منافذها الكلاب والحداءات الخاطفة التي تحط على تلك الجيف، وتنتف نتفاً من لحم مهترئ وتحلِّق بعيداً أو فوق رؤوس البيوت. كان جميع أهل القرية وَجِلين أن تداهمهم مواسم الأمطار قبل أن تتحلل تلك الجيف. كانت خشيتهم أن تهلَّ الأمطار فجأة، وتسحب مياهها تلك الجيف صوب الآبار. هذا الخوف ظل يرفرف على ألسنة أهل القرية من غير أن يجرؤ أي منهم على جذب تلك الجثث إلى مكان آخر. وكلما نبت اقتراح مات قبل أن يُجمِع عليه الأهالي.

في خضمّ هذا الارتباك أقسم السيد عبده إبراهيم ألا يغادر محرابه حتى تنقشع تلك الغمّة. فاستجاب لاعتكافه خلق كثير، وبقوا داخل المسجد، يهللون، ويستغفرون، بينما تطوعت نساء القرية بمدهم بزوادات من أقراص الحنطة شُبِّعت بزيت السمسم، وتراكض الصِّبْية لحملها إلى داخل المسجد. ذلك التطوع ما لبث أن فتر داخل صدورهن وظللنَ في بيوتهن، يتربصن خائفات أن يداهمهن الموت فلا يجدن من يحمل

أجسادهن للمقبرة. مسعدة الوحيدة التي علَّقت على هذا الفتور:

- لَمْ يخفن من الموت، بل اشتعلت رغباتهن، ولم يجدن ما يطفئها سوى التبرُّم، وادعاء الخشية.

مقولتها هذه، وصلت آذانهن فتلاسنَّ معها. والوقورات منهن فضَّلن الابتعاد عن لسان مسعدة خشية أن تحرق أستارَهن التي يسدلن بها على سِيَرهن منذ أن كنَّ صبايا.

*** ***

كان رعباً حقيقياً، فكل من أصيب بحمّى استجار بذويه موصياً إياهم، لو أن الحمى أخمدت أنفاسه، ألاّ يُقذَف مع جثث تلك البهائم التي غدت تسد مداخل القرية. وظلت العجوز صالحة موسوية تبكي بحرقة مرددة:

- غداً ستشبع الحداءات من بطني.

وفي الليلة الخامسة من اعتكاف السيد عبده إبراهيم، وعلى غير العادة، هبت عواصف رملية دفنت الأحياء وتلك الجثث. وبعد ثلاثة أيام متواصلة توقفت الغبرة ومضت إلى خارج القرية بعد أن تركت تلاً من الجثث المردومة وقرية دُفنت بيوتُها لمنتصفها.

وتقاطر المعتكفون إلى خارج المسجد متفقدين ذويهم وهم عازمون على رد المظالم لأهلها بعد أن سمعوا من الشيخ عبد الرحمن الشرقي حديثاً طويلاً مفاده أن اللّه يرسل العذاب على القوم الظالمين، وأيقنوا أن قريتهم يسكنها الظلم ولا بد من التطهُّر.

في ذلك اليوم، أُريقت دماءُ البهائم التي نجت من الوباء ولم يسلم من الموت سوى غنمات معدودات، وحمارين، وثلاث بقرات، وثورين، وجمل واحد، وأنا!!

يقولون إن مسعدة هي الوحيدة التي اقتربت من تلك الجيف غير

متهيبة، وخرجت بلجام المهرة وألجمت به بغلتها الهزيلة لتفاخر بها، ولم يُصبها سوء.

في تلك المصبغة أُعدَّ نعشي. كان أبي غيرَ مكترث وقد زفر بأمي بضيق:

- لا زلتُ قادراً على الإنجاب. اتركيه مع بقية الجثث ولا ترهقينا!

عرفت في ما بعد أنني تعرَّيت تماماً وغُسل جسدي بالسدر، وقبل أن أُلَفَّ داخل الكفن ظهرت مسعدة وخبأتني بين فخذيها. وعندما أخرجتني كنت أتنفس الحياة ببطء كعصفور شق بيضته مستنداً إلى جنبيها المكسورين بجناح مهيض. وتركتني أمي بالقرب من مرمى القرية - استجابة لأوامر أبي- حتى إذا أسلمتُ الروح أكون قريباً من تلك الجثث المقذوفة في مرمى القرية، وإن نجوت كانت فرصة لكي أتعرَّض لأشعة الشمس لتُذهب أبخرتها سقمي بعيداً عن فضاء القرية.

لا أحدَ ينظر للخلف خشيةَ أن يرى
إثماً عظيماً لا يقدر على محوه.

هبطتْ من الرابية سيراً على الأقدام تجرُّ بغلتها وتمضغ ساق قصب سكر نخر السوس جانباً منه. حين اقتربتُ منها انطلقت أساريرها بضحكة قصيرة:

- لعنة اللّه على هؤلاء الحمقى. لقد حصدوا سنابل الحنطة قبل الأوان.

ربما استشعرت انغلاق جُملتها حيال ملامحي التي أبدت تجهماً وعدم معرفة بما ترمي إليه، فأعادت جملتها بطريقة أخرى:

- لو أبقوا السنابل في حقولها لتمكّنا من الاختباء خلفها ولأسمعتني نهيقك.

جُملها السافرة تدفعها لقمة سائغة للهواء العابر وتوصلها بقهقهة مرتوية لا تتورع عن إطلاقها في أي مكان. بالأمس، شعرت بجفاف حلقي، وأنا أقف معها في سوق الخميس، وهي تسوم بغلة لتحل محل بغلتها الهزيلة:

- انتظرْ حتى أُنهي شراء هذه البغلة.

- عليَّ أن ألحق ببائع الفخار قبل رحيل الباعة.

- أنت تستعجل كل شيء، ومن الأصلح لك أن نعود مع الغروب

لتتعلق بصدري بين الأحراش لبعض الوقت.

بائع البهائم نظر إليَّ مستخفاً وألقى بضحكته أسفل قامته:

- يا غلام، اللحم العتر يجلب الموت.

ظننتها ستلوذ صامتة لكنها انتفضت صائحة به:

- هذا الفرج مدَّ في حياته.

تركتُها تسفح كلماتها العارية، وركضتُ لآخر السوق، أدسُّ خجلي بين أواني الفخار المكسَّرة.

***

قالت لي: إن أول فرج شممته ورأيته كان فرجي.

وفي مكان آخر بين حشائش الحلفا، وهي تتثنَّى كأفعى احترفت الزحف البطيء المتقن، أحاطت رقبتي بذراعيها الضامرتين، وهمست بضحكة مشروخة:

- أنت تدين بحياتك لفرجي... وأنا أدين لك بهذه المتعة.

تداهمك على حين غرة جُمل قصيرة مبتورة، تظنها للوهلة الأولى حجراً طائشاً فضَّ هامتك لا لشيء، فقط لكونك وقفتَ في طريقه.

من بعيد تخبُّ ببغلتها متجهة للسوق الأسبوعي المُقام على وادي خلَّب بقرية الخوبة، ممتلئة بالحيوية ومحتفظة بكحل عينيها الذي لم يغادر أهدابها المتكسِّرة منذ أن عرفَتْ أنها أنثى.

على قنوات الحقول المشبَعة بماء السيل تنافرت أعذاق قمح هجين لم يستوِ، فانكبَّ الأُجَرَاء لحشّه، وربطه في محازم ليباع وجيماً للدواب. ترك حسين يماني محشه منادياً عليها:

- إلى أين يا مسعدة؟

- أنت لا تشبه الرجال، فعيناك منطفئتان!!

أكل الزمن جسدها المرتوي وأبقى لها ردفين متوترين، وظل هذان

الردفان مثاراً لتغامز نساء القرية، وذهب بعضهن في التقوّل عليها متهمات إياها بوضع لفافات الأقمشة تحت ملابسها الداخلية ليبقى ردفاها هاربين للخلف. وقد سمعتْ بهذه النميمة، فاستغلتْ يوم غسل حليمة بركات، وخروجها من العدة، فتعرَّت أمام عدد من النساء اللاتي كن يرددن تلك المقولة، وعندها تصايحن بها:

- تستَّري يا مسعدة.

ضربت على مؤخرتها لترتجَّ إليتاها تحت أناملها المتعرِّقة، وندت منها جملة فاضحة، أتبعتها بضربة على صدرها:

- أوه، نسيت اليوم أن أضع لفافات الأقمشة على مؤخرتي!

بعد هذه الواقعة تثبَّت لدى جميع النساء أن الزمن أكل أنوثتها وأبقى لها ردفين متوترين ولساناً سليطاً يعكر المياه العذبة.

فُتنتُ بها ذات صباح حين أدخلتني عالم الرجولة من وقت مبكر.

تبقَّت الوحيدة من النساء التي تتعاطى التدخين بشراهة، ولم تكترث كثيراً بالأقاويل التي تسنُّها ألسنة الرجال والنساء على المتهافتين على التدخين.

كان التدخين تقليعة، تهافت عليه الرجال والنساء ليعدِّلوا به أمزجتهم في أوقات المقيل. كان في البدء مقتصراً على الرجال ينفثونه في متكئهم وهم يجترون قاتاً تكوَّر على وجناتهم وتركهم منتشين بخدر لذيذ، ثم تطور الأمر لتدخل النساء إلى التدخين من باب المفاخرة وإظهار المقدرة على شراء لفائف التبغ القادمة من المدن البعيدة. وبعد حادثة فاحت في جنبات القرية أقلعت النساء عن التدخين باستثناء مسعدة التي أصرت على مواصلة هذه العادة غير آبهة لما يقال، ولم تكن مستعدة لأن تتخلى عما يطبّب مزاجها.

أهل القرية لم يصدقوا الخبر لولا أن صاحبة الحدث (ليلى سليمان) هي التي أقرت على نفسها، واستنكفت أن تبقى في بيت زوجها وهي

تحمل عارها، ففضلت أن تعلن خيانتها، وتضيع في المدن البعيدة.

أما الذي اقترف الإثم وبقي ليلتين ينعم بدنس المتعة التي اقتنصها في لحظة ضعف، فقد أسمع الجميع استغاثته، وهو معلَّق على شجرة أثل مرتفعة بينما تفرَّغ خصمه لتقطيع أعضائه التناسلية ببرود قاتل.

هذه الميتة البشعة حرَّكت ألسن أهل القرية للتجديف في سيرته الراكدة:

قذفته موانئ الحبشة بهذه الناحية، فاكتشف أن السلع الوضيعة التي حملها معه درَّت عليه أرباحاً وفيرة، فاستملح المتاجرة بها. كان يغيب شهراً أو شهرين ويعود حاملاً معه أنواعاً من السلع التي تنفد قبل أن يستريح من وعثاء السفر.

جلب في البدء قِرَباً جلدية، دُبغت دبغاً محكماً فتخاطفها أهل الوادي. بعد ذلك تنوعت بضاعته: جلود، أوان خشبية، أصباغ، مرايا، أمشاط، حبال، كبريت، مشغولات خزفية. ومن ضمن السلع التي جلبها -أيضاً - أداة خشبية متنوعة الأشكال والأحجام منها: المعكوف، والدائري، والمستقيم بتجويفات عميقة وبديعة الصنع. ظلت هذه البضاعة مركونة من غير أن يُقبل أحد على شرائها.

وعندما رآه الشيخ يحيى عبد الله يسير معلِّقاً تلك القطعة الخشبية في فمه، نافثاً منها دخاناً كثيفاً، أعجبه منظرها وتساءل عنها، فأخبره التاجر الحبشي خبرها قائلاً:

- هذا هو الكيف.

واستملح تجريبها. وقبل أن يطول بقاء التاجر الحبشي رجاه أن يجلب له من هذا النوع أعداداً كبيرة.

ومع عودته لم يعد هناك بيت في القرية إلا وكان أحد أفراده يعلِّق في فمه غليوناً وينفث الدخان في كل حين.

تغلغل عشق الدخان بمزاج ليلى سليمان، فلم تعد تقدر على البقاء

من غير امتلاء حجرها بالتنباك، وفركه بعناية وملء غليونها وتطبيب مزاجها في كل حين.

ذات ليلة، اكتشفت أن مؤونتها من الدخان نفدت، فأصيبت بحالة من السُّعار، وخرجت متسللة لمسكن التاجر الحبشي، وطلبت منه إعطاءها مؤونة تكفيها للصباح، فتعلل بأنه لا يملك شيئاً من الدخان سوى ما يعبر به ليلته تلك، وراودها عن نفسها مقابل أن يمنحها ما أبقاه لتهدئة مزاجه، فأسلمت له جسدها مختارة.

وعندما عادت إلى البيت كان الغليون غارقاً في فمها وهي تحكي لزوجها ما حدث وتطلب منه الطلاق.

من يومها، امتنعت جميع النساء عن «شرب» الدخان خشيةَ أن يقودهن تلهفهن لتسليم عفتهن لتاجر عابر. وبقيت مسعدة حاملةَ الغليون الوحيدة على امتداد الوادي، وكلما شعرت بأن أوردتها حنّت للحرائق أشعلت غليونها غير عابئة بكل الأقاويل التي تُحاك خلف ظهرها.

لم تكن ترد على من لا يطيب مزاجها معه. ركض حسين يماني خلفها ومحشه معلّق بيده:

- ماذا تقصدين أن عينيَّ منطفئتان؟

- لم تعودا كسابق عهدهما، جمرتين تفضحان رغبتك المكبوتة... أتذكر حين طلبتني للزواج. أتذكر وقفتك كلما عبرتك. كانت عيناك على استعداد لمتابعتي حتى وإن غيبني ألف بيت...

- وهل ترغبين في أن أحدِّق فيك يا مسعدة؟

- المرأة التي لا تجعل الرجل الخرف يوسوس بها لا يحق لها أن تدّعي أنها امرأة!!

- نحن كبرنا على هذا يا مسعدة.

- الحياة تبدأ حينما تكبر فينا، تبدأ عندما نشعر بأنها على وشك الهرب من أجسادنا.

- قبّحك اللّه.

- بل قبّح اللّه أمثالك من الرجال الذين تموت أعمدتهم فلا يجدون وسيلة لاستعادة رجولتهم إلا بالكلام الميت.

تأمّلته ملياً:

- انظرْ لنفسك، ها أنت أشبه بامرأة. كل شيء يستوي فيك استعداداً للحصاد.

- قبحك الله، تملكين لساناً قذراً.

- ألم أقل لك إنك لا تشبه الرجال، فالرجال يحبون القذارة شرط أن تأتي من نساء غير نسائهن، وعندما تصبح رجلاً مثلهم نادِ عليّ!!

ومضت تغز الهواء بردفيها المترجرجين.

❋ ❋ ❋

وقفت امرأة بدينة رثة ممزقة الثياب تحدّق ببلادة في ما أبان الشق الذي انحدر من إبطها - ولم يُرتَق - جزءاً من ثديها الأيمن فخرج كأمعاء بقرة بُقرت ونهضت تجر أمعاءها غير مكترثة بما أصابها. صرخات مسعدة المتلاحقة حرَّكتها قليلاً فابتعدت عن الطريق تاركة لسانَها يُهرِّب جزعها من تلك الصرخات المحذِّرة:

- مسعدة ماذا بك؟

- بقاؤك في الطريق سيجفل له حماري وتتكسر الأواني، ساعتها لن تفيدني نظرتك البلهاء.

انسحبت المرأة من طريقها ساخرة:

- أوَتظنين أنك تحملين أواني بلقيس؟

ربما لم تسمعها، فقد انطلقت ببغلتها متهادية نحو السوق، وأغنية ندية انبثقت من بين شفتيها اخضرَّ لها طريقها المتعرج.

امتهنت مهناً عديدة، وسعت من البدء إلى امتهان مهن تُدنيها من

الرجال، فكانت تبتاع من أسواق القرى سلعاً نحاسية بأجل، وتقطع القرى الممتدة على الوادي لبيع تلك الأواني النحاسية بأرباح مضاعفة حيث كانت تُظهر جودة تلك الأواني مقللة من أهمية الأواني الفخارية في حفظ الأطعمة، أو السوائل من سمن، وزيت، وعسل. ووجدت أن هذه المهنة تجلب لها أعداء وتحزبات من قبل بائعي الأواني الفخارية، كما أن أسعار سلعتها المرتفعة لم تكن تستوعب الفقراء. فبعد أن اشترى منها الموسرون انحسرت بضاعتها، ولم يُقبل عليها إلا الساعون للمفاخرة، فنبذت هذه المهنة، وتعلقت بجلب البز المطرز القادم من الهند وأغوت النساء بأن خيوط أقمشته المذهَّبة طُرزت بماء سِحر شرقي يربط الرجال بجوار مخادع زوجاتهن ليالي طويلةً ويغدو لا همَّ لهم إلا سقي حقولهم المقفرة. وبهذه المقولة غدت النساء لا يروق لهن إلا تلك الأقمشة المطرَّزة بالخيوط الذهبية.

هذه المهنة درَّت عليها أموالاً مضاعفة وسَّعت بها أنشطتها، وجلبت العطور، والهيل، واللباب، والحسن، والزباد. وبدأت تتشوف للوصول إلى جلب أدوات حديثة. كان يسمع بها أهل القرية ويظنون أنها حكايات يتسلى بها الناس في أوقات فراغهم. وقبل أن تعزم على ما نوت كانت الحرب على الحدود قد اختصرت الطريق، وجاء الجنود بأدوات لم تكن موجودة إلا في حكايات القرويين. ولسبب غير معروف(*) عادت مسعدة للمتاجرة بالسلع التي تبقيها بجوار الرجال من غير أن تتسع طموحاتها في الركض إلى ما خلف القرية، مكتفية بتزيين كمران الرجال بجنيهات ذهبية أو فضية، وحياكة الفوط المجلوبة من أندونيسيا، أو الانشغال بإنجاز

(*) يدَّعي مريضي أن سبب عزوفها عن الارتحال إلى أسواق قرى الوادي، هيامُها به وعدمُ رغبتها بالابتعاد عنه. وفي نهاية الفصل يعترف صراحة بمعرفته بالسبب الرئيسي بسعي مسعدة الحثيث لإغلاق باب عشتها.

حسين مشرف

مشغولات الكوافي التي برعت في كتابة كلمات العشق المخبَّأة بين مدخل الإبرة ومخرجها. وإذا نشطت عادت لإغواء النساء بأقمشتها الجالبة للمتعة - على حد زعمها - فتقوم بالتبضع من أسواق القرى القريبة، جالبةً البخورَ والأقمشة التي كانت تُطلَق عليها مسميات تحفِّز النساء على شرائها. وكلما طال أمد الحرب خمدت همتها، واستكانت في قريتها، وارتضت البقاء في بيتها تبيع بضاعتها المخزَّنة من غير أن تُجهد نفسها بالارتحال من مكان لآخر. ولم تجدّ لتعويض خسائرها المتلاحقة، فركنت للدعة، مقتنعة بالرزق اليسير الذي تصيبه من بيع سلعها المخزَّنة، وبرَّرت عزوفها عن الخروج لأسواق القرى المتباعدة بقولها:

- الرجال القادمون من المدن أكثر شرهاً وأقل أدباً.

القرية كلها تَحْذَرها حين تتخلى عن نعومتها، حيث تغدو شرسة، متعجرفة، وتتعكر عذوبتها وتغدو كنسيم اختلط بالروث وروائح مربط الأبقار.

عندما رآها الحاج عمر على بغلتها تشدو بأغنية ازدهرت أيام شبابها، قال للّذي يجاوره ممازحاً:

- إن النساء الجميلات في شبابهن يغدون رجالاً في أواخر أيامهن!!

عرفت أنه يقصدها من دون سواها. غمزته هذه جعلتها تسترخي في ضحكتها وقطعتها فجأة:

- وأمثالك، وفي سنك تماماً، يأخذون أدوارنا عندما كنا صبايا.

انفجرت ضحكات الزرّاع الحاضرين لهذه الواقعة. ولم تنتظر لتسمع جواباً، فلكزت بغلتها صوب السوق من غير أن تلتفت إليه.

من قرى وادي خلّب يتناثر الباعة بالسوق الكبير ويعرضون سلعهم المتعددة مستظلّين بخزف جُدل من أشجار الدوم. كان عليها أن تمضي سحابة النهار أمام بضاعتها المتنوعة آملة رؤيةَ يوسف النجار علَّها تقنعه بمرافقتها وإصلاح باب عشتها الذي لم يعد يُغلَق، وظل مواربأ يغري

القادمين بدفعه وكشف سوءته. هذه النية أعلنتها صبيحة البارحة مما جعل جاراتها يتساءلن بإلحاح:

- أمضيتِ سنين طوالاً وباب عشتك مفتوح للريح والقادمين، فماذا حدث الآن؟ هل ستتزوجين يا مسعدة؟

أنا الوحيد الذي كنت أعرف سبب رغبتها في إغلاق عشتها، وكدت أبوح بالسر لأقراني الصغار. كدت أفعل ذلك.

***

حينما يأتي الليل مباغتاً تكون أغنامها لا تزال سارحة على أطراف القرية، تعتلف ما يصادفها هناك، فأجد الفرصة مؤاتية لأن أصحبها خارج البيوت. هناك أراها امرأة أخرى: لحاء جذعها الرميم يتساقط، وينمو من داخله غصن رطيب، يلتف حول عنقي، ويزهر، يفوح بعرف العود، والهيل، والبخور. مارد يتخلى عن دمامته، ويقشع جلده، فيظهر كنجم سقط من السماء محتفلاً بالحياة. تُغرقني في مائها، وتفور منتشية. تغدو لزجة كمطيينة تُنتح طيناً، أرسب فيها، وأرضها تلز وتلز. أُفرغ لهاثي، ورغبتي مراراً.

في أول الأمر كنت أخشى الزواحف التي تبدأ خطواتها بين الحقول مع الغروب؛ أخشى الضباع والذئاب العاوية من خلف الهضاب القريبة. في أول مرة تخيَّلتها ضبعة تنهش جسدي الصغير، فيصيبني الخَدَر. وقبل أن أفيق تخبئ جزءاً من جسدي فيها، فأغيب، أغيب، وأنتفض كديك مذبوح يتعرَّش بها، ويوغل في أحشائها جاهداً بلوغَ قرار بئرها السحيقة.

أدخلتني عشتها وغرستني في صدرها الصلد. فقد انهار جبلان، ادَّعت أنهما كانا قمتين لا تصلهما خفقات الطيور المحلقة. جذبتني متوددة:

- ما بك؟

- أبي مريض؟

- من قال ذلك. لقد رأيته عصراً بكامل قواه.

- لكنه في الليل يمرض، ويظل يتألم وألمح أمي تحمل شفرتها وتقطع شيئاً منه.

- تقطع ماذا؟

لم أستطع إجابتها. وبعد إلحاح منها وتردُّد مني، أشرت لها إلى الجهة التي كانت أمي تلاعبها بشفرتها. أبدت استغراباً، ولم تدع الفرصة تفوتها، فرفعت ثيابي، وامتدت يدها إلى هناك. كانت عيناها منكسرتين وارتباك يملأ وجهها الطافح باستذكار الحكايات الأولى:

- هذا.

هززتُ رأسي، وشعرت برغبة لأن التصق بها، فلم تمانع. بعدها كان الكون يتسع، وشعرت بأن الأواني المهشَّمة يمكن لها أن تتجمع، وأن العصافير يمكن لها أن تحلق ليلاً قاطعة الفيافي برفيف يجرح سكون الليل. تحسست جسدي في تلك الظلمة بخدر يخالطه خجل عميق:

- إياك أن تُخبر أحداً بهذا!

- ...

- فهمت؟

ربما اختفى صوتي، فلم تسمع مني شيئاً، فقد نهضتُ وعدتُ راكضاً للبيت وأطياف من مردة تحجب الطرقات، تبزغ من كل مكان؛ تلك المردة التي تخرج ليلياً لتخطف العشاق من منازلهم وتطير بهم إلى هضبة الجن وتزوِّجهم ليطيروا على البساط السحري صوب كوكب الزهرة.

***

أتحرز من مناداتها: جدة، كما يفعل أقراني، وكانت تقدِّر لي هذا الصنيع. فهي تبغض هذه اللفظة ومَن يطلقها، وتتغافل عمن يناديها بها، وفي أحيان ترفض الإجابة حتى لو امتدت يد لتنوشها مردة تلك

الكلمة. كانت لا تريد أن تشعر بأن الزمن سرق صباها ومضى، فهي لا زالت - كما أخبرتني - تشعر بأن مياه الحياة تجري بين شغاف قلبها، فتملأ مفاصلها فتوةً وقدرةً على أن تعيش عمراً قادماً. تتمنى لو أن الجميع يذكّرها بطفولتها حين كانت تسير وخصلات شعرها تتطاير مع هبوب الرياح، والعيون تطاردها، وكل أمّ تعدها في بالها لأن تكون زوجة لابنها.

قبل أن تُغرقني في بئرها السحيقة، كانت لها محاولات لاستلاب نشوتها بمواربة لم أتنبه لها. وفي ذات ليلة جذبتني من المرعى، وغيبتني داخل الحقول:

- ستكون عريسي الليلة!!

- . . .

- لا تكن كالأطفال؛ أولئك الأغبياء الذين لا يكتشفون لذة الحياة إلا متأخرين!!

- . . .

- ألم تلعب لعبة «العريس والعروسة» مع أندادك من الصبايا؟

- . . .

- تعالَ، هذه اللعبة الوحيدة التي تبقى في ذاكرتنا من هذه الأيام.

في تلك الليلة، سمعتها تتناشج:

- من يعيدني إلى تلك الأيام؟

وعندما رأتني جامداً، خبطتني على كتفي:

- انهض، فالأيام القادمة ستصْليك بمثل هذه الحرقة!

تسعد برؤيتي، وتجذبني في الأعراس، وتُجلسني بجوارها، وتظل تتابع عينيّ. وكلما هبطتُ على قوام امرأة، غرست فمها في أذني:

- هذه لا تصلح لك!!

وعندما أحاول التملص من بين ذراعيها، تعيدني بهدية. في كل مرة، تمنحني شيئاً، أفاخر به أقراني، فلم تتركني أحتاج إلى مال، أو لعبة. كانت تمنحني أي شيء يجعلني متفوقاً على أقراني. هباتها المتتالية كانت تغري أقراني لأن يدنوا مني لمقاسمتي هباتِها، وكلما سُئلت:

- من أين لك هذا؟

أجبت عَجِلاً:

- مسعدة أعطتني إياه.

وكلما سمعتني أناديها باسمها عارياً تهلَّل وجهها، ودستني بين نهديها، وتظل تتشممني كزهرة فاح شذاها:

- من أين جئت بهذه الرائحة؟

بقيتُ أثيراً لديها، ووقحاً في نظر الكبار حين أناديها باسمها عارياً من أي صفة أو كنية.

لا زالت عيناها تلمعان كنجمتين أرسلتا ضوءهما في خبت عار من الأشجار فبقي وميضهما مرتهناً للتراب يردد ذلك الوهج الأبدي، ويغري المرء بتلمس تلك التربة، لمعرفة سرّ تلك الأضواء الفسفورية التي تتمرغ بها، وتنهض من غير أن تصاب بتلوثات تذكّرك بأنك كنت في أرض دنسة. لها أرض ناعمة خالية من الأدران، فلو أمضيت عمرك تتقلب في تربتها ما التصقتْ بجسدك حبةُ رمل منها. وكلما نهضتَ تتمنى العودة لذلك التراب الذي يلزك لزاً ويمنحك الدفء والحبور.

غالباً ما تُغرق عينيها بالإثمد وتتعمَّد أن تبقى نصف إطباقتها حين تتحدث مع الرجال. غمزاتها حارقة، وضحكتها تجري مدغدغة الرغبات المسدلة.

لا زالت تعيش في تلك الأيام، ولا ترغب في مغادرتها. وإذا نسي أحد ماضيها تقسم إن لَحْظَها قتل ثلاثة رجال وهام بها كل رجال القرية.

وحين لا يقف أحد على ذكريات صباها، تتمسك بالأعشاب،

والبخور، والعطور، لتبقى أنوثتها متوهجة، حتى ولو اقتصر الأمر على انعكاسها في مرآتها المشروخة التي تتزين أمامها كل صباح.

شيء من هناك يأتي فينتفض له جلدها المهترئ ويرتعش. حفَّزتني أمي موصية:

- عليك أن تنهض مبكراً لتصاحب الخالة مسعدة في التعليف.

كنت خجلاً من رؤيتها بعد الذي حدث. ومع صياح الدِّيَكة، كانت يدها تهزني من مرقدي:

- انهض.

وعندما التقت أعيننا، كان فمها يلثم خدي، ويدها تمشط شعري:

- هيا فأمامنا نهار طويل.

وجذبتني من مرقدي، بينما كانت أمي تطهو فطورنا:

- خالة مسعدة دعيه يتقرّعْ.

كانت قد سحبتني من يدي وهي تردد:

- لقد جهزت له قروعاً يملأ معدته بقية النهار!!

لم تكن تحتفل بوقت من دون سواه. كل الأوقات تحاول ملأها بحبورها، وقذفها في مستودع ذاكرتها: في الظهيرة، وفي أوقات القيظ، ومع رعشة البرد، وهبوب الرياح، وتساقط الأمطار، تملأ جسدها بالحياة وتظل كحاطب يجمع الأغصان اليابسة، وتوقدها في الحال، وتبقى الأغصان الخضراء مستعجلة الزمنَ الذي يمكّنها من الاستدفاء بها.

الأيامُ ماءٌ نُفرطُ في دلقه
على وضوءٍ لم يكتمل.

هي خمسة أيام خرجت فيها القرية بغير هدىً.

اليوم الثالث

لم يكن موسماً خصباً كما كان يشتهي أبي. فقد ضمرت أعذاق القمح فوق عروشها، قبل أن تشد أمانيه رحالَها إلى الأرباح التي جناها من مخيلته. دفع أمي من طريقه مراراً صائحاً بها:

- عندما تمطر السماء تهرب الغربان، لكنك تنعقين في كل حين.

وتعذبل من عبوسها، واعتراضاتها المتكررة؛ تلك الاعتراضات التي كانت تحاول من خلالها كبح اندفاعه المشين كما تنعته. ومع كل اعتراض تكون قد خسرت شيئاً من داخله حيث يُطلق فمُه كمّاً هائلاً من الشتائم دفعة واحدة غير متورع عن اتهامها بفساد الرأي وتخاذلها في نصرته ورغبتها في إبقائه تاجراً يجوب الأماكن الوضيعة فوق حمار هزيل من غير أن تعضد مسيرته. وفي آخر مرة اتهمها بمحاولة الوقوف ضده مع أهالي القرية، فكانت تذعن لثورة الغضب التي تجتاحه، وتتركه بعد أن تُوْدع في مسامعه بعض الكلمات الحارقة، كاقتصاص لكرامتها التي يمزقها في كل حين.

وقد أبدت استياءها وحذرها من وقت مبكر، حين تناقل بعض النسوة شكوى أزواجهن من اصفرار أوراق الحمضيات قبل أن تثمر. ولم يسعفها استياؤها من تدارك ما أفسده لسانها من علاقات عامرة بعد أن افتعلت

خصاماً مع جاراتها، حين كانت توقُّعاتها تغريها بقطع علاقاتها مع أولئك النسوة اللاتي لا يعرفن في هذه الدنيا سوى استعارة كل ما تقع عليه عيونهن، ونسيانه من غير أن تختلج خواطرهن باعتذار عابر.

ندمت على شجارها المفتعل مع غالبيتهن حيث كان لسانها باتراً. لم يبق لها فرجة تمكّن وجهها من تجبير تلك التصدعات حين يجدّ الجد، فالأيام القادمة تشي بضرورة التكافل، أو على أقل تقدير استرجاع تلك الإعارات التي تنازلت عنها مقابل شن خصام مفتعل، والتخلي عن كل الماضي مقابل قطع تلك العلاقات الطفيلية القائمة على عرض محتويات بيتها للإعارة من جانبها فقط.

جاءت الأمطار في وقتها المحدَّد، وارتوت كل أراضي الفلاحين من غير استثناء، وتشبَّعت أوردة الأرض، وهلَّت الأمطار كما لم تهل من قبل، وأغرت الكثيرين بتحويل جهودهم للاستنبات، حتى أن من لم يكن لديه حقول استأجر حقولاً ليبذر بها أنواعاً من تولات القطن النادر، وبعضهم تكلَّف قروضاً مضاعَفة ليبذر كل الحقول التي لم تكن لتُبذَر في أيام سابقة، مستعينين بأيدٍ عاملة جلبوها من القرى القريبة والبعيدة وأنفقوا عليها بسخاء من مدّخراتهم، أو عن طريق الاقتراض المقرون سداده بالحصاد.

كانت كل البشائر تلوح بتوقعات موسم راغد، تصل غلته لتغطية سنتين، أو ثلاث من الإنفاق الباذخ.

انتشى أبي لفورة الفلاحين، وشارك الزرّاع حُبورهم، بالرغم من أنه لم تكن لديه حقول تُدخله في زمرة المنتظرين لذلك الرخاء المتوقَّع، لكنه وجد في تلك البشائر فرصة لتحريك تجارته الكاسدة ففتح خزانته وأقرض القاصي والداني ولم يرد طالباً، فمنح كل من جاءه ما شاء من القروض الميسَّرة، وغالى في تسامحه بالتفريط في صياغة العقود الملزمة باستيفاء ديونه، وزاد على ذلك بعرض جميع المؤن الغذائية بأسعار مؤجلة تزيد

قليلاً عن سعرها الحقيقي، فأقبل عليه أهل القرية يقترضون المال ويستدينون المؤن الغذائية التي كلفته رحلات متوالية لجلبها من جازان. وقد عقد صفقات تجارية مع بعض تجار مصوع وعدن لتزويده بمؤن إضافية في حالة تقاعُس البواخر القادمة من جدة والتي تصب في مدينة جازان بعد أشهر من إبحارها.

هذه الصفقات السريعة، وغير المدروسة، استقطبت أموالاً كانت منسية في إحدى خزائنه المدفونة في فناء بيتنا. وعندما فتحها، وقفت أمي في طريقه للمرة الأخيرة، فنهرها فلم تنتهر، فألقى عليها طلقة واحدة، وقبلها زودها بشتيمتين كانت أُولاها:

- أنتِ عقرب لا تصلحين إلا للدغ.

وعندما أفنى غلته المدفونة على أولئك المقترضين، وعاد إلى البيت، تذكَّر انه طلَّق زوجته، فاسترجعها بمئة مجيدية، وثلاثة ثيران نحرها على عتبة صهره، مقسما إنه لم يتنبه لفعلته إلا عندما عاد.

بعد تلك الواقعة، لم تعد أمي تكترث كثيراً بتصرفاته، وفي أحيان كانت تذكّره بمن لم يقترض منه، ليذهب من فوره عارضاً أمواله للاقتراض!

كانت رغبته في حصد أرباح مؤجَّلة كفيلة بجعله يبحث عن المقترضين، ويغريهم بأخذ أمواله، والإتجار بزراعة الأراضي المترامية على أطراف الوادي. وقد أجبره على هذا الكرم المبالَغ فيه، أولئك التجارُ الصغارُ الذين سابقوا الزمن ورأوا المحاصيل تدرُّ أموالاً تجعل فئة الزرّاع يتسيَّدون القرية في السنتين القادمتين، وخشية أن يجد نفسه عرضة للقصاص، ويتسربل بنقمة الأهالي لكونه لم يبللهم بندى يديه حين كانت الفاقة تيبس أيامهم وتعصف بهم. عند هذا التخيل أبدى تسامحاً يفوق تسامح أولئك التجار الصغار. فبدلاً من أن يعقد عقوده مع المقترضين على السداد في موعد محدَّد، مد سخاءه إلى أبعد من ذلك مقتنعاً برد

القروض بعد بيع المحاصيل، وإخراج الزكاة، وتخزين الحبوب، وعصر السمسم، وندف القطن، ولم يمانع في استرداد القروض بصورة عينية كأن يسترجع قروضه من أصل المحاصيل المبذورة.

هذا الإغداق رغت له أفواه مريديه بتكرار التزلف الذي أمطره به بعض المقترضين حين تجمعوا حوله منادين به: «الباشا شيخ المشايخ»؛ هذا اللقب الذي حرك أماني دفينة نسيها مع رحيل الأتراك من شبه الجزيرة العربية. كان يفرط في مد حسراته على مسامع أمي:

- لو بقي أجدادي لكنت الآن الآمر الناهي!

كان يقول مثل هذه الأقوال سراً، ويظل بعدها يجاهد لمسح أحاديثه من ذاكرتنا خشية أن ينزلق لسان أي منا بمجده الغابر.

ومع ترديد المقترضين لذلك اللقب، فز في داخله حلم ضمر، وكاد يتلف، وربما كان ذلك اللقب قد علَّق في باله ضوءاً خفت وخبا، وجاءت هذه الألسن لتوقد في النار الخابية. فبعد أن تكبَّد مشقة رحلات طويلة ومضنية عجز عن الإتيان بشجرة العائلة التي تثبت جذوره، كإحدى أعرق سلالات البيوت العربية التي هاجرت إلى بلاد الأناضول في فترات متقدمة من الجهاد الإسلامي.

كانت كل التوقعات تشي بموسم وفير الغلة... لكن شيئاً ما حدث وقلب كل تلك التوقعات.

دخل على أمي في ظهيرة حارقة، يتصبب عرقاً، وقد احمرّ وجهه، وتراخت مفاصله، فأشفقتْ عليه، وقربت له ماء ليغتسل. كان صامتاً على غير عادته، وزاهداً في دلق الماء على جسده المغبر:

- كنتِ على حق.

لم تشأ إضرام حنقه، فتناولت مدرعته، ووضعتها على إحدى الأرائك، ورفعت رجله، موصية إياه بأخذ قسط من النوم، في تلك القيلولة الحارقة:

- هل أنتِ شامتة؟

وعندما لم ترد عليه، تناول مدرعته، وخرج ينهب الطرقات، صائحاً:

- سأجعل هذه الدواب تفيق من رغائها!

- قَيِّلْ، فالشياطين وحدها لا تُقَيِّل.

- وهل يوجد في هذه القرية غير شياطين، ومردة، وقوادين؟!

بدأ تَطَيُّره من تلك النسوة اللاتي أبدين استياءهن من ظهور دودة أخذت تقرض أوراق الشجر فتترك الورقة كقطعة حديد صدئة. هذا التطير لم يعره اهتماماً في ساعتها. هشه من خاطره مع فورة تلك الأحلام التي انبثقت من قمقم لا يعرف من أطلقها، لتجوب القرية، موزعة الثراء بين أسمال أرق الناس حالاً حتى غدت كل الرؤوس تسير مزهوة بأموالها المعشعشة في مخيلتها.

وكان مبعث تطيُّره سماعه إحدى النساء اللاتي كن يتحدثن مع أمي. تلك المرأة أبدت حسرة مبطنة لما آل إليه الموسم من هزال استشرى في الحقول اليمانية. ومع اهتزاز أعماقه لحديثها إلا أنه استكبر وظن أن الأمر لا يخرج عن مماحكات نساء يبحثن عن حديث يمضي بهن بعيداً عن مللهن الرابض بين أعجازهن التي ملت المكوث وهي رابضة على بيض استعصى على الفقص. ولم يشأ أن يجعل ذلك التطيُّر يُبعد عنه خَدَر الأحلام التي جرت في مخيلته، وزفته لمبتغاه الذي طالما حلم به.

في إحدى زياراته لحقول جابر رديني فزع من تلك الوريقات التي تآكلت وصدئت فخفق في باله ذلك التطير مرة أخرى مما جعله يفيق من غيبوبة الأرباح التي تدفقت في مخيلته ولم يعد له من عمل سوى حث الزرّاع على محاربة تلك الدودة التي ظهرت لتأكل كل أمواله وصبره. وكلما أمعن في حثهم انزووا داخل ياقات ثيابهم وحثوه بكلمات ترابية:

- وماذا يمكن لنا فعله مع قضاء اللّه وقدَره؟

وكلما اخترع وسيلة لمحاربة تلك الدودة، تقاعسوا، وبادلوا حرصه بلامبالاة حتى أنه أبدى استعداداً لتزويد الزراع بمادة تقضي على أشره دودة مؤكداً أنه سمع بفاعلية تلك المادة عندما كان في إحدى زياراته لوادي فاطمة حينما وقف أصحابها لمحاربة دودة استشرت في محاصيلهم. ولم يركن للانتظار فسرعان ما أرسل بخطاب لصديقه عمر أبي دربين يستحثه على أن يمده بتلك المادة، محفزاً إياه بالإسراع بإرسالها. وقبل أن يفرح بوصول تلك المادة، حدث ما لم يكن في الحسبان. فبعد أن نهضت سيقان السنابل، وأخذت تتمايل في الأفق، محاولة التغلب على ما طرأ من آفة الاحتراق الذي نخر سيقانها، وأوراقها، انفتحت كل الجهات عن جراد مغبر، هب كجيش عرمرم، مهمته بسط نفوذه على تلك المساحة الشاسعة الخضراء. هلَّ من كل مكان، وافترش تلك الحقول كبساط يسابق المدى، غطى عين الشمس، وسقط على كل رقعة كحجر قُذف به عنوة. وقبل أن ترفع الظهيرة عطفة حموتها، كانت الأرض تندب صرعاها، ويفيق الزراع على كارثة، لم يعرف أي منهم كيف يتّقيها. استشعر صالح بضرورة أن يفعل شيئاً يقيه من خسارة واقعة، فجأر بصراخ متواصل:

- سأبيع ثيابكم لكي تسددوا ديونكم لي.

كان يدور بقامته، متلفتاً، فيلمح أسراب الجراد تحلق من كل صوب، فيزداد تهيجه وصراخه ووعيده. انطلق الزرّاع بين الحقول، يهشون أسراب الجراد الذي كان نهماً، يقرض السيقان قبل الأوراق. كانوا يبحثون عما يعبر بهم عامهم هذا من غير أن يتحصنوا في قمم تلك الأحلام التي انثالت عليهم ذات مساء، ومنحتهم ثراء، أفرطوا في سكبه على حياتهم القادمة، واستكانوا لدعة. مع هبوب الجراد، رأوا سنتهم القادمة متغضنة، شحيحة ومُرة. ولكي لا يصل هذا العام لواقعهم انشغلوا بذود فاقة برقت في خيالاتهم فأرتهم عاماً أعجف من خف جمل أجرب.

ولم يكن يعنيهم تماماً حرقة أبي الذي جنّد أنفاراً من العاطلين، لهش الجراد خارج تلك الحقول التي تجردت من أوراقها كما تفعل امرأة انتظرت طويلا من يعقر بكارتها المهملة، وعندما جاء الفارس في صورة مغتصب لم تمانع كثيراً من أن تسلمه طراوتها، من غير أن تقاوم شبقه المستعر، بل ساعدته على التعمق في خباياها العميقة وارتمت على جنبات الوادي ملطَّخة بعار تفتخر به في أعماقها.

كان مشهداً مرعباً وكفيلاً بأن تحتفظ به الذاكرة لأزمان قادمة. فمع الغلس رشق القرية عدد قليل من ذلك الجراد النادر، وحط في أفنية المنازل، ولم يكن ليثير فزع القرويين إلا أن حسن العجمي تطيَّر صائحاً من داخل بيته:

- فسي الشيطان في حقولكم، فاحملوا مصاحفكم، وطهّروا أرضكم.

زجرته زوجته بغلظة وهي تندد إن واصَلَ ندبه أن تترك ثمانية أطفال يتعلقِون في حلقه وتعود لبيت أبيها معزَّزة مكرَّمة. وعندها حاول أن يُفهمها أن هذا الجراد نذير شؤم وأنه سمع من جده لأبيَه أنه إذا ظهر الجراد الملوّن غير المغبر يكون قد حل الشيطان بأرض وفسي في تربتها، وتكون سنة قحط لا ينجو منها أي زرع.

أثناء حديثه كانت تعمق - بين الحين والآخر - إصبعيها في أذنيها ناهرة إياه عن مواصلة حديثه. ومع آخر جملة تفوه بها صاحت به عابسة:

- كلما انتظرنا خيراً، خرجت علينا كبومة تنعق فتحيل الحياة إلى ندب متواصل. كفَّ عن شؤمك.

- أقول لك هذا روايةً عن جدي.

- أوَتريد الأموات يحكموننا أيضاً؟

- جدي كان على علم ودراية بهذا.

- أوَكان جدك نبياً؟

- هذا جزاء من يدلكم على الخير.

- لا خير، ولا شر، الزم صمتك، وسنكون بألف خير.

صراخهما وصل إلى الجارات القريبات فتبرَّعنَ بإيصاله إلى بقية القرية من خلال السجوف أو مناداة بعضهن بعضاً. وقبل أن يصل الخبر إلى آخر بيت كانت أسراب الجراد قد حطت في كل ركن وزاوية من زوايا القرية.

تنبَّه أبي لحجم الكارثة التي ستصيبه وسمع بنصيحة حسن العجمي فحمل مصحفاً وأخذ يتلو آيات طوالاً فتحوَّل إلى عمود حطَّ به الجراد من كل مكان، وغدا سخرية للقرويين العابرين أو الدافعين عن حقولهم نهشَ الجراد بالمهشات، والمكانس، والثياب الممزقة. وعندما بُحَّ صوته من تلاوة القرآن عاد ليحثَّ الزُّرّاع على الذود عن حقولهم. استقبلوه بادئ الأمر بالسخرية فصاح بهم:

- يمكنكم إنقاذ بعض محاصيلكم بإحراق النار في الجهات التي يتواجد بها الجراد.

نفر غالب حسين من المجموعة صائحاً:

- يا صالح اتق الله، ألم تتعظ من مناداتك بحرق يوسف عبيد الذي جمعت الناس لحرقه والآن تجمعهم لحرقنا جميعاً.

- مناداتي بحرق يوسف عبيد كان منبعها حمايتكم. ومناداتي بحرق الجراد لصالحكم أيضا. وأنتم تعلمون جميعاً أنني هممت بحرق ابني للسبب نفسه حين توهمت أن مرض يوسف عبيد انتقل إليه.

- وهل من صالحنا أن ترانا موتى لتسترجع أموالك من جثثنا؟

- واللّه إنكم قوم بهت، كلما سعيت لصالحكم سعيتم لإيذائي.

- وأين مصالحنا في حرق حقولنا وبيوتنا. أوَتريد أن يقف الجراد لأكلنا بعد ان ينتهي من أكل المزارع.

- واللّهِ لو أكل الجراد محاصيلكم فلن تجدوا حبة قمح في كل هذه التربة الممتدة.

ناصَرَتْ دعوة صالح التركي مجموعة من الزراع، ناصرته على مضض، فقد قال محمد إسماعيل:

- أعرف صالحاً تماماً، لكن دعوته الآن لا علاقة لها بخسته السابقة.

وما إن خطر ببالهم ذلك الحريق الذي قادهم إليه حينما أشار بحرق يوسف عبيد من غير أن يهتز له رمش، متقدماً بإشعال جزء من بيت يوسف عبيد، غير مكترث برجاء زوجته التي وعدت بأن تحمل زوجها وأبناءها لخارج القرية، فكان صلفه أعمق من توسلاتها. ولولا أن الموت سارع بقطف أنفاس يوسف عبيد لأقدم على إحراقه بالإقدام نفسه الذي مارسه مع ابنه بإلقائه بالقرب من جِيَف الحيوانات النافقة.

بالرغم من تلك الذكريات المؤلمة إلا أنهم انصاعوا أخيراً لمقترحه، فخرج الفلاحون يحملون مشاعل اعتمرت برؤوس من الأقمشة المرطَّبة بالكاز، بادئين بحرق محاصيل الجهة الشمالية، فجرت النار بين السيقان الخضراء بطيئة باعثة دخاناً كثيفاً دفع الجراد لأن يتمدد في بقية الجهات، وأمام الاقتراحات المتعددة التي انبثت بها ألسنة المغيرين أُحرقت كل الجهات فلم يجد الجراد منفذاً له سوى التحليق باتجاه القرية، وهنا حل العذاب... كان الجراد يقف على كل شيء، ويغطي كل شيء حتى أن المرء يسير مغطى بأسراب الجراد.

- لعنة اللّه على صالح وعلى من يتّبع آراءه. ماذا نصنع الآن؟

قام إمام المسجد خطيباً ومذكّراً بعذاب بني إسرائيل وصنوف العذاب التي حاقت بهم حين كفروا وفسدوا، وأوصى المصلين بالتخفف من حب الدنيا، ورد المظالم لأهلها، والبعد عن الظلم الجالب للعذاب. ومن بين المأمومين صاح عبد الله خيري:

- يا سيدنا قد حلت بنا كل صنوف العذاب التي حلت ببني اسرائيل.

واللَّهِ لكأني أقرأ قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آياتٍ مفصّلات﴾، فهل بلغْنا ما بلغ بنو إسرائيل.

تجاهله الشيخ ورفع يديه متضرعاً لله أن يرفع عنهم العذاب، ومن خلفه انطلقت الحناجر مؤمنة، بينما ظل صوت عبد الله خيري يعكر تلك الدعوات:

- لم تُجبني، هل بلغنا ما بلغه بنو إسرائيل من الذل والهوان؟ وهل خطبتك هذه تحذّرنا من حدوث ما تبقّى مما نزل بهم.

وكلما اختلط صوته بتضرعات الشيخ وتأمين المأمومين ازداد تهيجه:

- السيل قد جاء وابتلع كل شيء، والجراد حلَّ وأكل الأخضر واليابس، والقمل يملأ رؤوس أبنائنا وزوجاتنا، وكلَّ يوم يموت واحد ويُسفَح دمه. اكتملت الآية فينا، ولم يبق علينا إلا الضفادع، وما أظن إلا أن صالح التركي ضفدع فنعيقه لا يكفُّ عنا.

انتهى المصلون من صلاتهم وانقلبوا على عبد الله خيري لائمين تجرؤَه على اللغط أثناء الدعاء، فلم يستقبل لومهم إلا بالعناد وتسفيه كل من حاول ردعه. واتهم الجميع بأنهم بقايا يهود نزحوا إلى هذه الجهة فلحقهم العذاب. وخرج من المسجد والغيظ يأكل صدره، بينما اتهمه المصلون بالجحود. وأقسم إمام المسجد إن عبد الله خيري لن يبلغ منزله فستقغ به قارعة أو تخسف به الأرض. وطالب بقية المصلين بالبقاء لإعادة الصلاة التي نقضها وجود عبد الله خيري، فاصطف المصلون، وكبّر الإمام وخشع الجميع، ومع الركعة الأخيرة ارتفع تذرعهم وبكاؤهم عالياً وخشع لسماعهم من كان بالخارج وخشي الكثيرون أن كارثة جديدة حلت بالقرية.

برغم هذه التضرعات المنسكبة لم يبرح الجراد مكانه من داخل القرية، فتحرك أبي مشيراً مرة أخرى بإحراق الحطب داخل المنازل، قائلاً:

- الدخان كفيل بإخراج هذه الجيوش من بيننا.

فلم يعد لأحد داخل القرية من مهمة سوى إحراق ما تصل إليه يده من حطب. وتصاعد دخان كثيف مسودّ من داخل البيوت وفي زوايا الطرقات، وارتفع السعال، ودمعت العيون وتساقط الأطفال مغشياً عليهم، مما حمل الأهالي على صب جماح غضبهم على أبي ومقترحاته.

تنامت الآراء وتمازجت، وكل رأي يسقط قبل أن يثمر. وفي آخر الأمر استجابوا لنصيحة شعبين بن عبده حين حذَّرهم من مغبة الأيام القادمة:

- سوف تعبركم سنة قحط لن تجدوا ما تأكلونه. ونصيحتي لكم أن تصطادوا الجراد وتبقوه مؤونة لأيام لن تجدوا غيره.

وتبدَّلت مهمتهم. فبدلاً من هش الجراد، أخذوا يتسابقون لصيده، وأصبح كل منهم يفاخر بأن مدخراته من الجراد وصلت الى كيسين أو ثلاثة.

استيقظ الصباح مثخناً بروائح الدخان. كان الأمس محرقة للأحلام... هناك شارك الجميع في إضرام النار في تلك الأرض التي كانت إلى ما قبل يومين هي الأرض الموعودة... الكل حمل أحلام الأمس وطمر عليها بقناعة يابسة، وعادت حياة رتيبة شحيحة تنتظر أملاً جديداً يبزغ مع الشمس، وأمنية أن يمد التجار تسامحهم بإقراضهم المؤن إلى وقت مديد.

***

كان مقرَّراً الاحتفال بختاني مع حلول موسم الحصاد، وعندما مات الموسم على الأرض، قررت أمي تقديم موعد الختان، وإن كنت متيقناً من أن خلف هذا التقديم رغبة أبي في تنفيذ نذر تأخر عن الإيفاء به فدفع أمي لتقديم الموعد وجلس يقضم شفتيه مفكراً وربما متحسراً:

- أعلم أن ما حدث ما كان ليحدث لو أنني أوفيت بنذري.

- ما حدث لم يصبك وحدك بل أصاب كل البلد.

- أصابها لكي أكون أنا الضحية. عليكِ أن تساعديني لكي أوفي بنذري.

- أتقسم بالله ألاّ تؤذيه.

- هي شعائر. لن يصيبه مكروه!

صباح شاحب. استيقظت أمي مبكرة ونادت جاراتها علَّهن يطيِّبن خاطرها بالحضور، وتبادلت معهن الاعتذارات التي لم تعنها في مسح تلك القطيعة التي كتبتها قبل أيام قليلة بلسان صلف، ولم يستجب لندائها سوى بعض القريبات اللاتي استحيين من أبي، وبعض ممن لم ينلهن لسانها لكونهن يقطنَّ في أسفل الوادي أو من اللاتي لم يستعرن منها ماعوناً أو خلافه.

الرجال تدافعوا إلى المخدرة تلبية لدعوة أبي. كان هذا قبل الختان بليلة. في ذلك الصباح جهزت أمي الحنّاء وأجلستني أمامها متوددة:

- عليك أن تكون رجلاً حتى ولو قطعوا رأسك.

شعرت برهبة تعتري جسدي، بينما ظلت عيناها الدامعتان تحدّقان بي، وهي تكرر وصيتها:

- عليك أن تكون رجلاً حتى ولو قطعوا رأسك.

مع الغلس، دبت حركة بطيئة داخل عشتنا. كنتُ مستلقياً على قاعدتي، بعد أن جافاني النوم لليلة البارحة. كانت يداي وقدماي طرية بفعل الحنّاء، وثمة برودة تسري بين مفاصلي، ونوم يحطُّ على أهدابي، ويفر كطائر توثق من تربص صياد به. وكلما نصبت له فخاً بإغماض عينيَّ، دنا، وقبل أن يطمئن يصيبه حجر الهلع، فيقفز من محجريّ، ويحط على شجرة الهواجس، ينقم صوراً مما ينتظرني، فأقبض على شيئي بوجل، وتطوف بالبال أسئلة وحرقة:

- كيف يمكن لشفرة أن تجتز قطعة منك من غير أن تُبين جزعاً،

ومن غير أن ترتعش مفاصلك، أو يرتد إليك طرفك؟

أذكر تلك الواقعة تماماً:

رقص، وطبل، ومزامير، ورصاص طائش يعتلي قامته المنهمكة في رقصة محبورة، وأناشيد تجوب فوق رأسه المتمايل على نغمات الطبل والمزامير تُعدِّد مناقب أسرته، وتذكرهم فرداً فرداً، وزغاريد تملأ الفضاء، فتحرق أوردته، ليفني قامته برقص، تهتز له كل مفاصله حتى يغرق في النشوة المثلى. فجأة يصمت كل شيء، ويقف هناك عالياً. عيناه معلَّقتان في الفراغ، وقطعة من جسده بين يدي الختّان، يجزها في لمح البصر، ليهطل دم غامق، يبلل وجه الختّان الذي ارتبك، وأخذ يزيل الدماء من بين محاجره، ويبحث عن قطعة القماش التي يعصب بها ذلك العضو النازف، والموشك على الذبول. تنبه القريبون صائحين:

- لقد قطع العضوَ نفسَه.

تسارعت الخطوات صوب تلك القامة المنتصبة، والتي أخذت تتمايل كشجرة دوم، طوّح بها الهواء. تلقفته الأيدي، وكان السؤال فوّاراً كالدم المتدفق:

- ماذا يجب أن نصنع الآن؟

ازداد ارتباك الختّان، حينما تجاذبته أيدي الرجال المحيطين به:

- ما الذي فعلت؟

- سأتدبر الأمر.

بقي المختون ذابلاً، وقد خارت قواه، ولم يعد قادراً على النطق. بينما كان الختّان يحاول إيقاف ذلك النهر المتدفق، بتناول رماد من بين تلك النار الخابية، التي كانت قبل قليل زاداً لشد الطبال، وإلهاب الكفوف. ردم الجرح. كان الرماد يبتل سريعاً ويطفو من فوقه دم شاخب، فأغمض المختون عينيه، وأيقن أهله أن عليهم الإسراع بحفر حفرة صغيرة. وفي المساء كانت أمه تنتحب على رحيل طفلها الصغير، الذي

كانت تهيئه لأن يكون جدارها الذي تعتصم به في كبرها.

من ذلك اليوم، لم يقم الختّان سلمان بختن أحد، وقد توارى عن الأنظار حتى لم يعد يُلمح في قريتنا إلا لماماً. اليوم دعاه أبي لأن يقوم بمهمة ختاني من دون سواه من الختّانين، ومنحه ريالاً مجيدياً، وكسوة، وأوصاه بأن يقوم بالمهمة خير قيام!!

صياح الديك نضب، وعقبه صوت إبراهيم عبده منادياً للصلاة. كانت حركة أبي التي ألفتُها تخبر أنه خرج لأداء صلاة الفجر، وصوت خادمتنا يجلجل في فناء البيت، وهي تهش أغنامنا التي خرجت من زريبتها. يبدو أن أمي استفاقت، وربما جافاها ما جافاني. أحسست بها تقف على رأسي وتتأملني. طالت وقفتها، فاستشعرتُ برغبة في البكاء. أصوات متداخلة من خارج العشة ربما كانت لضيوف أبي الذين حرصوا على المجيء قبل أن يتسلل ضوء الشمس في مفرق قريتنا التي تتجرد من ملابسها لتستقبل يوماً حاراً. نهيق حمير، وخوار بقرة، وصوصوة صوص فقس قبل أيام، وجلبة أقدام انشغل أصحابها بالإعداد لوجبة الصباح الباكر.

الكوارث كالأفراح تجلب الأصوات، والاهتمام، والانشغال عن صاحب المناسبة بتهيئته للدخول في تلك اللحظة التي لا يشعر بها أحد سواه. ها هم جميعاً منشغلون بتهيئتي للحظة التي ينتظرونها عجلين، وأتمنى في قرارة نفسي أن تتباعد بُعد المشرقين.

فسد فراشي من ليلة البارحة. تبوَّلت عليه مراراً. فكلما عنَّت بالبال لحظة امتداد يد الختّان لشد عضوي، وشعوري بتدفق الدم، أُخرج مياهي المالحة، وأستدرّ مرة أخرى في خيالات متواصلة. لم تنزعج أمي للبلل الذي أصاب الفراش كعادتها حينما أفعلها خشية من النهوض ليلاً وتخيُّلِ المردة وهم يلعبون في فناء منزلنا الواسع في انتظار من يخطفونه لهضبتهم.

لمحت أمي تنكفئ على سحارتنا، وتُخرج ملابسي. لم تكن وحدها. كان يظللها بقامته المديدة، فتتمخط محاولة كبح تناشجها:

- وهل يطاوعك قلبك؟

- هذا نذر.

- أي نذر يجعل قلبك جافاً كالحجارة؟

- لمْ تتعودي على معارضتي، وأراك الآن تكشفين عن وجه آخر.

- أُدفن قبل أن أرفع صوتي في وجهك، ولكن الأمر مختلف هذه المرة. فكل ما أخشاه أن توفي بنذرك كما لا يجب أن يكون.

- قلت لك هذا نذر، ويجب أن أوفيه فلا تجزعي. الآن أيقظي ابنك قبل أن يفضحنا.

- ولماذا سلمان من دون سواه.

- هو خير من يقوم بالمهمة.

- لهفي عليك يا ولدي!

- لو سكبتِ نحيبك من الآن، فلن تجدي ما تسكبينه في الغد.

سمعتُ نشيجها وزجره، فتوقف الدمع والصوت في آن واحد. اقتربتْ مني وناشتني مترفقة. تصنَّعتُ النوم مفتعلاً استجابة متكاسلة لدفعاته المتوالية بتصبيرها:

- حسناً سأنهض.

- هيا يا حشاشة قلبي، عليك أن تكون جاهزاً قبل استبطائك. فأبوك ومن معه في انتظارك.

- ولكن الوقت لا يزال مبكراً.

- أنت تظن ذلك، فالوقت قد مضى بعيداً.

خطوات عجلى تداهمنا على غرة. كان أبي يقف بيننا شامخاً، يتحلى بملابس زاهية فاخرة. جذبني من بين يدي أمي بقوة، فأبدت استنكارها:

- دعني أكملْ زينته.

لم يلتفت إليها، تناول الخنجر الذي جلبه لي قبل ليلتين، فلمع على الضوء المتبقّي من الفانوس، وضعه في يدي موصياً:

- أظْهِرْ اعتدادك بنفسك، وإياك أن تخذلني!

- . . .

- كن صلباً أثناء الرقص.

على بوابة عشتنا، كان المحتفون في انتظاري. ومع خروجي تعالت زغاريد النسوة، وتساقط على رأسي الفلّ الذي نثرته أمي وهي تزغرد وعيناها تفيضان بالدمع. لكزني أبي:

- تبدو رخواً كجذر لفظته التربة. . . أَظْهِرْ صلابتك واستجِبْ لدقات الطبل ولا تتخشَّبْ هكذا.

كنت قد تدربت على الرقص، وأبديت مهارة فائقة بين أقراني، لكنني الآن أشعر بمفاصلي متصلبة وغير قادرة على الحركة. لمحتها تسير باتجاهي بأهدابها التي تصنع منها شراكاً محكمة. دنت وأدخلتني بين عظامها النخرة:

- كن رجلاً كي أفتخر بك.

شممت رائحة الطلح تفور من ثنايا إبطيها. سمعت أمي تحدثها:

- خالة مسعدة هو يسمع كلامك، أَوْصيه بأن يكون رجلاً.

التفتت إليها محتدة:

- ومن قال لك إنه ليس رجلاً؟ واللَّه ليس في القرية من يدانيه رجولة.

وهمست في أذني بحديث خلخل ارتباكي، ودغدغ شيئاً من تلك الصور التي جمعتنا بين أشجار الحلفا، والحقول المختبئة خلف الهضاب، ودفعتني ليد أبي، وهي تسكب بصرها في داخلي وتوصيني:

- لا تنسَ فأنا أنتظرك.

بزغت من مخيلتي تتثنَّى كحية متدربة على اقتناص فريستها، واحتوتني بين ذراعيها، وشهقت. شعرت بالخَدَر لذلك الاحتكاك المتواصل. كنت أفيق من خدري لألم استقرَّ بين خاصرتي من أثر يديها المتوثقتين بهما، وشدها العنيف لجذعي الأسفل. وقبل أن تشهق شهقتها الأخيرة كنت قد استويت متضجراً من مسكتها فوعدتني متوددة ألاّ تؤلمني مرة أخرى. وفي ما بعد اخترعت أوضاعاً لم تكن لتتعبني لكنني كنت أشفق عليها حين تظل متألمة من تلك الأوضاع لأيام. وكلما رأتني لامتني على صنيعي بحديث موارب:

- أنت كالقطط تعضّ وتخمش وتقفز.

سمعتها أمي مرة وهي تقول ذلك فاستنكرت إيذائي لها:

- لو اشتكت منك الخالة مسعدة مرة أخرى فستجد نفسك معلّقاً على شجرة السدر والعصا تنفض غبار شغبك.

فصاحت بها:

- ليس لأحد علاقة بيني وبينه، وليفعل بي ما يشاء!!

ها هي تقف الآن تفاخر برجولتي، وتغمزني بلوعة:

- لا تنسَ فأنا أنتظرك.

كان الوقت يسيل مخاطياً، ثقيلاً، رتيباً، وأنا أعبر ذلك الخلاء، وقد حفّت بي مجموعة من الرجال المتسلحين، الذين يسيرون خلف ممشاي بصمت مهيب، بينما نبت قرع طبل ثقيل الرتم أخذ يزحف من أواخر القرية ويصلنا متقطعاً يتداخل معه تكسُّر أعواد قصب القمح المحروق ورائحة دخان مشبع تملأ المكان. كنت أسير متلفّعاً بمصنف يماني ممسكاً بخنجري في رقصة رتيبة على نقر زير كان ينقره مرزوق، ومن خلفي صار العبد سلمان، يهز أعماقي بكلمات متحفزة ويستحضر شجاعتي لكي أقف منتصباً:

- لا تخف لن أجعلك تشعر بالألم.

- . . .

- أثناء الختان فكِّرْ في أي شيء يسرقك منا.

- . . .

- فكِّرْ مثلاً بأنك تقود جيشاً وأنَّ الناس تنظر إليك وأنت في المقدمة.

كان أبي يقود كبشاً بحبل قصير ويسير غائم الملامح، واضطراب شفتيه يُهرِّب فوضى أعماقه بتمتمات لم يكن أحد مكترثاً بسماعها. كنت راغباً في التقاء أعيننا؛ راغباً في أن يساندني بنظرة معاضَدة تُذهِب الوجل الذي استكان على أرفف خاطري، ناعقاً بصوت المجازر النتنة التي تحط بأرضيتها الحداءات والغربان لنتش أو خمش لحم سُفك دمُه للتو. بادلته النظر مراراً، وفي كل مرة أجده غائباً، وشفتاه تتمتمان بحديث لم يكن أحد راغباً في الاستماع إليه. أيكون منبتُ حزنه أن يتم الختان بهذه الصورة الباهتة، أو أن تكون خشيته نابعة من يقين بأن المختون سيخذله ويتهاوى قبل أن يكمل الختّان مهمته.

لم تكن زفة الختان تتم بهذه الصورة، فقد حضرتُ احتفالات متعددة كانت تتم داخل القرية ووسط حشود من الناس ومشاركة النساء بالزغاريد والرقصات والتبريكات. أشعر بأن ختاني يحمل شيئاً غامضاً، وهذا السير الحثيث الصامت يحمل فجيعة ما تنتظرني هناك.

سرنا بمحاذاة الحقول الشامية هابطين الوادي ومنحرفين باتجاه الخوبة مارّين بمجموعة رعاة خرجوا بجِمالهم يتصيدون الأعشاب الناجية من ذلك الحريق. كان الوقت باكراً على خروج المتبضّعين من القرى المجاورة، ولا زالت الشمس متقاعسة خلف ليل هَزُلت مفاصله وتراخى مفسحاً لضوء شحيح أن يتدلّى في الأفق كثمرة خسئة، وعلى مقربة من هضبة نائمة من عهد بعيد حيكت حولها حكايات وفي كل يوم تتوالد

مفرّخة حكايات صغيرة تكبر مع الأيام وتغدو سلوة لأهل القرى، ومن أفواههم تذهب الى أقاصي الدنيا، وتعود لقريتنا بملابس جديدة.

عُرفت هذه الهضبة - في أول عهد - بأنها محبس للجن تُصفد بها في ليالي رمضان، وفي ليلة العيد تتفلّت من محبسها وتُغرق القرى بالغوايات. وكانت آخر حكايات هذه الهضبة:

أن عاشقاً جاء إليها وقد قُيِّدت يداه ورجلاه واستند ظهره إليها ينوح عشقاً حارقاً أبرى عظامه، وتركه مسهداً، فخرج له جني مُسنّ مستنكفاً أن يحبس بني البشر في مكانهم وهمَّ بخسف الأرض تحت قدميه، وقبل أن يفعل ذلك استملح أن يسمع قصته، فقال له:

- لو جعلتني أتعاطف معك، فسوف أساعدك وأوصلك بحبيبتك.

فرح العاشق بوعد الجني وروى قصته:

وُلدنا في يوم واحد، وقد تعاهد أبوانا أن يزوِّجانا حينما نكبر، فعشنا معاً، لا يقدر أحد منا على ترك صاحبه. ماتت أمّ حبيبتي، وتزوج أبوها امرأة حاقدة، كانت تصب حقدها على حبيبتي، وتفضل ابنتها عليها في كل شيء. ترسلها للمراعي، وتستخدمها في إنجاز شؤون البيت، من كنس، وطبخ، وحلب الأبقار، وجلب الماء. فتبدَّل حالها، وغاب جَمالها، وكنت كلما لقيتها، أشاحت بوجهها عني، فأصابني الهم، والكرب، ولحقتُ بها، وعندما دخلت الى البيت، رأيت عمتها تسحب من أذنيها قطنتين كانت تسدهما بهما. واقتحمت ليلاً بيت عشيقتي، فارتاعت، وعندما وجدتني بجوارها، أخذت تبكي، وتنوح، وأخبرتني بأن عمتها على اتصال بالجن، وهي راغبة في تزويجها بجني يخدمها أناء الليل والنهار.

وقد جئت إلى هنا مقيَّداً ذليلاً كي أجد النصرة من أحدكم!!

قال له الجني:

- لا أعرف جنياً وُعد بالزواج من أنسية، وسأمنحك مزماراً تغني به

في الليل، ولا يسمعه أحد إلا استجاب لغنائك، أو بكائك، أو ضحكك، وإذا سمعته عمة حبيبتك فستستجيب لطلبك حتى لو طلبتَ منها أن تنحر نفسها!!

فكان العاشق يعزف بمزماره ليلياً، فيخرج سكان القرية لسماع ذلك الغناء الحارق، ويبكون متوسلين لكي يحصل على مراده. لكن عمة عشيقته علمت بسر المزمار، فكانت تضع قطناً في آذان أهل بيتها جميعاً، فلم يؤثّر فيهم صوت المزمار. وعندما تعب العاشق من النفخ في المزمار، عاد وربط نفسه في تلك الهضبة، فخرج إليه الجني وأعانه بأن جلب له عشيقته - وكانت تدعى ليلى - وأهداهما بساطاً سحرياً يوصلهما لجزيرة المحبة. وفي المساء كان العشيقان يحلِّقان في سماء القرية ويختفيان عند نجم لامع. وغدا كل عاشق أضناه الصَّب يهبط هضبة ليلى مقيَّداً وفي المساء يتكرر ذلك المشهد حتى غدت ناحية النجم وجوهاً تطل على قرى الوادي بنور مبهر، تغوي كل الصبايا بأن يحملهن البساط السحري صوب ذلك النجم اللامع. وخشي العقلاء أن يحلّق شباب القرية في السماء، فنودي على كل العاشقين أن يبقوا في بيوتهم وعلى أهل القرية أن يوصلوا كل عشيقة لعشيقها. هذه الفعلة جعلت جن الهضبة يباتون الليل ينشدون الأغاني وينتظرون عاشقاً ضل الطريق فيمنحونه بساطاً للنجم الذي حن لهجرة العشاق.

وأُشيع في القرية أن الصبايا اللاتي لا يغمض لهن جفن، يهبط العاشق - على هيئة نجم - ويفض بكاراتهن، فغدت الصبايا يتلحفن بالنوم مبكراً خشية أن يهبط نجم الصبح ويهتك زهرة التوت.

وتقول بعض النسوة إن الجن غدوا عاشقين للنساء المليحات، فداخَلَ كل منهم عشيقته فلا تبرح ليلة حتى تنفر من زوجها وتركض صوب تلك الهضبة متعرية طالبة من عشيقها أن يتغلغل في أنوثتها لينسيها من أي الجهات أقبلت. وفي المقابل خرجت نساء الجن وسكنَّ رجال القرية...

هذا اليقين قلل من رسوخه الشيخ عبد الرحمن الشرقي الذي قدم من عمق الصحراء ليقول لأهل القرية:

- هذا شِرْك بيّن.

فظل صوته معلَّقاً من غير أن يكترث به العشاق، وفي مكابرة رعناء همَّ بتحطيم تلك الهضبة - مع أعوان جلبهم لهذا الأمر - فلم يقدر. فقد تصدَّى له شباب القرية مقسمين إن مسها فسيُردَم تحت حجارتها. وإزاء عجزه اكتفى بتذكير الناس بنار الآخرة لمن يزورها، متوعّداً بقرب اليوم الذي تتساقط فيه حجارة هضبة ليلى.

على سفح تلك الهضبة أوقف أبي مسيرتنا، واختار منطقة ممهدة ومتساوية، وأمر العبد بوضع حجارة مفلطحة، ترتفع قليلاً عن الأرض، وأشار لي بالتحرك. ولكي لا أخذله، قفزت فوق تلك المنصة مستهلاً بقصيدة، لقّنتني إياها أمي.

كان الحضور قليلاً، يسيرون خلف إشارات أبي، صانعين من حدقاتهم شَرَكاً لتتبع حركاته بارتياب وفضول زائدين، فتقدم نحوي وجذبني من يدي ولا زالت شفتاه مضطربتين تهرّبان حديثاً لم يكن أحد راغباً في الاستماع إليه. تحرك باتجاهه الشيخ إبراهيم عبده:

- العهد يا صالح!

- لقد عاهدتك، لكن دعني الآن أوفِ بنذري.

وجذبني إلى منطقة وعرة وأمرني:

- استلقِ على الأرض!

صاح العبد سلمان:

- لم أختن أحداً، وهو مستلقٍ على الأرض!

نفر فيه أبي:

- لم أطلب رأيك.

تناول شاله، وشدّ وثاق يدي خلف ظهري، وسحبني من كتفي، فغاصت أنامله بين عظامي، وألقى بي بين صخور ناتئة، فاستلقيت على جنبي الأيمن محاولاً تقليبَ جسدي على تلك الصخور التي أخذت تنهش سلسلة ضلوعي، وعيناي تتابعان النشاط الذي دبَّ في جسده. سحب موسى من كمره وثبته بين شفتيه، ورفع الكبش عالياً وألقى به على مقربة مني، وثنى إحدى رجليه الأماميتين خلف رقبته، فاضطربتْ مفاصل الكبش في محاولة للانعتاق من ذلك الوضع، وألقى بركبتيه على بطن الكبش الذي حاول النهوض من رقدته تلك. وقبل أن تطول مقاومته، ارتمى عليه أبي بركبتيه، منتزعاً خنجره المثبت في غمد حزام يتمنطق به على خاصرته، ومرَّره على نحري، وقبل أن أفيق من فزعي، كان الخنجر يجرى على رقبة الكبش الموثوق ويتغلغل قاطعاً أوردة الحياة، فشخب الدم بغزارة ولطخ وجهي، بينما كان الحضور يهلل ويبارك. لمحت وأنا ساكن في هلعي قوائم الكبش، تعلو وتهبط، ضاربة الأرض في محاولة لاسترجاع حياة سُلبت منه فجأة. أحسست بالموسى يحتّ فروة رأسي، ورأيت شعرات غرتي معلَّقة بين أصابعه وقد نهض مستبشراً بينما كان الهواء يعبر مكان جز ناصيتي بارداً فيغري أوصالي بأن تواصل موتها الأبدي، وأسبح في خيالات الموت القادم. قلَّبني على وجهي وجذب الحبل الذي يشد وثاقي منتشياً:

- قُمِ الآن علَّك تتحرر من موتك!

واتجه بحديثه للعبد سلمان:

- جاء دورك!

وقفتُ على حجارة مرتفعة هائماً عما حولي، بينما كان العبد سلمان يشد عضوي الصغير، ويواسيني بعينيه الضيقتين:

- أيها البطل تخيَّل أنك تقودنا للنصر في جيش عرمرم.

تمتمتُ:

- أتذكر ذلك الطفل الذي مات بين يديك؟

- لا تجزع، كان خطأً، ولن أسمح له بأن يتكرر.

سمعت أبي يهدر:

- ما بكما تتحدثان همساً كجاريتين طفح شبقهما؟

التفت إليه العبد سلمان مستنكفاً:

- لم أدع زوجتي في يوم من الأيام تطالبني بشيء. أقوم بمهمتي قبل أن يرفَّ خاطرها بذلك.

- لم تأت إلى هنا لتذكر لنا بطولاتك في مخدع زوجتك. أتمَّ المهمة ولتهنأْ بك زوجتُك.

شعر بالضيق، وتبادلنا النظر، فهمستُ له:

- كل ما أخشاه أن تقتصَّ من لسان أبي الطويل بقطع عضوي.

أطلق ضحكة رنّانة مردداً:

- واللّهِ إنها فكرة عظيمة.

وقبل أن أستدرك نفسي صاح بي:

- أظهِرْ رجولتك الآن.

فانتصبت قامتي - كرمح طعن الفضاء فجأة - واضعاً الجنبية على صابري، بينما كانت عيناي سابحتين في البعيد، وفمي يدلق تحذيراته بهمهمة تقترب من الفجيعة:

- أيها الأحمق لا تجعل عضوي سَداداً لما قدمه لسان أبي!!

وحين سال الدم بين أفخاذي حارّاً، متدفقاً، لمحت قوائم الكبش قد خمدت تماماً، وجريان دمي يتآخى مع دمه المتلبد بين قدمي الختّان سلمان، الذي كان يربط عضوي ربطاً مُحكَماً، ويسدد نظراته في المجتمعين مزهوّاً:

- لقد قمتُ بالمهمة على خير قيام!

وطلب من المجتمعين رؤية عضوي وهو يتحدث مزهواً:

- لا يوجد رجل بالقرية أجمعها مختوناً كهذا الختان.

كانت رقبة الكبش قد فُصلت عن جسده، وتدلّى لسانه على جانب فكه الأيسر، وعيناه منتصبتان للأعلى بينما تكوم جسده، وبقيت قائمتاه الخلفيتان مضمومتين متشنجتين بتصلُّب. ساعتها لم أكن أشعر بشيء سوى رغبة ملحّة في أن أتلمَّس رقبتي التي كنت سأفقدها للتو.

الهواء الذي عَبَرك للتوّ أخذ شيئاً منك
ليزرعه في مكان ما من هذا الكون.

كانت تخلّص الخيوط المتشابكة وهي تغزل شالاً تلاقي به البرد القادم، صافيةَ المزاج، تدندن بأهزوجة تفرشها النساء في مثل هذه الأيام، استعداداً لاستقبال موسم الأمطار. قالت بيقين صادق:

- عندما وقف الثور لحمل الأرض، كان عليه أن يكون بعيداً عن الشمس، كي لا تحرقه، وهو يقلب الأرض على قرنيه. ولكي لا ينتقل من حالة الشواء إلى محاولة إطفاء الحريق الذي سيشب في مؤخرته، جلس خلف الشمس فلا نراه.

- وماذا عن هذه الثيران الموجودة بيننا؟ لماذا لا تذهب لمعاونته؟

- هذه صور مكرَّرة منه، ولذلك تجدها تحمل متاعنا، وتحرث حقولنا.

لم يكن لديها سوى هذه الحكاية لتقنعني بأن الأرض تقف على رأس ثور، وظللتُ لوقت طويل أحفر حُفراً عميقة علّي أصل لذلك القرن. وكلما مضى الوقت، واصطدمت يداي بصخرة، أيقنت أنني سأمسك بقرن الثور حالاً. كنت أجلس في الشمس، وأحفر تلك الحفر، وعندما يصيبني الإعياء، أنتقل لداخل البيت، تاركاً تلك الحفرَ مصيدةً للعابرين من خلف بيتنا، وكانت عبدية محجوب إحدى ضحايا حُفري العديدة، فانكسر كاحلها الأيمن، فدعت أن يعمّق اللّه جراح أبي الذي لم يؤدّبني كما يليق بصبي.

أقلعتُ عن الحَفر حينما كنت أقف على البئر لملء جرار الماء. كانت البئر عميقة فكلما مددت بصري لا يصل إلى قرارها، وأيقنت أن الثور قابع هناك في ذلك العمق البعيد. وعلى غير عادة خرجت مع الغلس وقبل أن يصل الحاسي، أمسكت بالرشا وشددت الحبل على خاصرتي، وتدليت. انفرط الرشا، وبسرعة فائقة هويت عميقاً. كان صراخي يرتفع عالياً، وجسدي يهبط بسرعة مهولة. شيء ما جذبني للأعلى، وبقيت معلَّقاً أتأرجح في الفراغ. يبدو أن عقدة الرشا اشتبكت بالبكرة. كان قرار البئر بعيداً، ومظلماً، وفم البئر يكشف لي جزءاً من السماء، فأصرخ ليتردد صوتي موحشاً مكرَّراً. وكلما بدرت حركة مني، ارتطمت بجنبات البئر، وتوقعت أن تحل عقدة الرشا، وتسلمني إلى قرار لا يبين. اهتديتُ لفكرة: فرَّجت قدمي وثبتهما على خاصرتَي البئر، وأزهر فمي عن استغاثات محمومة. أظن أنني مكثت زمناً طويلاً معلَّقاً على تلك الهيئة حتى جاء الحاسي، وسمع استغاثتي فجذب الحبل رويداً رويداً وهو يوصيني بأن أُمسك بالحبل بقوة. وعندما جذبني إلى خارج البئر، كنت مصاباً برضوض متعددة. جلست والدتي تمرخها شهراً كاملاً قبل أن تسترد مفاصلي مواقعها.

***

اكتشفت هذا ذات ظهيرة.

لا أحد يحب الشمس كحبي لها. لم تكن منطقتنا باردة حتى أنتظر صعودها لكي تجلب لي الدفء. كان طلوعها يذكّرني بهواجسي التي تتشجر كل يوم، ولا أجد من سلوى سوى سردها بيني وبين نفسي قبل النوم. فمن تلك الحكاية التي روتها والدتي ذات مساء صفا فيها مزاجها واستجابت لأسئلتي المتلاحقة، كنت شغوفاً بالوقوف على آخر الدنيا، وكان الليل يُرعبني كثيراً. أتذكَّر فيه الجان والمردة؛ تلك الكائنات التي تبزغ مع الظلمة وتعيث خراباً في قريتنا. ومع بزوغ الشمس تهرب لأعماق

الأرض، وتجري هناك في سابع أرض خوفاً وهلعاً من أشعة الشمس الفاضحة لهيئتها التي يصفونها بأنها تقترب من هيئة الجنين المشوَّه الذي تلفظه الأرحام قبل أن يستوي فيخرج للكون بجلد دموي وملامح مشوَّهة تثير الفزع. كنت راغباً في معرفة طريق الشمس لجذبها، فما إن يسدل الليل رداءه حتى ألمح تلك الكائنات الممسوخة تجوب قريتنا، وتطل عليَّ بجلدها الدموي، وملمسها اللزج، فأغمض عيني، وأظل أسحب خيوط الشمس مستعجلاً لكي تحرقها قبل أن تلامسني. وغدا الليل حديقة الخوف التي أهرب منها، وينتابني جَزَع حين أتخيل الشمس تغور، وتضمحل، وتنهض مردة الأرض لتقف في كل مكان غير مكترثة بمحاولاتي لجذب خيوط الشمس. قلت لها:

- لو سرتُ الآن فمتى أصل للشمس؟!

- لن تصل ولو سرت مئة عام.

- لماذا؟

- لأن الأرض معلَّقة على قرن ثور يقف خلف الشمس، وكلما صعدت لتصل إليه هبط بك.

وروت لي كيف يتحمل ذلك الثور كل هذا الثقل، وكيف تنسكب المياه، وتتشقق الأرض، وتحلّق الطيور، وتشق النباتات الأرض. روت حكايات كثيرة، وكلما تذكرتْ حسن العجمي نفثت عن يمينها مستغفرة:

- العجمي رجل سيصيبنا بقارعة لشكه.

كانت هيئته تُدخلك في شك مما هو عليه. يسير بجسده المكتنز متلفعاً إحراماً صُبغ بالأخضر والأصفر في تمازج رديء - وقلما يُنزل هذا الإحرام عن كتفيه - وعيناه الصغيرتان الحادتان تنغرسان في الأشياء كالمسامير الصلبة. يسير غير عابئ بسخريات رجال القرية، فهو يمقت الكثيرين منهم، ويصمهم بالدواب التي لا تعرف سوى مضغ الحسوك، وإن رفعت رؤوسها فهي في حالتين: تتشمم رائحة فصيلتها أو منشغلة

بتشمم أماكن الروث والتبول. ساخط من كل شيء، ليس له من جليس سوى أبي وزوجته، ويزعم أن في مجالسة أبي فوائد وآثاماً، إلا أن فوائده تغطي على مساوئه. ويجالس زوجته رأفة بأطفال لا يُحسن تدبُّر أكلهم وشربهم. له امرأة سليطة اللسان تحرق سيرته بين جاراتها، وكلما استنكف أفعالها، وهمّ بقذفها بعيداً عن جسده، وجد ثمانية أطفال يتعلقون في جذعه، ويثقلون كاهله فيتخلص منهم بإعادة تلك المرأة، واحتساب سخطها عليه جزية، يسددها من احتماله لزوابعها وانفعالاتها. لم يُسرَّ تماماً حينما سألته عن مواقع الثور. نظر باتجاهي ملياً وهذَّب شعرات ذقنه الهاربة بمسكة من يده اليمنى:

- أنت تسأل سؤالاً يحتاج لمعرفة حركة الأنواء؟

وشعرت معه بأن رأسي يدور في السماء الشاسعة، وهو يشير باتجاهات النجوم، ذاكراً اسمَ كل نجم ومحدِّداً مخرجه، ومدخله. ولم يأنس للتفاصيل التي سردها من ذاكرته، فأجلسني بجواره، وأخرج كتباً يقرأ من كل كتاب جُملاً طويلة يستعصي عليَّ فهمها، فأمنحه اهتزازات رأسي، فيأوي إلى طمأنينته بهيام، يتصفح وجهي ملياً ويواصل سكب علم لم يشأ أحد من أهل القرية أخذه منه.

تركته وهو يثرثر عن كوكب الزهرة (ذلك الكوكب الفاتن لامرأة كانت من أجمل نساء الأرض قدمت من بلاد فارس أتت إلى هاروت وماروت شاكية، فوقع حبها في قلبيهما فراوداها فامتنعت إلا أن يعبدا ما تعبد من صنم ويشربا الخمر فرفضا. جاءتهما ليلتين وفي كل ليلة تعرض عليهما العرض نفسه، وفي الليلة الثالثة جاءت بقدح خمر فشرباه ووقعا بها فرآهما رجل فقتلاه وعبدا الصنم، فمسخ اللّه الزهرة إلى كوكب يُغري البشر بالخمر والزنى وعبادة الأصنام). قال لي:

- إذا أحسست بشبقك يرتقي سلسلة ظهرك فالعنِ الزهرة.

تركته وهو يصيح بي:

- انتظرْ، لم أُكمل لك خرافة الثور.

ظلام كثيف يعشعش في رأسي، وكلما بحثت عن إضاءة لهذه العتمة اكتشفت أنني أزداد ظلمة وحيرة. لم يكن ما وقع لي يثير قلق أحد، ولم أشأ أن أكون مضغة لهذه الألسن السائبة في الطرقات. ويبدو أن والدتي سرَّبت شيئاً من وساوسي الباحثة عن ذلك الثور الذي يدور بنا ولا تنتهي دورته، وربما جاءت نبزتي من هنا، فقد كنت أسمع كثيراً ممن حولي يطلق عليَّ لقب الثور، ربما لأنني أحمل جسداً شاذاً في الضخامة والطول. ربما كان كذلك. لكن يقيني الخاص أنني أقف خلف الشمس، أحمل هذه الأرض وأدور بها، لذلك أتواجد فيها في كل نقطة، وفي أي لحظة من الزمن.

***

مشكلتي مع جسدي أنني كنت في طفولتي أشعر بأنني أكبر منه، بينما الآخرون يرتاعون من مثل هذا الجسد ويتساءلون:

- كيف لمثل هذا الجسد أن يركب على طفل صغير؟

الآن، وبعد مضي كل هذه السنوات الطوال، أشعر بأن في داخلي طفلاً صغيراً جداً على هذا الجسد بينما الناس يستغربون من تصرفات رجل بكل هذه الضخامة يسلك مسلك الأطفال!

هذا الجسد الضخم، المثير للفزع، لا ينتمي إليَّ البتة. فأنا أشعر بأن داخله عصفوراً صغيراً يرف بجناحيه وَجِلاً، يحوم داخله قَلِقاً، يبحث عن منافذ للخروج، يشقشق أناء الليل والنهار لعلَّ أحداً يُخرجه من قفصه، ولا أحد يسمع تلك الشقشقة. هم يرون القفص ويظنون أن في داخله مارداً يجوب الكون ليفتك بمن يراه، بينما يصاب بالذعر كلما اقترب منه شخص للتحديق به.

أي عذاب أسير به؟

هذا الطود الشامخ أغفلته الشمس، ولم تكترث بقامته المنصوبة في الفضاء. فكلما بزغت، وجرت في فضائها، اخترقته اختراقاً. هذه الفجيعة تنبهت لها في إحدى الظهاري، فحينما كانت مسعدة تجلس تحت سقيفة نُصبت بين أعواد القصب تضفر جديلتيها اللتين تحففهما بالحناء، وترش ماء الورد على شعرها، فاركة فروة رأسها بزباد صنعاني، دعتني إليها متوددة:

- تعال واجلس بجواري.

ناولتني جديلتيها، داعية أن أستنشق عبيرهما:

- هل تعجبك هذه الرائحة؟

انطبعت يدها وجديلتها على صدر السقيفة، ظِلاً وحيداً. استشعرت بالرعب. لم أتنبه لما حدث، فنهضت، ودارت بي في مواقع متعددة، وفي كل مكان. كان ظلها يقف وحيداً. ضربت على صدرها جزعة:

- الآن، أجزم بأن الجن خطفوك منا.

كادت تهرب، مولية وجهها نحو القرية، تراجعت، وأمسكت بجسدي، تفحصته، وانشرح خاطرها:

- الآن فهمت إقبالك الشره.

كنت أقف مذهولاً، وهي تقف أمامي معلّقة دهشتها على كل ملامح وجهها:

- ما الذي حدث يا مسعدة؟

- ألم تتنبه لما حدث؟

- لا، ما الذي حدث.

أخذتْ تدور بي، مرة أخرى وتستحثني:

- انظرْ للأرض.

- لا أرى شيئاً.

- ألم تلاحظ أنك بلا ظل؟

من تلك الجملة، بدأ بحثي، وعذابي.

كنت أقف على كل حادثة، وأكتشف أنني إنسان قادم من عالم الأموات.

وأيقنت ذلك، وظننت أن هذه المأساة انتهت حين لمحتُها تغرس خنجراً في أحشائه، وعندما أفقت في شوارع المدينة أخذتُ أبحث عمن يساعدني في التعرف إلى حالتي.

- هل فعلاً أنا قادم من عالم الأموات.

عاد الثور يركض في ذاكرتي، بينما كانت أمي جالسة تغزل شالاً لتستقبل به برداً قادماً:

- لن تراه، فهو يقف خلف الشمس(*).

(*) روى مريضي حكايات عن عوالم متداخلة يشاهدها في واقعه. تلك المشاهد التي رواها لا تتوافق مع المنطق، وقد تحدَّث في هذا الأمر مراراً، وخشيت سرد مقولاته تلك التي لا تنسجم مع المنطق، فأجّلت بحثها لما بعد التعرف إلى واقعه عن كثب.

ربما أعود لسرد بعضها في ما بعد إذا وجدت لها ما يدعمها علمياً أو أسطورياً، أو وجدت أنها تخدم بحثي.

د. حسين مشرف

لكل وقت أذان. . . هذا الزمن الذي
نسترجعه في كل يوم من غير أن يخطئ،
والحياة تسترجعنا في أوقاتها من غير أن تخطئ أيضاً.

أنا وحماري كنا سخريةَ تلك القرية النائمة.

كان جسدي ينمو نمواً غريباً، فلم أتجاوز التاسعة حتى غدا جسداً كجسد ثور يُعلَف كل حين. كان نموه شاذاً لا يشبهه في شذوذه إلا حالة حماري المتناهية في القصر.

ومع هذا، كان هذا الجسد كجبل تصعده كلُّ الأقدام، ولا تتذكر كيف ارتقت لقمته. شيء منسيّ مُهمَل.

ثمة أشياء تخزنها الذاكرة من غير جدوى، وإذا ذُكرت تضمحل قبل أن يلتقطها أحد. هي أشبه بقطرة ماء سقطت في صحراء مجدبة من ملايين السنين، تغور وتتلاشى كأنها لم تكن، فالأحداث التي تغور في الذاكرة أشبه بحجر جُمع في خزنة نقود ذهبية. ومن يفتح تلك الخزنة فلن يشغله ذلك الحجر الصغير أمام لمعان القطع الذهبية، وسيقذف به حتماً، أو يتركه في مكانه منطفئاً، مُهمَلاً.

أحنُّ إليها، فهي الوحيدة التي تمنحني لذة الوجود؛ لذة تحطيم كل أواني التقريع التي تتطيَّر من شبح يسكن في أيام سحيقة، أو أشبه بدلو تدلى في بئر تحتفل بالغبار وأصداء البيوت الخربة.

كلما التقينا تذكّرني بصنيعها بمنّة:

- فرجي أطال عمرك يا ناقص.

حماري القصير غليظ القوائم، يقترب من الأرض، فتلامس قدماي ما يصادفهما أثناء السير، فآنس لتلكُّئه غير محاذر من مغامراته الحمقاء.

هذا الحمار كان محطَّ حديث القرية، فمنذ أن خرج للدنيا لم يبتعد عن الأرض كثيراً، وقد آل لأبي إثر قرض لم يسدَّد، فصاحبه «المشقدف» اشتهر بالدجل والشعوذة. ولأن كل أعماله فسدت قبل أن تنطلي على الناس، سئم من سخرية أهل القرية، وعلم أن بغيته لن تتحقق إلا بالعثور على الزئبق الأحمر، فباع كل ما يملك، ورهن ما لم يبع، واستدان مبالغ طائلة، وحمل صُرّة نقوده، وخرج للمدن بحثاً عن ذلك الزئبق الذي أقسم لو أنه مُلكه فسوف يملك الكون بأسره. وعندما عاد كان نفثه واهناً، وتمتماته غير قادرة على جلب جنيّ كسيح، يساعده في مهماته الصعبة التي ادّعى مقدرته على تحقيقها. ولم يمهله أهل القرية فرصة لأن يسترضي شيوخ الجن في مساعدته، وأخذ يمهل مرتاديه بقرب مبايعته من قبل شيخ الجن، فيلزمون بابه طلباً لأموالهم زاهدين في تمتماته، وتشوقه الخالص في أن يصدق معهم ولو لمرة واحدة. ولم يعد قادراً على استعادة أمواله التي أنفقها في سفرياته المتواصلة والمتباعدة لجلب الزئبق الأحمر، فتعلَّق به الدائنون. ولكي لا يسقط في بئر المطالبات ترك كل شيء وغادر القرية مشكِّكاً في نوعية الزئبق الذي جلبه. ولم يبق من سيرته إلا حكايات يتندَّر بها الناس، وهذا الحمار الشبيه بمُقعَد جُزَّت قوائمه، وظل بقية عمره يحاول رفع ظهره للأعلى، وقد استعاض عن قصره بعافية مترفة، ربما سرقها من أهالي القرية، فكلما أثخن الجوع قريتنا، تطابقت شحومه، وأفصح جسده عن سمنة غدقة. كانت سمنته مثار دهشة أهل القرية.

كل شيء ميت هنا: الحقول، والمراعي، ولحاء الأشجار، والآبار، والعيون المنطفئة، والأقدام التي تجر جثثا أصابها العطب فواصلت سيرها بأنين رتيب. كل شيء يموت إلا هذا الحمار. فكلما تطابقت كسف الجوع علينا نزَّت شحومه، وأخذ يرفل في عافية تثير الحنق، ولذلك طرأ

على بال أحمد غانم أنه يأكل جثث الموتى! ولم يكن هذا الخاطر مجرد مبالغة، بل شاع في القرية أن الحمار ابن لملك الجان سحره ساحر القرية على هيئة حمار حينما كان يجمع ويفرق، ولا زال أبوه يجذبه من سابع أرض عله يستعيده بعد ألف عام من الجذب المتواصل، ولهذا يجد أهل القرية تفسيراً لقصره المتناهي، ويزيدون أنه يخرج ليلياً ليأكل جثث الموتى ويعود من غير أن يلمحه أحد.

وكان مبعث هذه الإشاعة أحمد غانم حيث أقسم إنه لمحه في صبيحة أحد الأيام، يركض بلا شد قادماً من خلف الأحراش المتناثرة أسفل القرية. ولم يثر اهتمامه إلا حينما لمحه يحك فمه بإحدى الشجيرات، وعندما اقترب منه رأى بقايا جثة نشبت ضلوعها بين فكيه.

يحرن كلما توجهتُ صوب الحقول اليمانية، وأظل أهمزه بمهماز غليظ حاد عند نهاية فقرات رقبته أو ذنبه حتى أُدمي مؤخرته. في أحيان كثيرة يصاب بحالات غضب شديدة، يعبر عنها برفع قائمتيه الخلفيتين ناهقاً نهيقاً متواصلاً، ويقذف بي من على ظهره، ويتركني مُلقىً على قارعة الطريق كحسوك ملَّ من مضغه.

يقولون إن هذا الحمار لم يمتطه - بعد رحيل صاحبه - أحد سواي، ويعللون ذلك بأننا من طينة واحدة، وهذه تورية تكشف رؤيتهم لكينونتي. هم جازمون بأنني جني أعيش بينهم. فقد روت جدتي لأمي هذه الواقعة:

- دُعيت أمك لحضور حفل زواج في قرية المحانشة، وتركتك في حضني ومضت مع صويحباتها يتقدمهن رجل لإيصالهن للقرية المجاورة.

كانت ليلة ميتة الأنوار، فقد غارت النجوم في كبد السماء، وأطبقت الظلمة على كل جزء من البيت، وتسللت هدأة الليل مفسحة لـ «صنصنة الجدجد» كي تزهر في مسامعي. ولا أدري ما الذي حدث وأطفأ السراج، وكان من الصعوبة أن أجد كبريتاً في تلك الظلمة لإعادة إسراجه. كنت مرهقة تماماً بعد يوم من الجهد المضني أمضيته جالبة للطين الذي أحضرته

لترميم مطبخنا بعد أن اتسعت فجواته، فقد أمضيت سحابة النهار ذهاباً وإياباً للمطيينة، ولم يكن حماري يحملني ويحمل ذلك الطين الذي أثقل كاهله فانكبَّ أكثر من مرة على وجهه. ولكي أساعده على إكمال دوره مقدّرة له صنيعه بحمل الطين، تخليت عن ظهره ومددت يد العون لمساعدته بدفعه من الخلف كلما اعترضتنا ربوة، وأتقدمه في المنحدرات الزلقة لأقلل من تكبُّبه. ولم يأت المساء إلا ونحن مقذوفان في أماكننا، كل منا يبحث النومُ عنه، وقد بقيت أغالب نعاساً ثقيلاً بسبب انشغال أمك بالتزين للذهاب لعرس سميَّتها، ومطالبتها برعايتك. ومع خروجها رسبت في نوم ثقيل حيث كانت أوصالي مفكَّكة، فلم أكترث بصراخك، واكتفيت بأن مددت لك بجلد ثدييَّ، فكنت تتلمظهما وعندما لا تجد بهما قطرة لبن تعاود صراخك، وأهدهد عليك فيزداد بك النحيب، ويزداد بي التعب. أحسست بأقدام تقترب، وتشعل المصباح، تسحبك من بين ذراعي، ظننتها أمك، وبعد زمن وجدتك في حضني، وأحسست بأنفاس دافئة تطلُّ علينا، ونغمات يُصدرها صوت لملاعبتك، فتتضاحك له. تنبهت، كان الظلام دامساً، فلم أستبنْ مصدر الصوت. استعذت باللّه، وعدت لنومي، وكلما تحركت لا أجدك بجواري، فأجزم بأن أمك جاءت وحملتك إلى أريكتها. كنتُ بين يقظتي ونومي أنده عليها:

- هل حملتِ ولدك؟

فيأتي صوتها صريحاً وواضحاً:

- هو معي.

كنت أسمعك تضحك، وأصوات عديدة تتمازج مع ضحكك. فاطمأننتُ ونمتُ نوماً طويلاً.

سمعت أمك وهي تهزني بقوة:

- أين ولدي.

أفقت خدرة:

- ماذا بك؟

- ولدي، ليس بجوارك، أين هو؟

أحسست بارتباك، وصحت بها:

- ألم تأخذيه من بين ذراعيّ؟

فأطلقت صرخة، استجابت لها صديقاتها اللاتي كنَّ معها في العرس. أقبلن مستفسرات:

- ماذا بك؟

- ولدي ليس هنا.

التفت إحداهن، مستنكرة صراخ أمي ومرددة:

- انظري لولدك، إنه ينام على قعادتك.

فأقبلت عليك أمك، محوّطة، وحضنتك والدموع تهلّ من عينيها.

كنت في ملابس جديدة، ولبن دافئ يسيل من بين شفتيك، وابتسامتك تشقق وجهك.

سألتني أمك:

- من أين جئت بهذه الملابس يا أمي.

لا أعرف لماذا كذبتُ عليها، وادّعيت أنني اشتريتها صبيحة الأمس. الأكثر دهشة أن المرأة التي دلت على مكانك، أنكرت في اليوم التالي أنها استجابت لصرخات أمك. قالت إنها لم تستطع التخلص من تنميل أصاب قدميها فلم تتمكن من اللحاق بالنسوة اللاتي حضرن لمعرفة سبب انطلاق صرخات أمك مع الهزيع الأخير من الليل.

وعندما أنهت حكايتها، أخذت مني العهد ألاّ أخبر أمي بما حكته لي، وأوصتني بقراءة القرآن في كل حين، فهي تشك في أن جنية من الجن تتلبسني إلى الآن.

* * *

على مشارف الوادي تصطف الحقول بمساحات متباينة صانعةً حواجزَ

بين بعضها بمرتفعات منخفضة من الأتربة الرمادية المغبرة التي تعلق بالأنف وتثير اختناقاً كلما هجرتها الأمطار، وتتلبد حتى تغدو طيناً لزباً مع تواصُل مواسم الخصوبة. أعرف هذه الحقول حقلاً حقلاً... كنت آتيها طفلاً وصبياً وشاباً، أعرفها حين تبادل الحياةَ حبورَها، وأعرفها حين تخاصمها السحبُ وتتركها أرضاً بلقاءَ. أعرفها حين يروي اثنان رغبتهما الجامحة بين سنابلها. أعرفها أيام الحصاد حين تهيل ثمارها لتغتسل بأهازيج الصبايا، ولمحات العاشقين، وحرص الملاّك على غلاتهم في حين تبادل حرصهم أياد تخالس الحماة، وتدس في ثيابها العذوق، لتطفئ فاقة أبدية. أعرف أهلها تماماً؛ فحين أُطلُّ بحماري الأشهب ألمحهم: وجوهاً اسودت بكمدها، تقف في حقولها لتبادُل السخرية، واللمز الموارب. يقتعدون تحت عرائشهم حين يلوّن بهم المدى لوحتَه الأبدية: غروب وشروق، وألوان طافرة من هنا وهناك، تسيل بين الجهات قامات نضجت في ألمها، وأخذت تذود الاحتراق عنها بضحك مبتور، أو مواويل استعاروها من ذاكرة قديمة. عيون تزم حدقاتها، وكأنها تتحاشى أشعة شمس مسلَّطة لكنها تمعن في أخذ ذلك الضوء، وتخبئه لتستعين به في إضرام حريق كبير. وتظل اللوحة تموج بتصدعات لألوان تحسبها للوهلة رؤوس حطب أنهى احتراقه للتو.

بشر ذابلون يحلمون بشيء ما، بيد أن عناد الألوان القاتمة، يخبئهم بين الرمال، أو يستخدمهم كلبدة لتشققات لا تنتهي.

- جاء ابن الشيخ

هذه الجملة الساخرة تسبقني في طريقي فتملأ المكان فضولاً وحقداً، وتتباطأ الخطوات لتحدق في هذا المارد السائر في الطرقات، متلألئاً بسيرة كانت تظن الذاكرة أنها ميزة.

قامات متباينة، منهَكة، تخبُّ في تشعبات الوادي، حاملة فؤوسَها وأحلامَها المضعضعة غير مكترثة بتلك الأسمال البالية المرفرفة على

الصدور، أو السيقان، أو معرية البطون. أسمال تمزقت من أماكن متعددة، وبعضها تخلى عن أزراره، أو غدت شقوقاً انفتق رتقها ولم يعد بالإمكان خياطة أفواهها الواسعة، تغوص أقدامهم في بطحاء ناعمة بأحذية مشطورة صُنعت بسعف دوم يابس. يحتجبون من الشمس الحارقة بمظلات خزفية، تآكلت وضمرت عرواتها، ونساء تفطرت الحاجة على وجوههن ولم يحتزمن بشي من أنوثتهن، تركن ابتسامات ناضجات على شفاههن علها تغري الحماة باستئجارهن للحصاد.

في هذا الجو الهالك يأتي فتى، يحف به الخدم، رافعين على هامته عدة مظلات ملونة ممتطياً حماراً غليظ القوائم وافر السمنة، ومدلياً قدميه الطريتين، يقضم حلوى عُجنت بالزبيب، واللوز، وفركت بالسمن الخالص. ينعتونه بنعوت متعددة أدناها البله وأرفعها الدلال. كل تلك الأحاديث المحبوكة لا يسمعها. حين يكون بينهم لا يخطر بباله أنهم ينعتونه بالبَلَه، فدائماً تطري أذنيه كلماتُ الإطراء التي تجعله سيداً ابن سيد، ويكفي أن تتحرك يده لينكب الخدم على إنجاز ما يرغب، وما لا يرغب.

صدمته جملتها، كانت منهمكة بحصد تولات القطن، وعيناه تنهشان مؤخرتها. تنبهت للكزْ رفيقتها:

- سيفرغ على نفسه لو استمر على هذه الحال.

استدارت نحوه، فأبانت كَفْلا مرتوياً فواراً:

- هذا الأبله يستمني على حمارته... دعكِ منه.

رفع الخدم أصواتهم لتغطية صوتها، بينما توتره بلغ حداً جعله يسأل عنها. فهي الوحيدة التى تعرف كيف تسوسه برغم رخاوته التي تبين كلما جالس أنداده.

سأسأ بالحمار وصاح منكسراً:

- أين مسعدة؟

حينما وضعوا جرساً في عنق الدابة
كان ذلك لإشعارها دوماً بأنها لا تزال حية!
وكل المعتقدات التي نعلقها تُنسينا الحيوات الأخرى.

مع الظهيرة، وفي السوق الكبير، دبت حركة الباعة، والمتسولين، والمتسكعين، والمتسوقين، مستفتحين يوماً من أيامهم المكرَّرة، وأفاقت جلبة المواشي برغاء الأغنام، وخوار الأبقار، وهديل الحمام، وحنين الإبل، وتداخلت مع أصوات الباعة، وتحريجهم على سلعهم المتعددة، والمتنوعة، وبقي صوت المناديات من النساء على ألبانهن هادئاً لطيفاً. هرج مديد، وحكايات تُنثر في كل زوايا السوق: مداولات، ومساومات، وضحكات، وعيون هاربة في وجوه البائعات القادمات من الجبال، وقامات انتصبت عند مدخل السوق انتظاراً لمقدم بائعي القات، وأقدام تدب في تعرجات السوق عارضة بيعَ سلع زهيدة، وبائعو المياه يحملون جرارهم ساكبين ماءً فاتراً للعطشى. حركة دائبة.

وقفت الشمس على رأس السوق، فتهيأ الباعة لنصب مظلاتهم التي تقيهم أشعة الشمس المتعامدة، سمعوا صوتاً حارقاً ينادي:

- قامت الثورة.

كان صاحب الصوت يسير صائحاً منتظراً أن يُحدث صوته أثراً داخل تلك العيون المبحلقة به، لكنها ظلت تحدق فيه من غير أن تتحرك. ومع تكرار مناداته بالخبر، اقترب منه أحد المتسكعين وسأله بلهفه:

- هل يطلبنا العامل؟

اشتاط صاحب الصوت غضباً:

- أقول لكم قامت الثورة فتقول يطلبنا العامل.

هذا الاحتداد جعل بعضاً من الباعة والمتسولين يتداخلون، متسائلين عن فحوى الخبر:

- وما هي الثورة؟!

رد صاحب الصوت بضيق:

- الثورة ثورة.

- لم نفهم.

- صالح التركي يقول لقد خلعوا الملك سعود، وهذا يعني ثورة.

- مثلما خلعوا البدر.

- نعم مثلما خلعوا البدر.

- يعني أصبحنا جمهورية.

- نعم، نحن الآن جمهورية.

- ومن الذي قام بالثورة؟

- لا علم لي. اسألوا صالح التركي، فهو الذي أخبرنا.

كان هناك صوت يحاول تهدئة الانفعال الذي طرأ على المتجمهرين:

- هذا الكلام صعب، وأظن أن ناقل الخبر لم يفهم فحواه جيداً.

نهره صاحب الصوت:

- أوَتظنني أخرق لا أفهم. لقد خرج علينا صالح التركي، وقال: لقد خلعوا الملك سعود، ونادى على عبده معتوق وأوصاه بأن يجمع له شيوخ القبائل.

صاح أحد المتسكعين:

- الثورة تعني الحرية... وأخْذَ أموال الأغنياء كما يقول اليُمَنى!!

وصاح محرّضاً المتجمهرين:

- استردوا أموالكم من هؤلاء اللصوص.

وخطف شالاً من دكان حسن مغربي وتبعه المتسكعون والمتسوقون والمتسولون متدافعين صوب السلع المعروضة، وتخاطَفوا ما تصل إليه أيديهم، وتحول السوق الى نهب بينما وقف أصحاب المتاجر يصرخون ويستغيثون بحرقة، وصاح المغربي:

- لعن اللّه الجمهورية إذا كانت تعني سرقة أموالنا.

كان يردد مقولته تلك، والناهبون يعرّون دكانه من كل محتوياته. ترك العسكري موسى ومساعده بضاعتهما، وانطلقا لملاحقة الناهبين، وقبل أن تبتعد خطواتهما بعيداً كانت بضاعتهما نهباً لتلك الأيدي التي تخطف ما تصل إليه.

فعاد العسكري موسى راكضاً لبضاعته:

- واللّهِ لَتدخلون السجن فلا تعرفون الليل من النهار.

فرد عليه عيسى زلابيا:

- ما دامت الثورة قد قامت فسوف أحبسك وأجعلك تمسح أستك من غير أن تجد مكاناً لقضاء حاجتك.

وتجاذبا بالأيدي، وكل منهما يحاول زج صاحبه بالسجن!!

إننا نمنح أنفسنا لذة التفوق، لكننا ننسى
أننا كائنات تدمِّر الغد لتصل إلى الماضي!

هي خمسة أيام خرجت فيها القرية بغير هدىً.

اليوم الثاني

عرفناه هكذا صاحبَ خوارق، وليس له سمة الصالحين.

في كل يوم له حكاية، وإن ظهر بشوشاً ودوداً بين أهالي القرية، إلا أن سمعته ترتدي سمة الأفّاقين. نبتت على خطوات ترحاله المتعاقبة سمعة نتنة، علقت على ألسنة الرجال، ولم يستطع أي منهم التأفف منها علانية، وبقيت النساء يقللن من نتانتها حين يتذكرنَ وسامته التي تسلب لب جاراته اللاتي يواجهنه متزلفات بضحكة مرتقية تضاريس وجهه الدقيق. ومع هذا التزلف المتودد، لم يكن تواقاً لجلب تلك العيون في عقد صفقات تبادلية لسرقة لحظات غزل مشتتة، هو رجل نافذ، مغرم بإنهاء مهامه في عجلة، وإن بَعُدَ الأمر فلا بأس من التزود بقليل من لمسات خاطفة تبين زهده من المراوغات طويلة الأمد. وتُرجع بعض النساء هذا التأفف لسفرياته التي جاب فيها بلاد الله، ورأى من النساء ما لم يره رجال هذه القرية.

لم يكن هذا الحديث مكشوفاً بهذا العري، وإنما مقولات تحتفظ بها الأفئدة، وتُسكَب في مجالس النساء كما كانت تُدلَق مياه القهوة في فناجين ذات أفواه واسعة، مبديات امتعاضاً من زوجته ذات الجمال المتواضع، ماضيات في البحث والاستقصاء عن سبب وجيه لهيامه بها، وتفضيله إياها على ابنة يوسف أمين التي اعترضت طريقه، وصارحته برغبتها بالاقتران

به. وبسبب هذه الفعلة ظلت بقية حياتها تلاعب أخيلة رجال، وهم يركضون على أرضها البكر من غير أن يقطع مداها أي منهم حتى بلغ بها الشوق لو أن عبداً يغرس بيرقه في أي ناحية من أوديتها الجافة.

كل فعل يقوم به ويجرح خاطر الرجال، يكون له منافذ سرية، تقتفيها النساء لإخراجه من غضب تلك المقولات. لم يكن محتاجاً لتعاطفهن معه، فقد كان يُقْدم على أفعاله من غير أن ينتظر مَن يمهد له طريق عودة حُسن الظن في مخيلة أولئك الرجال، فقد بلغ تبرمه منهم حداً جعله ينعت أهالي القرية بالنعاج التي يزداد ثغاؤها في مواسم الإخصاب، ولم يستطع أحد من مشايخ القرى أن يقبض عليه متلبسا بلفظة مهينة، تقلل من قاماتهم المتعالية بكبريائها فظل شأنه محيّراً، وباعثاً لأخذ الحيطة من نعته بما يكره كي لا يندفع لسانه بما لا يحبون.

كان أشبه بخيط الحرير: ناعماً، وجارحاً. تظن أنه سهل القطع، فإذا به يخاتلك، ويندس بين راحتيك، ويتغلغل في لحمك الطري، تاركاً حرقة طفيفة، ودماً ينز ببطء. هو هكذا تواق للحركة، تواق لكل ما هو مثير، ولا يخشى أبداً خواتم أفعاله التي تتصف أحياناً بالرعونة، وأحياناً بالطيش، وأحيانا بالشجاعة الخرقاء.

اعتزل الكثيرين من أهل القرية، واصطفى مجموعة قليلة، ميقناً أنهم هم الذين سيعمدون إلى رفعه فوق أعناق تلك القامات التي تحطُّ من قدره، وتصمه بالأعجمي كلما اقترب من أحلامه. في سفرياته المتعددة كان يبحث عن كتاب يؤصّل به نَسَبه، ويعيده إلى أي فرع عربي. وقد توسَّم في الشيخ شعبان الحريقي أن يعيد جَذْره التركي إلى العرب من خلال بحثه في أنساب العرب المهاجرة إلى بلاد النهرين، وهضبة الأناضول. وتقرَّبَ إليه بالهدايا، ومنحه الألقاب المشرّفة مجتمعة، ومتفرقة، كان كلما التقاه يسأله:.

- ألم تقرأ عن قبيلة أبي علي المهاجرة إلى بلاد الأناضول قبل ما

يقرب من مئتين وتسعين عاماً.

هذا السؤال الأبدي يوقفه دائماً عن مواصلة الحديث مع الشيخ شعبان، ويعجز عن الرد كلما سأله عن أصول تلك القبيلة، وإلى أي بطن من بطون العرب تعود.

أقلع عن سؤاله، وحاول تزوير وثيقة استنسخها في إحدى رحلاته، ومهرها بأختام متعددة نصَّت على أن قبيلة أبي علي خرجت لمساندة الأتراك في الذود عن حياض المسلمين قبل ما يقرب من مئتي عام. ولبلائهم حصل جده الثالث أو الخامس على لقب الباشوية من السلطان عبد الحميد الأول والتصق به هذا المسمَّى الذي كان مفخرة لأجداده ونقمة عليه.

كانت حسرته عظيمة، فكلما تنادوا بشيخ يخلف شيخاً، أيقن أن دوره اقترب، فيتقدم الصفوف للمبايعة. وقبل أن يمد يده للمبايعين، تخضر لفظتان على لسان الناس:

- من ذا الذي يمنح مبايعته لرجل تركي سليل باشوات.

عندما أحضر وثيقته المزوَّرة عرضها على أهل القرية واحداً واحداً، ساعياً لإثبات أصالة محتدة، ومتقوِّلاً إنه ينحدر من أسرة عربية حاكمة، عادت إلى شبه الجزيرة العربية من خلال قيادة جده لحملة تأديبية جاءت لتأديب حركة انفصالية مناوئة، ومع النزوح المتكرر ابتعد عن بؤرة النفوذ وسقط منه ذلك الشرف. دار بتلك الوثيقة، ولم يجد أحداً من أهل القرية قادراً على قراءتها؛ فقد كُتبت بخط لم يتعودوا على قراءته، وبعضهم شكك في الشهود وفي مَن مهروا تلك الوثيقة. وعندما يئس منهم اعتزلهم ومكث بداره مرحباً بزائريه ممن آمن بمقدرتهم على معاونته للوصول لما يريد.

في إحدى سفرياته جلب معه جهاز راديو، ومكث أثناء الليل والنهار، يدير مفتاحه متنقلاً بين أصوات من مشرق الأرض ومغربها. وكان كبار

أهل القرية يعجبون من معرفته بكل هذا الكمّ من الأخبار التي لا يسمعون بها إلا من القوافل القاطعة للفيافي والقفار ويقسمون إنهم سمعوا هذه الأخبار من صالح باشا التركي قبل شهور من سماعهم بها عن طريق القوافل القادمة. وشككوا بأن له اتصالاً بالجن. هذه الشائعة جعلته يحظى بتقدير الكثيرين خشيةَ أن يُفلِت مردته على خصومه، فهادنه الكبار والصغار، وطلبت مودته النساء اللاتي يشتكين من مس داخل أجسادهن، مدعيات أن ليس هناك من حل سوى أن تجلس الواحدة منهن أمامه ليمرخ جسدها نافثاً عزائمه في مكامنها العميقة. وأكثرهن ادعينَ أن المردة لا يخرجون بيسر، فيعدن إلى أبي عارضات ما عزف عنه عله يمكّنهن من رعدة تسري في تلك الأجساد النضرة.

في ضحى أحد الأيام وقفت القرية كلها على رأسه وهو يصيح:

- خلعوا الملك سعود... خلعوا الملك سعود!

فاستجاب لصراخه شخص عُرف بالعُته فأوصل النبأ محرَّفاً للسوق وجهات أخرى:

- السلال خلع الملك سعود.

ارتفع صوت غالب حسين:

- لا شك في أن جمال عبد الناصر هو من فعل هذه الفعلة!

وانطلق صاحب العته راكضاً صوب السوق صائحاً:

- قامت الثورة، السلال خلع الملك سعود!

لم تجد صيحات صالح التركي لبيان ما التبس عليهم، فاشتعلت كلمة «الثورة» على الألسن، ولم يعد هناك شخص يصغي إليه، فلعن القرية وأهلها، وانقلب إلى داره ساخطاً من ردة فعلهم.

ظن الجميع أن ثورة حدثت فكثر السلب والنهب وتخاطف الناس بضائع التجار المخزَّنة داخل تلك الدكاكين المغلقة بأقفالها الغليظة التي جلبها أصحابها من موانئ جدة وعدن ومصوع.

وكاد هذا الظن يرسخ في أذهان القرية حين اجتمع مشايخ الوادي لاختيار مجموعة لمبايعة السلال.

هذه الفعلة جعلت صالح التركي يضحك عليهم ويسفّه عقلاءهم. وعندما كادوا يبطشون به قال لهم:

- واللّهِ لو سمع بكم أحد تقولون هذا لتمَّ تعليقكم من عراقيبكم.

وقبل أن يُترك صراخه يذهب في الفضاء تابع:

- لو أن لديكم عقولاً لاستمعتم للإذاعة وعرفتمْ مَنْ الملك الجديد.

- ومن قال لك إن لدينا إذاعة نسمع من خلالها ما تسمع.

- ألم تقل خلعوا سعوداً كما خلعوا البدر.

- قلت خلعوا ولم أقل ثاروا عليه، وفرق كبير بين الأمرين.

- ماذا حدث بالضبط؟

- لو تركتموني لأخبرتكم من الملك الجديد.

قال الشيخ شعبان:

- يعني لم تقم ثورة.

- لا، كل ما في الأمر استبدلوا ملكاً بملك.

تنبّهوا لفداحة ما فعلوه وتسابقوا:

- من الملك الجديد؟

- لقد أصبح فيصل ملكاً.

- ألم تقولوا إن السلال قام بالثورة.

- أين تعيش أنت؟ السلال قام بالثورة في اليمن وليس في الرياض، ومنذ وقت مبكر.

- يعني ألم يصل السلال إلى الرياض؟

- اسكتْ قبحك الله!

- ألم يقولوا إن الحرب انتهت؟

قال أحمد غانم:

- لم أعد أميّز ما تتحدثون به.

رد عليه الشيخ يحيى عبد الله وهو لا زال ممتطياً بغلته:

- هذا الملعون يلعب بنا!

خيّم وجوم بين الحضور، وتناسل بعض المشايخ قبل افتضاح أمرهم، وقال شيخ بني هادي، وهو يغادر صوب قريته:

- من يَنْسَقْ خلف هذا الوغد فعاقبته البحث عن رأسه بين القمائم.

***

وجدوه يقف على رؤوسهم كالليل، يسف الكلمات بيسر وسهولة؛ كلمات حارقة تشعل تلك القلوب هلعاً:

- عليكم أن تصلحوا خطأكم.

- وأي خطأ هذا الذي يجب إصلاحه؟

- ألم تعقدوا العزم على مبايعة السلال.

- جهلنا وعرفنا الحق.

- معرفة الحق تستوجب الارتهان لتصحيح الخطأ.

- ماذا تريد أن تفعل بنا يا صالح؟

- أريد أن أجنّبكم غضب ولاة الأمر!

- لم نُغضب أحداً. أنت الناقل وأنت المصحح.

- تخرجون عليهم وتقولون لم نُغضب أحداً.

- مَن خرج على مَن. نحن هنا لا نعرف شيئاً عما يحدث خلف هذا الوادي.

- اقتراف الخطأ بعلم أو من غير علم، يستوجب التصحيح.

- وماذا تريد الآن؟

- أن نجمع التبرعات، ونذهب للرياض لمبايعة الملك.

- ومَن سيخرج للمبايعة؟

- الآن نجمع التبرعات، وفي ما بعد نختار من يخرج.

وإزاء الهلع الرابض في صدورهم لم يجدوا مناصاً مما هم فيه سوى الإصغاء والانقياد.

***

اختلف شيوخ الوادي حول من يقوم بجباية أموال التبرعات. وبعد مشاورات مضنية توصلوا لاختيار شيخ قرية بني عمر للقيام بهذه المهمة، مزكّينه لورعه، وزهده، وطهارة يديه.

تسلل الخبر لصالح التركي، فشد راحلته، ووصل إلى شيخ بني عمر ليلاً، فتوجس منه خيفة، واستشعر صالح توجسه، فعمّق ذلك الشعور، مدّعياً معرفته بأمور تغيب عن إدراك شيخ بني عمر:

- ما لك يا شيخ محمد وهذا الطريق الوعر؟!

- لم أختره، وإنما شرَّفني به بقية شيوخ الوادي.

- أنا أحبك لله، وفي الله، وعندما علمت بما أجمع عليه شيوخ الوادي خشيت عليك، فجئتك في الحال لأبيّن لك مغبة الانسياق في هذا الطريق.

- خشيت عليَّ من ماذا؟

قال جملته ببرود شديد، وهو يقلّب فنجان القهوة بين يديه وينظر لجلسة صالح غير المستقرة.

- أوَتعلم لو أنك قمت بما اجتمعوا عليه في أن تكون جابياً لتبرعات لغدوت محل غضب ولاة الأمر.

- كيف أكون محل غضبهم؟

- ألم تسأل نفسك سؤالاً بسيطاً: لماذا لم يقم بها الشيخ يحيى عبد اللّه، وهو شيخ شمل؟ فلو كان القيام بها تقرُّباً لولاة الأمر لوجدت أن

هناك رؤوساً كثيرة سوف تتطاول بل وتحارب للقيام بهذه المهمة.

- ولكنهم اختاروني من مجموعة شيوخ، كان كل واحد منهم على الاستعداد للقيام بها.

- حدث هذا ظاهرياً. هل حضرت تجمعهم؟ هم كانوا يريدون شخصاً يعلّقون به التهمة، وكان سهلاً أن يختاروا رجلاً مثلك محباً للعون وفعل الخير.

- لم تُفهمني، كيف سأكون محل غضب ولاة الأمر.

- سيفهمون، وربما يُوصِل هذا الفهمَ الخاطئ أحدٌ من الشيوخ الذين يناصبونك العداء، يوصل لولاة الأمر أنك أنت الذي حرَّض الناس وألقى في بالهم إشاعة الجمهورية. ساعتها لن تجد كلمة تُسعفك من غضبهم.

امتقع وجه شيخ بني عمر بالاضطراب، وارتج عليه الحال، وأمسك بصالح مستعيناً:

- وما الحل؟

- الحل أن تتنصَّل مما عهدوا به إليك، وتترك المهمة لي. فأنا قادر على سياسة مثل هذا الأمر.

قفز شيخ بني عمر بسؤال ظنه مدبباً سيثقب صدر صالح التركي:

- وأنت حين تقوم بالمهمة ألن تُغضب ولاة الأمر؟

تبسم صالح التركي، وصمت للحظات:

- نعم سأكون في محل الغضب، ولكنني لديَّ عذر سيقبلونه. سأقول إنني كنت أستمع للأخبار من مذياعي واختلط عليَّ الأمر.

انبسطت أعضاء الشيخ على الأريكة التي يقتعدها، وفتح كوة صغيرة للحظة استنكار تنفذ من تلك الملامح العابسة:

- ليتهم يعرفون ما تقوم به من أجلهم، فهم دائماً يُلبسونك ظنونهم.

ارتاح صالح التركي لهذا الاستنكار مردداً:

- أنا أعمل من أجل جماعتي، وأهل الوادي، من غير أن أنتظر منهم جزاءً ولا شكوراً.

- ولكنك ستعرِّض نفسك للنقمة وربما التنكيل.

- يا شيخنا . . .

انشرح وجه الشيخ محمد لكلمة يا شيخنا واستغفر علناً:

- أنت يا صالح تُحرجني بفضلك، واللّه إنك تصلح لأن تكون شيخنا جميعا!!

تمادى صالح في إصباغ النعوت الفخمة وأكمل حديثه:

- أنا أعلم أنني سأكون محل سَخَط ولاة الأمر بجمع التبرعات، ولكن لا يخفى عليك - يا شيخ - أنني لست بشيخ متوَّج ولن يتم نزع منصب أو مشيخة مني إذا أغضبهم فعلي. كما أن لي هناك أصدقاء كثيرين سيشرحون مقصدي ويدفعون عني بعض الغضب. أما أنت أو أي شيخ آخر فسيكون فعلكم محل الريبة.

مع الغلس، كان شيخ بني عمر يجوب قرى الوادي، مقنعاً بقيةَ الشيوخ بأهلية صالح التركي لمثل هذه المهام. وكلما اعترض شيخ نفر فيه صائحاً:

- لا يعرف أحد كيف يتصرف داخل المدينة. نحن هنا مطاعون، أما هناك فلا أحد يعرفنا.

وافق الشيوخ على الاقتراح بمضض، وأرسل كل واحد منهم تبرعاته، وتبرعات قبيلته.

* * *

انشغل صالح التركي بجمع التبرعات. وفي تجواله كان يجد من يمد له بالدجاج او الأغنام أو بصاع من حب او شعير. في بادئ الأمر استأجر عبدين وثلاثة جمال لحمل التبرعات، وعندما طاف بعاشر بيت اكتشف أنه

يحتاج إلى دواب وعدد مضاعف من العبيد لحمل تلك التبرعات العينية، ووجد في تبرع الشيخ شعبان ما يعينه على حمل تلك الحمولة، فقد جاء يقود عبداً ويقول لصالح:

- عسى أن يكون في هذا العبد ما يكفّر عما حدث. بعه واحتسب ثمنه تبرعاً مني.

كان عبداً معوقاً فقد السيطرة على يده اليسرى في إحدى المهمات التي كلفه بها سيده. فحين كان الفلاحون منهمكين بجمع محاصيل القمح انشغل برتق أحد الأكياس المبثوثة لاهياً عما يمكن أن يحدثه بعض المؤجرين لملء القمح داخل الأكياس وتهريبها واقتسام ثمنها. كان سيده في دورة تفقدية ولمح اختلاس كيس من القمح الرازقي فلم يتمالك غضبه وألقى بلجام بغلته على يد عبده، ومن يومها وهي معلقة على كتفه كحذاء لا يُلبَس. حين وقف ذلك العبد أمام صالح التركي قال:

- لا يغرك العطب الذي أحمله.

وشد يده اليابسة من على كتفه:

- ستجدني خيراً مما ترى فلا تَبِعْني.

شعر حياله بالتعاطف، وأدخله إلى داره. ومن يومها وهذا العبد يعيش عيشة مختلفة تقترب كثيراً من حياة الأصدقاء. وكلما شعر أبي بالضيق أجلسه أمامه وسرد على مسامعه كل المنغصات التي تعتريه من أهل القرية، وفي أحيان يردد على مسامعه:

- هذه القرية كُتب عليها العذاب يا معتوق، وأخال نفسي لست بعيداً عنهم.

* * *

جمع أبي كل من لا يستحق الخروج للخروج!

كان هذا الاختيار محل غضب شيوخ القبائل، فقد أوفد الشيخ علي

ابن أحمد مرسولاً إليه يعنّفه على اختيار أولئك الذين لا يصلحون لأن يكونوا أهلاً للإصلاح بين زوجين، وقد وجد أبي فرصة لتعنيف المرسول وشيخه ومضى المرسول يحمل كمّاً مهولاً من الانتقادات التي لو سمعها الشيخ لما تورَّع عن بقر بطن أبي. ولم ينتظر أحداً يعكر ما عزم عليه فتحرك بقافلته المكونة من اثني عشر رجلاً وأربعة جمال: اثنين منها محمَّلان بالبخور، والسمسم، والعسل، وأجود أنواع السمن، وعدة أرطال من الحلويات الشعبية. وبقي جملان لحمل أنواع الحبوب والسيوف وعدة أرطال من الفضة اشتغلها الصاغة بدقة وإتقان، كل هذه الهدايا ادّعى أنه سيتركها في قصر البيعة بعد أن كتب على الحِملين «هدية من قرية أبي ميسم».

وقد اعترض القافلة الشيخ محسن العوالي صائحاً:

– فضحتنا يا صالح، اللّه يفضحك.

– ما الذي دهاك يا شيخ محسن.

– يقولون إنك كتبت على الهدايا «هدية من قرية أبي ميسم».

– وأين الفضيحة في هذا؟

– الفضيحة أننا نحاول نسيان هذه النبزة، وأنت تُذكِّر القاصي والداني بها. كما أن الدولة لا تعرف قرية في ناحيتنا بهذا الاسم، أنسيت أنها نبزة؟

– أنت لا تعرف غرضي من ذلك، فدعني أمضِ قبل أن نتأخر عن الوفود.

– تتأخر عن ماذا؟ لقد مضى شهر أو يزيد على المبايعة، وأنت تحتاج إلى شهر آخر للسفر، دعنا نغيّرْ هذه الفضيحة.

– لو شطبنا على المكتوب سيظنون أننا بدّلنا هدية قرية أخرى بالشطب على ظروفها وإحلال اسم قريتنا، فهل تتحمل هذه التهمة؟

– إذاً نغيّر الظروف.

- أقول لك كل الهدايا كتبنا عليها «هدية من قرية أبي ميسم»: على السيوف، الخناجر، ومصوغات الفضة والذهب، وتغييرها يحتاج لأشهر، فهل تتحمل ما يحدث؟

- لا. . . لا، اذهب لعنك اللّه في كل كتاب!

خبت القافلة في طريقها، وودعها خلق كثيرون، ولم يكن أحد منهم يتوقع أن يعود خمسة ممن ذهبوا قبل أن يصل المودّعون الى بيوتهم، فقد عاد خمسة أشخاص محتجين على فظاظة أبي، وجلسوا يصفون مزاجه العكر الذي لا يقبل به أرذل الناس.

كان الجميع ينتظر عودة القافلة مفتخرين بصنيعهم، مؤملين أنَ فعلتهم ستجعل الدولة تقدِّر موقفهم، وربما أعلنوا اسم قريتهم المبايِعة على السمع والطاعة في الإذاعة كما أخبرهم صالح. وكان بعض رجال القرية واثقين من هذا، فقد ترك لهم صالح مذياعه، وأوصاهم بالاستماع إلى الأخبار ليسمعوا اسم قريتهم يتردد على مسامع الملايين.

وقد تمنى الشيخ يحيى بن عبد اللّه شيخ شمل قرى الوادي، لو أنه صاحَب صالح في رحلته، وكان يُظهر ندمه مردداً:

- لولا مرضٌ ألَمَّ بي لكانت قدماي تخطوان الآن مجاورتين خطوات صالح.

وخفف من حسرته وعدُ صالح بأن يذكره ذكراً حسناً عند المسؤولين. وقد أوصاه منفرداً بجملة لا زال يذكرها بينه وبين نفسه:

- صالح، عندما تصل لا تنسَ ذكري.

فأبدى صالح استنكاراً لهذا القول مردداً:

- سأقول ما أنا إلا رسول شيخ شمل قرى الوادي.

فصاح به منفعلاً:

- لا، إياك أن تقول ذلك. أتريد أن أكون محل غضبهم. لقد أفهمني

شيخ بني عمر تضحيتك. أريد منك فقط أن تذكرني بالخير هناك.

- سألهج بذكرك يا شيخ.

- واللّه إنك تحمل دماء عربية خالصة، وأشهد بذلك أمام الجميع!!

وفي أحد الصباحات أهلَّ أبي حاملاً خطاباً مزركشاً، وألقى على مسامع القرية ما به من كلمات شكر وثناء لتلك الهدايا السَّنِية، وظل يجالس أهل القرية لأسبوع وهو يحكي لهم وقوفه على باب الملك حتى قبل منه الهدية. وحاك قصة اتهم فيها رفاقه بالتلاعب بالهدايا ومحاولة استلابها وتسييرها للصنعاء، وادّعى أنه استطاع الهرب في آخر لحظة ونجا بواسطة جماعة أعانوه على خصومه. وأقسم إنه أوصل هدايا القرية كاملة غير منقوصة.

فتكاثر المهنئون على رأسه، بينما كان يتقبل ثناءهم بصلف مبالغَ فيه. وبعد سنتين اكتشف عبده إبراهيم أن أبي تاجَر في تلك الهدية ولم يصل إلى الرياض البتة.

ولا يعرف أحد ما الذي حدث لبقية أفراد القافلة. وبعد سنين طويلة عاد أحدهم معنِّفاً أبي على خسَّته وروى أنه: قادهم إلى سجن جازان وهناك قام بفعلته الدنيئة حيث اتهم أفراد القافلة بالتواطؤ مع القوات اليمنية، فحُبسوا لعدة أيام بعدها تم ترحيلهم للرياض.

وقبل أن يفور عليه المشايخ، كان قد امتطى ظهر بغلته وغادر القرية في سفرة طويلة. وعندما جاء كان يحمل معه هدايا أنستهم فعلته النكراء. وبقي معتوق عبده المطيع الذي يأنس إليه حين تنزل به كسف الغم الثقيلة.

الأحلامُ أغانٍ لم نتمكّن
من إخراجها للوجود، وفي كل مكابدة
لفعل ذلك، تزداد لوعة وشجناً.

تختلس النظر من خلف رديمة الفل. تبدو عيناها مغمضتين تسيلان نعاساً لا ينضب. جديلتاها ترتميان على صدرها النافر كحبال تدلت من جبل شاهق أضناها الترحال قبل أن تصل إلى واد سحيق. بشرتها القرنفلية ترشحت بالحنّاء ورائحة المسك.

كانت تخالس شبحين انتصبا بفناء الدار يتحدثان بصوت مرتفع:

- الليلة سيقام العرس.

- سمعت أن العريس لم يعد.

- أحقاً لم يعد؟

- نعم سمعت أنه لم يعد بعد.

- أين ذهب؟

- منذ يومين لم يظهر فقد ذهب لسوق خولة لشراء الأرائك واختفى.

فاق بصدرها خوف ضامر:

- آه... ماذا يحدث لو لم يعد!!

تخرج حاملة سلالَ الخبز متصنعة ألماً بقدمها اليمنى، تعرج بتوعك. من خلف الشبحين بانت أمها، وهي تُصلح غطاء رأسها بعجلة، نهرتها بغلظة:

- الرجال يرغبون في النساء الصحيحات. عليك أن تتخلصي من عرجتك قبل الدخلة. ولو استمررتِ على هذا التوعك، فسيكون منظرك مضحكاً، فصويحباتك وعرات المزاج، وربما ينعتنك بما لا تشتهين.

كانت ليلة فاصلة، تقترب من البرد نافضة نهاراً متقلِّب الأهواء. هناك جلس الخوف في صدرها، محاطة بصويحباتها اللاتي يجدلن لها ضفائرها، ويخللن بأناملهن الطِّيب بين خصلات شعرها المسترسل بينما اسودَّ الخضاب في راحتيها بنمنمات تشبه طرق النمل. كان البيت مكتظاً بالنساء، كل واحدة منهن منشغلة بتجهيز شيء مما يجعل العرس وسماً لا يبرح من ذاكرة ليالي القرية، بينما كان خاطر بغيض يحلق في مخيلة أم العروس فلا تستكين. ففي كل لحظة تطل على زوجها، وتناديه من بين الرجال، فيلبي نداءها مكرَهاً ويسير إليها على مضض:

- ماذا بك يا حرمة؟

- ألم يأتِ بعد؟

- لا، والخير لك أن تجهّزي ابنتك وتتركي هذا السؤال.

كانت الزغاريد تتنافر من أفواه النساء، ومن خلفها أقاويل منخفضة تسأل عن العريس الذي خرج ولم يعد.

الوقت يهرب من نفسه ويقترب من ليل توعَّده أهل القرية بإقامة عرس لم يمر بذاكرة قرى الوادي منذ زمن بعيد. وكلما تزحزح قرص الشمس صوب المغيب تفتَّت قلبها وأحاطتها جيوش الخوف من كل مكان. . . تعرفه تماماً غيرَ آبه بشيء. إذا ذهب لمكان لم يعد، وإذا استقر في مكان لا يغادره. تصفه وصفاً لا يحبذه:

- أنت كالحجر الصوان أينما يُقذَف بك تغور في مكانك ولا تبرحه.

تمنَّته من بين فتيان القرية، وانتظرت ممشاه. اعترضته وهي بكامل زينتها. كانت تسمع طَرْق نعله وهو يسير خلفها، وعندما عرف مقرها

كفاها مشقة التعرض له في الطرقات وتسمَّر أمام بيتها مصاحباً أخاها. وسرعان ما تحول الأمر إلى هيام متبادل انتهى بتقدمه لخطبتها، ودفع لها مهراً: ثلاث بقرات سمان وجملاً واحداً ودبلولاً وثلاث بناجر صبيغت في عدن. وغالى في مهرها حتى غدا مضرب مثل، ومُستَقَراً لضغينة وانتقاد شباب القرية المقبلين على الزواج، حيث بدت كل حماة تطالب لابنتها بمهر مشابه. كان يتبعها وهي تدلف على صويحباتها من الجيران ويقذف في طريقها ورد الكلمات:

- أنا لا أقدر على الصبر.

فما باله الليلة يغيب عن حرقة الشوق التي أودعها في ضفائرها؟

جاءها في النزع الأخير من الليل، وقد ضمر الفرح في صدرها ونهض حريق من حولها، تتقلب في مخدعها كحية أضناها الجوع. تبقَّى عدد قليل من النساء حول خِدْرها. تسلل إليها، جذبها من مرقدها ووكزها وأفرغ رغبة سنين طويلة من الخصوبة احتفظ بها لمثل هذه الليلة. وجرى الماء ونهض قبل أن تكمل عتبها. حمل بندقيته وترك لها مالاً قليلاً وخرج ولم يعد.

تقوَّل الناس عليها، وغدت مضغة في أفواه النساء والرجال، وعندما تكوَّر بطنها زاد اليقين بأن زوجها لم يكن ليتركها على المنصة لو لم يعلم أنها زهرة شمتها أنوف رجال آخرين.

كانت تتلقى طعنات الألسن، وتصبُّ غضبها عليه. وعندما تهدأ ترقُّ له، وتستحضره في مخيلتها وتسقيه عتابها الحار:

- لماذا فعلت كل هذا يا حبيبي؟

***

لا زالت ذكريات والدتي تهل من رأسي:

- أكره الحرب.

وتصمت بمقدار يمكّنها من ابتلاع عبرتها المتحشرجة بين جدران حنجرتها اليابسة:

- لا أعرف التواريخ التي يتحدثون عنها، لكنني قبل زواجي بأيام كنا نسمع أن اليهود احتلوا بيت المقدس. كان جزعنا كبيراً، وتنادى الرجال للخروج وتراجعوا جميعاً حين علموا أن المسافة بيننا وبينهم بعيدة وأن حميرنا لن تقوى على عبور الأودية والجبال والبحار التي تفصلنا عنهم، كما أن بنادقهم مضى عليها وقت طويل وهي نائمة في بيوتها، وإن خرجت ثرثرت بعدة طلقات في مواسم الأفراح. وبعض تلك البنادق تيبست مفاصلها ولم يعد الكاز الذي يمرَّر بين تلك الأوصال الحديدية قادراً على إيقاد همتها، فركن معظمهم للدعاء ورفع أياديهم بعد كل صلاة متضرعين للّه بأن ينصر المسلمين في كل بقاع الأرض.

كان المكان غائماً، فأهل القرية يعرفون الاتجاهات فقط ولا يعرفون الأمكنة. يسمعون عن بلدان مات فيها الإسلام، وبلدان وُلدت بأسماء جديدة وملوك جدد، وحكايات لأشخاص صنعوا بطولات هنا وهناك، وتصلنا صور لتلك الشخصيات ونتسابق في تسمية أبنائنا بهم، نسمي: سعود، ومحمد الخامس، وبن بله، وجمال، والحسين، والسلال. أسماء كثيرة تردنا ولا نعرفها إلا من خلال مذياع أبيك أو بعض التجار الذين يجلبون تلك الصور، ويقايضون بها الحبوب، والسمسم، والقطن، ونضعها في صدر مجالسنا. وحين ارتفع اسم الملك حسين عالياً، أصر عبده إبراهيم على أن يهديه حصانه الوحيد فبعث به عبر مرسول أنفق عليه أموال دكانه الذي يدرُّ اليسير من المال. وقد نفق الحصان في الطريق، وعاد المرسول يطالبه بالحسوك الذي قدمه لذلك الخيل، ونشأت بينهما عداوة تأصَّلت في مجلس القاضي حسين محمد، ولم تنته إلا بموت المرسول أثناء إحدى دفعات الوادي.

هذه الشخصيات استعاض بها الرواة عن سرد تلك القصص التي كنا

نسمعها عن عنترة بن شداد، وسيف بن ذي يزن، والمهلهل، وغدونا نسمع ملاحم عن تلك البطولات من غير أن يصلنا خبرها.

أثناء الهرج والمرج هذين، كنت أستعد لزفافي. وفي تلك الليلة غاب أبوك، تركني كعذق لم يكتمل جزه وبقي معلَّقاً كرأس ذبيحة لا يربط بين رأسها وجسدها سوى جِلدة ظل الرأس متمسكاً بها يقاوم البتر.

أكره كل تلك الأسماء، وأكره الوقائع التي بدَّلت قريتنا، وارتجفت لها سكينتنا. كنا نعيش في دعة لا يشغلنا سوى سخط العواصف الرملية التي تهب علينا وتغطينا، أو هجران مواسم الأمطار لحقولنا، وتحسُّب مقدمها الغاضب. نتزاوج ونتكاثر ونحبك الأغاني في كل مناسباتنا. كان للحياة طعم لذيذ. كل يوم لنا حلم صغير، يتسع فيغطي هذه الأرض الرحبة. تدور بنا الفرحة فتغمر كل أوردتنا، ونغدو طيوراً لا تؤوب إلى أوكارها. وعندما انطلقت أول رصاصة كنا نجاور خوفنا، ونتلفت في كل حين من سيغيب هذه المرة؟

كانت البداية مع ثورة السلال وتشريد جمال لنا. وحين بردت تلك الحرب، أخذنا نستعد لاستعادة حياتنا المسروقة. لكن الحياة أصابها العطب، وتبدلت الأحوال.

لقد قتلني أبوك في ليلة عرسي. أنت لا تعرف مقدار الفجيعة التي كوَّمها ووضعها في حجري في تلك الليلة. كان يبحث عن بطولات، وكنت أبحث عن حبيب، وشتان بين الحالتين.

حرقة طاغية نفذت عبر مسامات جلدي؛ ذلك الجلد الذي حرصت على دهنه بأفخر أنواع الدهون بعد أن أجليته بالحناء، وأزلت الزغب المعترض في ثنايا أعطافي. كنت راغبة في أن أقدم له جسداً خالياً من كدر الأرض، أن أمنحه تلك الفتنة كاملة. فالمرأة تعبر طفولتها وهي تحمل جسداً تعرف تماماً أنه سيكون مهجعاً لرجل ما، سيثير فيه زوابع

الكون، ويهرِّبه عبر ركض طويل إلى لحظة غيبوبة دافئة، وتعلم أنها فراش رطيب عليها أن تحافظ على طراوتها كي تظل بساطاً سحرياً يقلُّ راكبه إلى فردوس الأحلام. اعتنيتُ بكل التفاصيل الصغيرة، فتمخضتُ عن غصن يحمل كل وروده؛ لتُقطف دفعة واحدة. ترك كلَّ هذا، وحمل بندقية صدئة، وأخذ يعدو في الصحاري لملاقاة الموت. أي حماقة نتبادلها: أُهيئ له نفسي ويُهيئ لي قبري. تلك الليلة لن أنساها ما حييت. أحبه نعم، ولكنه كسر أنوثتي، وذلَّ عنفواني بما لا يليق بحبيب أن يبادل حبيبه.

في تلك الليلة، كانت النساء يحدقن في عروس ليس لها عريس. يضحكن في سرهن من فتاة بلهاء تنتظر جواداً ركض عنها بعيداً ليصهل ويبدد مياهه في البراري. وتقوّلن عن عفتي. وقبل أن يجف ضوء القمر جاء أبوك متسللاً، وقطف بكارتي من غير أن يعلم به أحد، وحمل بندقيته الصدئة تاركاً عروسه تمضغ حسراتها فوق فراش لم تجف من رغبته الفوارة العجلة. وعندما استدار بطني اشتعلت ألسنة القرية، وتأكد لهم أن أباك لم يتركني إلا لمعرفته بأنني أرض حُرِثَتْ من قبل.

عاد بعد ثلاث سنوات ليعيد لي اعتباري، عاد ليرمم جداراً هدمه بضربة معول واحدة، وتركه قائماً يحاول استرجاع حجارته المتساقطة؛ ضربة فجرت سدته، وأبقته سخرية للناظرين. عندما عاد كنت كحقل عفَّت منه المناجل، تنبت به سنابل القمح، وتشيخ، وتنبت معها حشائش طفيلية فيغدو وعر المسالك كفخاخ نُصبت للعصافير المهاجرة. كان الفرح يابساً كقصبة أثمرت واختالت بعذقها وحين لم يُقطف تناقمته الطيور ويبس في مكانه. لم يكن هناك ما يشي بأنني أحيا سوى غصن ظلَّ يذكّرني بتلك الليلة التي جرى فيها ماؤه في جوفي، فتعلقتَ في أحشائي كما تتعلق حكاية غريبة في ذاكرة طفل يظل يتذكرها بملامح غائمة. كنتَ أنتَ ثمرة تلك الليلة العجلة.

أحمد له أنه لم يتزوج عليَّ. يظل في غربته يخزِّن رغبته، وعندما يأتي يتدفق في أوصالي كمياه انحبست في وادٍ ضيق، وحين وجدتْ منفذاً تدفقت بقوة وغزارة. تدفقه هذا يُنسيني كل هجرانه، وأظل متشبثة به. عندما رآني أحتضنك لثم ثغرك على عجل قائلاً:

- أحْسِني تربيته ليكون أحد الرجال الذين يدخلون القدس!

وفي ليلة انكفائك على نفسك لإفراغ قوتك في الهواء، تَطَلَّعَ في وجهك وضرب جبهته:

- مثل هذا لن يكون مكانه سوى مطاردة أعجاز النساء المهمَلات.

منذ تلك الليلة التي فجّر فيها حصوني الصلدة، دأب على عادته القذرة حيث يأتيني في الليل، ويسرق متعته كتيس هائم، ويتركني أبحث عن رائحته الملتصقة بشرشف نومي.

يتحول إلى كائن متجهم وجاف. كلما تبادل شؤون القرية مع عليّة القوم، يعود عابساً كحذاء ملَّته الأقدام فقُذف به جانباً. ولطالما عاد من مجالس رجال القرية شاتماً لاعناً تلك العقولَ التي يصمها ببيض الثعابين التي كلما عبرها الزمن فقصت عن حيات لا تعرف سوى الزحف واللدغ. لم أكن أعرف بالتحديد كيف أخرج به من مزاجه العكر. وفي إحدى المرات حلَّت علينا ضيفة من إحدى قريباتي اللاتي يسكنَّ على رأس الوادي، وخشيت أن تُراع من سحنته المتغضنة، وكلماته النارية، فانتبذت بها مكاناً قصياً، ألاطفها وأسدد لها دَيناً من البشاشة والترحيب لقاء موقفها معي حين حتّت ألسنة نساء القرية عفتي. لم يرق له أن أبتعد بضيفتي عنه، فاقترب منصتاً لحديثنا. وعندما خشي أن تعتقله عين ضيفتي حيّاها بصوت فاتر:

- كيف حال إسماعيل؟

- بخير، وإن كان يتنعم بجَرَب جَمله الذي أهداه هذا الداء حتى لم

أعد أراه إلا بين الأشجار يحك ظهره فيدميه لأظل طوال اليوم أطبّب جراحه المبثوثة.

وكعيار ناري انطلق ضاحكاً مقبّحاً ردَّها ومتفكهاً بإضافة نكات عن أصحاب داء الجَرَب. وكانت تعينه على استخراج الطرف التي أودعها في مخزنه عن مرضى الجرب ومن هم على شاكلتهم، فاستملح مجالستها، وأخذ يصف لها أنواع الأدوية للاستطباب من حكة الجرب، وأوصاها بالشوب وكي الجلد الميت لإفساد نمو الحبيبات على الجلد. وعلى غير عادة قفز بالحديث عن رجالات القرية واصفاً إياهم بالخسة، فرمقته من طرف حدقتيها معقّبة:

- الحر لا يكون عبداً. حتى وإن جارت عليه الظروف يأنف من فعل العبيد.

- لم أفهم ما ترمين إليه؟

- اعتزلهم، فهم إن رأوك نائياً عنهم بحثوا عنك!

كانت عيناه تركضان في الفراغ بينما أذناه تُسيخان السمع متلذذتين، فأحسستُ بأن حديث ضيفتي خفَّف من أساه، فنهض كمن عثر على بغيته، وأوصاها بأن تهتم بإسماعيل قبل أن يضمحل من كثرة الحك. وغادرنا ضاحكاً.

في الليل أسرج بغلته، وحمل بندقيته، وخرج من غير أن يودّعني.

وظللت أتشمم مرقده حتى عاد بعد سنة ونصف حاملاً خبراً جديداً... وحكايات جديدة.

* * *

طبعه غريب. يريد منك أن تفهمه من إشاراته، وإذا لم توفَّق في ذلك فأنت بليد كبهيمة لا تصلح إلا لحَمْل الأمتعة. وإذا قلت له سمعت وفهمت ثار وناول جسدك ضربة بأقرب ماعون يجاوره. حدث ذلك عندما سمع أن إسرائيل اجتاحت مصر في عز النهار، هز رأسه مراراً وبصق.

وهذه فعلته دائماً عندما يصل به القنوط مداه، يكثر بصاقه وتمتماته، وكلما تذكر تشكيل الجيش العربي الذي خرج لإخراج إسرائيل، فتفتَّت في شجار من يحمل لواء العرب كملك عليهم. ومن تلك المعركة التي عاد فيها مع الجيش المنهزم، كثر بصاقه على الزعماء العرب. وعندما يتذكر أن إسرائيل سحقت مطاراً عربياً بينما كانت الإذاعات العربية تتغنى بالانتصارات الوهمية، كان يهمس همساً:

- العرب لا يجيدون إلا طعن بعضهم بعضاً.

بعد هذه الجملة يتلفت كثيراً، وعندما لا يلمح أحداً سوانا يصرخ:

- هل سمعتما ما قلت؟

فنهز رأسينا إيجاباً، فيتناول مشمته ويقذف بها في اتجاهنا:

- إياكما أن أسمع ما وسوستُ به على لسان أحد.

بعد ذلك علمتني أمي ألاّ أُخرج كلمة رنت في فضاء بيتنا حتى وإن قُطعت.

لا زال يحمل وساماً حصل عليه في حرب فلسطين، يفاخر به بين الناس، ولكنني رأيته مراراً يضعه أسفل قدمه، ويفركه باصقاً عليه، ويحمله مرة أخرى موصياً أمي بأن تجليه بماء الحديد، ويضعه على صدره حينما يكون متجهاً إلى مناسبة كبيرة أو مسافراً صوب الحجاز.

مرة واحدة روى لي عن جهاده، وكيف رحل من جازان لتلبية الواجب تاركاً زوجتَه على المنصة، وهناك اكتشف مهزلة ما يحدث. بعدها قال لي:

- أنتَ من عروق تركية رفعت لواء الإسلام طويلاً ولم تُقهَر.

وهمهم:

- نعم مئات السنوات ونحن نذود عن المسلمين هذا الضعف.

وشببت ميقناً من ذلك، لولا أن أبي في مفاخرة جانبية وقعت بينه

وبين خطيب المسجد عبد الرحمن الشرقي عكّرت هذا اليقين. جاء عبد الرحمن الشرقي لتطهير القرية من الانحراف العقدي كما كان يزعم، وإبطال كثير من العادات التي كنا نمارسها، واتهم من يزور هضبة ليلى بالكفر والإلحاد، وأوشك أن يُبطل الاحتفال بالمولد النبوي، فنهض أبي في وجهه:

- كل شيء حرام، وماذا تبقّى حلالاً يا شيخ؟

- الحرام بيّن والحلال بينّ، فلا تقفْ في وجه الإصلاح، فانحراف العقيدة يجلب مفسدة عظيمة.

- أي مفسدة أكثر مما نحن فيه. فمنذ أن حللتَ بيننا والقوارع تهلُّ علينا كالمطر.

- هذا من أفعال العباد.

- ومن أفعال العباد تحريم ما أحل اللّه من غير بيّنة أو عقل.

- قلت لك إن الحرام بيّن والحلال بيّن. ألا تفهم هذا؟

- ولِمَ لا تكمل وبينهما متشابهات، هذه المتشابهات نختلف فيها.

- أنت رجل منحرف العقيدة؟

- أنا منحرف العقيدة يا ضلالي. لقد خرجتُ للجهاد من غير أن أفكر بنفسي، بينما أنت هنا تتهم كل راكع بالانحراف.

وشتمه شتيمة مقذعة، كبرت في نفوس مريديه، وأدخلوا أبي في زمرة الضالين. وتوالت الاتهامات على أبي، فقد قيل إنه رجل تركي لا يعرف معنى الإسلام، وإن أُسرته جاءت لمحاربة الدين في حرب شعواء دمروا فيه الدرعية كي لا ينطلق نور الهداية. كان التاريخ غائباً عن الناس فلم يعرفوا سوى هذا الاتهام وأن الأتراك سلموا الخلافة الإسلامية إلى النصارى، وأنهم كانوا يحكمون بغير ما شرع اللّه. وآخر ما وصل لأبي أن عبد الرحمن الشرقي تحدث في مجلسه أن أخطر شيء على الإسلام

الذين يدّعون أنهم مسلمون وما هم بمسلمين كالصوفية والشيعة، ناعتاً إياهم بأنهم أخطر من اليهود والنصارى على الإسلام، وقال لهم إن صالح التركي رجل زيدي المذهب، وهذا خطر لا بدَّ من أن نتخلص منه.

أحس أبي بعدها بأن وجوده في المسجد لم يكن مرغوباً فيه، فكان يصلّي منفرداً ليؤكد الشيخ عبد الرحمن الشرقي مقولته:

- ألم أقل لكم إنه زيدي.

الشكُّ طريقٌ غير معبَّد
نحو عالم يبدو لنا مجهولاً... موحشاً،
ولكنه صورة أخرى لما ندّعيه حقيقة.

ابن الشيخ نعتٌ ساخرٌ.

توهَّم أنه أكثر أهمية من كل شيوخ قرى الوادي، ولا زال يغذي هذا الوهم في مخيلته. يومياً ينسج حكاية في إهدار عظمته بين حفنة من الرعاة اللاهين أو الزرّاع الذين تتشقق أقدامهم تحت أشواك شابة، وتأكل العثة أبدانهم فيتمزقون في الحقول وينتهون هناك كأشرعة لريح بالية. يشبّههم بالجِمال التي تدور على المعصرة مغمضة الأعين، تدور وتدور من أجل لترين من الزيت الحار، وفي المساء تفتح العصابة عن عيونهم فينامون واقفين ولا يجدون من ذلك الزيت قطرة تقلل من آلام الجرب الذي ينهش أوصالهم.

بدأ وهمه بكذبة، وتطور حتى أصبح خطراً يهدد حياته... لكنه كان ماضياً صوبَ حتفه من غير أن يغمض له جفن.

يعترض على كل شيء. يسنُّ لسانه بمبرد السلاطة ويبردها بجلود شيوخ الوادي. يُلصق بهم كل نقيصة، ولا يتورع عن قذف أيمان غموس تصديقاً لمقولاته، ربما لخلق بذرة يقين بأعماقه المستريبة بأن مثل هذا الفعل يمكّن من الاقتراب من حلم نأى بجانبه، واستعصى على المجيء.

هذه المناطحة الدائمة أكسبته صلابة المصارعين العتاة، وتفيأ تحت

صوته المرتفع القرويون المتخمون بالضيم؛ ضيم السادة، وضيم الحياة الشحيحة بمواردها، وضيم كان هو الذي ينمّيه في أعماق أولئك القرويين الباحثين عن جنة صنعها بلسانه.

التف حوله أعداد كبيرة من رجالات القرى المحيطة بقريتنا، وكان ينفق عليهم بسعة، وكلما زاد عددهم فاض بداخله ماء السيادة وجزم بدنو حلمه البعيد.

هذا الالتفاف مكّنه من الادعاء أن المصلحين لا يقف معهم سوى ضعاف القوم والمضطَهَدين في الأرض، فنبتت في رأسه شجرة كبيرة وافرة الأغصان يطلق عليها المشيخة. ولم يكن يروي شجرته بماء شحيح فتصفرّ قبل الأوان، بل كان يُغدق على نفسه كل الأمنيات التي تجول في مخيلته من غير أن يحتسب. فنبذ فكرة أن يغدو شيخاً لقرية بائسة. واستطالت فروع شجرته، وامتدت، وتسامقت رغبته لأن يصبح شيخ شمل. وفي غفلة من نفسه يداهمه حلم بأن يغدو أكبر من حدوده القصوى إلى شيء تطير له الرقاب، وتُسفح له الدماء الغزيرة، فيطمئن لخاطره ويسدل الحجب منتظراً حلماً داهمه في ليلة أَرَقٍ ولم يجزع لتأخره الذي طال، ونأى خلف الأيام العصية، فجلس يبحث عن الأدنى قبل صعود سلم المجد مكتفياً بما تضج به مخيلته من توافد القاصي والداني طالبين رضاه ووده، وفي أحيان كثيرة يجلس مهيّئاً في رأسه ساحة لمعركة لا تُبقي و لا تذر، فكثرت سفراته لتحقيق ذلك الحلم.

أُولى سفراته كانت مفاجئة للجميع، ولم يكن أحد ليتوقع أن يترك رجل عروسه فوق المنصة ولا يأتي. وبعد هذه الفعلة لم يكن يسأل عنه أحد إلا جاء الجواب من أقرب لسان:

- مسافر!

وقد تكوّر بطن أمي وظللتُ أطعنه بأطرافي تسعة أشهر من غير أن يلمح ذلك التكوُّر. وبعد أن أصبح عمري ثلاثة أعوام أطلَّ علينا بينما

كانت الحرائق تأكل سيرة أمي لهذا الوليد الذي أطل على الدنيا في شك وغمز من نساء القرية:

- التقى بها مرة واحدة، فهل يُعقل أن تكون أرضها خصبة لهذا الحد!

ترك له أبوه ثروة أفناها في المفاخرة واستجلاب قلوب أعيان القرى المجاورة، ولم يتحقق له ما أراد وقد تبقّى له مال يسير.

كان يعرف أن عوزه لن يُبلغه مبتغاه، وأن حقوله الثلاثة - المتبقية من ثروة هائلة(*) - تدرُّ عليه أموالاً يسيرة نمضغها قبل أن يأتي موسم الحصاد التالي، فضاق ذرعاً بنا، وتمنى لو أننا نموت دفعة واحدة.

وقف يوم الشوطة صارخاً بأمي:

- لا أعرف سر تمسكك بالحياة، فقد مضى أناس كثيرون، وبقيتِ أنتِ وولدك مستعصيَين على الموت! (ربما شعوره بأننا غدونا ثِقْلين نؤخّر خطوته، جعله يُقْدِم على تحريض أمي على قذفي بالقرب من الحيوانات النافقة إبان المرض الذي اجتاح قريتنا ولم يُبقِ إلا نفوساً أرهقها التخوف من حريق يصيبها قبل أن تمضي لحفرة صغيرة).

زاد يقينه رسوخا بأنه أهلٌ لأن يكون شيخ شمل بعد عودته من حرب فلسطين. كان أحد المجاهدين العائدين بوسام نحاسي بعدما تركوا أرضاً حطَّ عليها الذباب، وكان يخبئ حسرته عميقاً لكنه يفاخر بذلك الوسام مفاخرة من قُتل وهو يحمل راية خفاقة، وظل ذلك الوسام تاجه الذي لا

(*) أظن أن مريضي حدثني سابقاً أن أباه لم تكن له أرض بالقرية، وحين نبهته بملاحظتي هذه سخر مني قائلاً:
- كان أبي يمتلك الدنيا كلها، ولا يمتلك شيئاً في الوقت نفسه، فهو يبدد أي ثروة كما يبدد بَوْله تماماً.

الدكتور حسين مشرف

ينازعه في مجده أحد في هذه الناحية.

* * *

نادراً ما يصفو مزاجه. وحين تغرب الهموم عن باله يتحدث كالسيل المتدفق، جالباً كل ما حمله في طريقه الطويل. أمسكني - بعد الختان - وترقرقت عيناه، وجحد دمعه مدعياً أن شيئاً دقيقاً علق بجفنيه، وروى لي قصة عن جدي غلَّفها بأحلامه المنكسرة:

- وجدت نفسي كالغصن الأخضر النافر من شجرة يابسة، هذا التوحُّد جلب لي الشقاء. كم تمنيت لو أن لي أخوة أو أعماماً نجوب هذه الأرض حُلْماً وعنفواناً. لو كان هناك سواعد تحمي ظهري لكنت انطلقت في كل الأرجاء أحمل بيارق هذا الحلم وأغرسها في كل مكان.

آه، ثم آه! الخسران المبين لمن يكون وحيداً في قوم يتجمعون كخلايا النمل ويقرضونك واقفاً. لو نفذ أخي قبل أن تلفظ أمي أنفاسها لربما استطعت ان أقف متوازناً... تلك الصورة البشعة لا زالت تقف في مخيلتي. كانت في أواخر أيامها تسير متقاعسة وألم المخاض يهددها في كل حين، وكان أبي يتهيأ لأن تزف له العجوز حليمة بشارة المولود الثاني، وثمة فرحة غامرة تجتاح كيانه: سيكون أول رجل في سلالته يكسر قاعدة البطن الواحد والغصن الواحد. حين مرضت ظن الجميع أن المخاض يقف على عنق رحمها وإن كانت جدتي تحتضن ابنتها متحسرة:

- لم يحن بعد موعد ولادتها، وأجزم أن ابنتي أصيبت بعين لم تذكر اللّه.

وصدقت في تنبئها، فقد فارقت الحياة قبل أن تضع مولودها... وكان الأمر عصيباً على أبي. فقد تلقّى الخبر الصاعق كسيف جز هامته وأظهر جزعه ولوثته بصراخ متواصل، وعاب عليه الرجال ذلك التهافت ووصمه بعضهم بالرخاوة، وتسامح بعضهم مع جزعه وإن كان مغلّفاً بسخرية مُرة:

- الأتراك لا يتورعون عن البكاء كالنساء. ففي الحقيقة من يحكم البيت هو المرأة لا الرجل.

كان أبي مشغولاً عنهم بكارثته، وعندما شرعت النساء في غسلها اكتشفوا أن بطنها ينبض بوليدها الذي لا يزال حياً، واحتاروا كيف يخرجونه. كان قرار أبي أن يُشق بطنها ويخرج ابنه الذي انتظره فهاج عليه أخوالي وسفّهوا رأيه. اقتربت جدتي لأمي وتناولت عصاً غليظة وأخذت تضرب ذلك البطن المتكور حتى خمد النبض الذي تغلّف داخل ذلك التكور... في الليلة الثانية قبضوا على أبي بعد أن نبش قبرها وشق بطنها وأخرج مولوداً مكتملاً بلا روح... كان آخر عهده بالرشد فقد أمضى بقية حياته يهدد النساء الحاملات ببقر بطونهن، ولم يجد أهل القرية خيراً من حبسه تاركين لسانه يطلق التهديدات ببقر بطون حوامل القرية.

***

على مشارف مدينة جازان دبت الحماسة في أوصال حماري المتهالك، فقد لاح له ماء البحر من بُعد فنشط وتمددت في عروقه الحيوية ونهق مراراً وهو يعدو عَدْوَ الكلاب.

من هناك تظهر مدينة جازان تستسلم لخِدْرها والبحر يؤرجح بيوتها الواقفة على الشط بينما أشرعة قواربه تخفق كقلب رنا لعشيقة طال بها الهجر فتغنى بموال جارح تناثرت لوعته وفضحته عيون الصَّبّ.

رجال تحدروا داخل الملاّحة يجمعون كومات الملح في أكياس خشنة وظلت أجسادهم مربضاً للشمس تتعرق داخلهم فيسيحون رطوبتها بدندنة شجية تناغمت مع حركاتهم المتسارعة.

كنت قد عزمت على المتاجرة، وكان الخيار أن أمتهن العطارة. والعطارة كالتحطيب، أي شيء تجده عليك أن تضعه في خرجك. هذه المهنة أحببتها حين جالستُ «المشقدف» الذي قال لي:

- لو تعرفتَ إلى خبايا العطارة فستقود العالم!

كنت أسخر منه في كل حين، ولكنني كنت في أعماقي ميقناً من صدق قوله. وعندما خرج بحثاً عن الزئبق الأحمر كنت أنتظر أن يعود به لأقتله وأستولي عليه. وعندما عاد حسيراً لم أحصل منه إلا على حماره الذي تركه رهناً عندي مقابل أن أُقرضه بعض المال.

في آخر ليلة له في القرية قال لي:

- لن أعود مرة ثانية إلا وأنا ممسك برقابكم.

وخرج ولم يعد، وظل وعيده يسري في جوانحي. وبعد زمن خرجتُ أبحث عمن يمكّنني من مسك رقاب هذه الجموع الغبية.

في إحدى سفراتي خرجت باحثاً عن ذلك الزئبق الأحمر، وهناك وجدت الشَّرَك.

في مدينة جدة كان قابعاً في صندقة عتيقة، يُمضي أيامه نافخاً دخاناً كثيفاً من لي شيشة عدنية تهالكت وتآكلت قامتها بصدأ كثيف.

كنا ثلاثة، تشاركت خطواتنا إلى فلسطين، سقط ثالثنا شهيداً، بعد أن انسكب دمه بين ذراعينا. لم نتمكن من دفنه، فقد كان الرصاص منهمراً كمطر حبلت به سحابة منذ ألف عام. تركناه في النزع الأخير، وتراكضنا للمخابئ، وهناك سمعنا بوقف إطلاق النار، كان عمر يصيح:

- لماذا تم إيقاف النار؟ لماذا نحن نوقفها والعدو يحصدنا كجرذان هاربة؟

لم نجد جواباً، وكان علينا أن نعود لبلادنا. فقد انتهى دورنا بأن رفعنا جعجعتنا، وسلّمنا الأرض بعضَ لحمنا.

في تلك العودة تمنى عمر أن يكون رئيساً كي يأمر بمواصلة الجهاد. فمازحته:

- لا، أنت لا تصلح لأن تكون رئيساً، أنا الذي أصلح لهذا الدور، وستكون وزيري.

هذه الأمنية قابلها أحد الجنود الأردنيين بضحكة طويلة، ولوّح لنا بيده حينما غادرنا المعسكر:

- لا تنسَ أيها الرئيس - أنت ووزيرك - أن تعودا في المعركة القادمة!

نحمل ذاكرة واحدة لذلك السقوط، ومرارة واحدة لتلك الخيبة، وقنوطاً مما يمكن أن يحدث. وانشطرنا في الحياة، فقد استكان لهذا الدخان يلاعب به هواجسه، وركضت في مناكب الأرض باحثاً عن دور أكبر. كنت - وما زلت - ألمح نفسي قائداً تلتهب الأكف لتلويحته، ويتناقل العالم خُطَبي المحرِّضة للجماهير على السير المتواصل وألاّ تقف إلا في ساحة المسجد الأقصى.

قلت له:

- يا وزيري، لا تسرُّني حالك.

يبدو أنه تذكَّر ضحكة العسكري الأردني، فحاول إعادتها كما رآها، وعاد لحالته من غير أن يزيد.

كان قانطاً من كل شيء. تبقَّى له حلم واحد أن يموت وهو ممسك بلي شيشته. دنوت من جلسته:

- عمر، بماذا تفكر؟

- ...

- ألا زلت تحلم بأن تغدو قائداً.

كان جامداً كصنم أُقيم للسخرية من هيئته المبتذلة، وتحديقه المشتَّت.

همست في أذنه:

- كيف يمكن أن أحصل على الزئبق الأحمر؟

انتفض ضاحكاً حتى استلقى على مؤخرته، فراعني تهيُّجه، ومواصلته

للضحك حتى دمعت عيناه.

- أنا لا أمزح، هل يمكنك أن تساعدني للحصول على هذا الزئبق.

قطم ضحكته بكلمات صخرية لا زال الضحك بها ندياً:

- أوَتريد أن تصبح ساحراً؟

اعتراني الخجل، وقفت متلجلجاً:

- أريد أن أصبح شيئاً آخر، شيئاً يكفي أن تتحرك سبابته لتتراكض مئات الأقدام تلبية لرغبته.

- هذا أمر يحتاج لأن تضع رقبتك على يديك.

- ولم أخرج إلا وأنا أضع كفني في خرج حماري.

- تحتاج إلى أعوان كثر، وأموال طائلة.

- الأموال يمكن جلبها بطرق مختلفة، أما العون فأنت سندي.

- أنا لم أعد أكترث بشيء.

- ساعدْني أولاً للوصول إلى الزئبق الأحمر.

- دع هذه الخرافات، وإن كان لك حلم فاكتبه على الأرض!

وافقته بهز رأسي، والقبض على كتفيه:

- هل تعدني بالمساعدة؟

- إذا كانت هناك مغامرة كبيرة تذهب بهذا الملل فلن أتردد.

أسررت له بعضاً من هواجسي. ضحك في البدء لكنه استدرك بعد أن لمعت عيناه:

- سأكون معك، حدِّد الوقت والزمان وستجدني أمامك.

تعاهدنا، وأوصلني إلى موقف جازان. وعندما صعدت السيارة، مسك بيدي مبتسماً هامساً في أذني:

- ألا زلت راغباً في العثور على الزئبق الأحمر؟

بادلته الابتسام وتواعدنا، ومضيتُ لأكتب أحلامي على الأرض.

الحريصُ لا يترك في مخبئه
كلمة واحدة تدينه.
والحياة تترك في مخبئها ملايين الأسرار التي
تنبئ بأنها مخاتلة وتسير بعكس حقيقتها.

ليالي القرى باردة وعمياء، تتوالد فيها الرغبات والأحلام النائية توالُدَ الذباب، تفقس في عجلة وتحلق في فضاء صغير. تحط على الخشوم والقاذورات علّها تُشبع نهمها، لكن عمرها القصير لا يمكّنها من اختراق جلد مهترئ، وسرعان ما تَنْفق تاركة أطلالاً من أحلام جشعة.

شيء ما يسقط من داخلك ويتوارى فيك. ربما يعلق في قميصك أو تغطيه الأيام العابرة بمواسمها المزهرة أو القاحلة.

برقية صغيرة لم تتعدَّ كلماتها العشر، قادتنا لكوارث كبيرة. لم أعرف هذا إلا بعد مضي زمن طويل. كنت ألمح عيون الفلاحين الذابلة ترف كجناحي حداءة ولت بعد أن اختطفت لحماً نيئاً من جزور أُلقيت على أرضية مذبح متسخ بدم ملبد وبقايا ذبائح تناثرت جلودها وأطرافها وتيبست دماؤها كمأدبة تلعقها الكلاب ويحوم حولها الذباب والحشرات... أرض خصبة بالدم لا تنبت فيها إلا قوائم دواب نفقت أو سواطير وشفار خُبئت في مكان رث.

كلما هبطتُ لقريتنا ورأيت وجهه الصقيل اللامع يذكّرني بتلك الكوارث. فجأة أعود ركضاً بالذاكرة لأستقر في بقعة واحدة وزمن واحد وطمأنينة واحدة. ما بال الأقوياء يسرقون أعمارنا وفرحنا وأشياء بسيطة نتعلق بها لنواصل الحياة... إنها أشياء لا تُعَدُّ ذات قيمة لكنها حينما

تكون في أيدينا تُشعرهم بأن الحياة لا تكتمل إلا بها.

* * *

بيتنا يغص بأولئك القرويين الذين جذبهم وميض سيرة أبي.

يتزاحمون في مدخل البيت وفي فنائه، والكل يحمل ورقة بيضاء ومظروفاً وينتظر دوره.

لم يكتب خطاباً ذهب مَداده أدراج الرياح. كل كتاباته تثمر في حينها... كتب للغائبين فعادوا، وكتب للمظلومين فانتصروا، وكتب للعشاق فلانت القلوب الصلدة، وكتب للحكومة فجاءت تركض برجالها وعساكرها.

أُشيع أنه يغمس قلمه في حبر مسحور، وبسبب هذه الشائعة سُرق بيتنا أربع مرات، وفي كل مرة لا يجدون محبرته. ولهذا تخلت أمي عن قطع الذهب التي حصلت عليها عبر حياتها بأن رهنتها عند زوجة القاضي.

يجلس في منتصف العشة وبيده قلمه المقصَّب ذو الريشة المدببة يغمسه في مَداد خُلط بالزعفران، وينصت لصاحب الحاجة حتى إذا أنهى سرد حاجته أمره بألاّ يتفوه بكلمة ويظل يدبج الكلمات المؤثرة القصيرة ذات النصل الحاد التي تتغلغل في الوجدان بلين ويسر حتى إذ استقرت هناك تفجرت وأحدثت تصدعاً ورغبة في الاستجابة. تجده أثناء الكتابة منكبّاً على ورقته يتفصد جبينه عرقاً صافياً يتحدر على وجنتيه حتى إذا انتهى من مهمته المقدَّسة يناول صاحب الحاجة خطابه، وفي أيام تكون قضية السائل قد حُلَّت.

والويل لمن يكدّر صفوه بزيادة كلمات على خطابه الذي يكتبه.

وبسبب هذه الشهرة تورَّطنا في أحداث لم تكن في الحسبان.

كان يجمع الأموال الطائلة ويبددها بالإنفاق في الدروب العرجاء ليعود متكففاً، فيعبر فيافي الفاقة سريعاً، ويعود ممسكاً بمال وفير.

وبسبب هذه التقلُّبات أُلصقت به تُهم عديدة أعلاها أنه متواطئ مع اليمن وأدناها أنه يغتصب أموال الناس بحيل مستحدثة.

رجل متقلِّب المزاج والمهن، فقد هجر مهنة أجداده وترك أمواله نهباً للاقتراض والهبات. وفي كل ضائقة لا يجد حوله أحداً من أولئك الذباب الذين مصّوا رحيقه. دخل للتجارة فخرج مديناً، ووقف حاملاً بندقية في أرض المعركة فاكتشف أن هناك لعبة لا يجيدها. ودار على بغلته بقاعاً عدة لترويج أعشاب تطيل العمر، انتهت بموت أول من سفهها. وأبحر في السفن العابرة فعاد مصاباً بحُبيبات جلدية يظل يهرشها إلى أن يدمي جسده. وباع السلاح بعد أن تركه الناس. وفي آخر أيامه امتهن كتابة المعاريض، وعندما أُشيع بمقدرة كلماته على اختراق الآذان الصماء، توافد عليه خلق كثير. الكل يطلب حاجة، وهو يدبّج الرسائل: رسائل نارية، رسائل صخرية، رسائل رطبة، رسائل مائية، ورسائل جافة، وعاتبة، وحارقة، ومشتاقة... وكل رسالة تعود بطائرها في عنقها.

وذات يوم جاءه أمر من مدينة جازان نصه:

السيد صالح التركي المحترم

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته،

وبعد...

بعد الاطّلاع على كثير من الرسائل التي تصل إلى الإمارة مغادرة إلى أقاص متعددة من البلاد، لاحظنا أنك أنت من يقوم بكتابتها. ولأن كتاباتك مضرة بالصالح العام، فإننا نأمرك أمراً قاطعاً وناهياً - في الوقت نفسه - بالكفّ عن الكتابة في أي أمر من أمور طالبيك، أو أن تختار لجسدك زنزانة صغيرة هنا.

حُرر في ٥-٦-١٣٩٥هـ

***

الآن عرفت لماذا نبذتنا قريتنا، ولماذا ارتضى أبي أن نعيش داخل

الأحراش كحيوانات مفترسة خرجت القرية تدفعنا للهرب من أمامها واختفينا خلف سحابة غبار.

في صبيحة أحد الأيام حملنا أبي وغادر القرية معلناً توجُّهَه إلى مدينة جازان، وبعد أن غيبه المدى سلك مسالك وعرة، رطبة، أفضت بنا إلى عمق الأحراش؛ هذه الأحراش التي يأوي إليها كلما شعر بأنه قريب من الهلاك، كأنه أشبه بضبع يخرج من وكره كلما أنس بتعفن جثة قريباً منه، ويعود مهرولاً إلى موقعه كلما استشعر بالخطر. كان يتنقل بنا دوماً بهذه الأحراش، ولكي لا تثقل حركته ابتنى بيتاً من الخوص وهيَّأه بما يليق بمستجير. هي أول رحلة وعيت لوعثائها وسمعته يُطمئن أمي الجزعة حين سألته:

- ما بالنا كاللصوص نهرب من بين الناس؟

- أيام قليلة ونعود لداخل القرية، فلا تجزعي.

وكمن تذكَّر شيئاً نسيه ردد:

- سنعود أسياد هذا الوادي الكبير!

كان يمضغ هذه الجملة في كل حين، ويمشط الجهات التي تحيط بنا غير مستقر في مكان، يحوم كالطيور المحلِّقة فوق هاماتنا، وعندما لا يجد ما يصنعه، يُجلس أمي أمامه ويردد على مسامعها:

- أعدك بأن تعودي سيدة لهذا الوادي! فقط أحتاج منك لقليل من الصبر.

مكث على هذا الحال زمناً لا يشتغل بشيء سوى ترديد وعده بأن يعود سيداً مُهاباً في جنبات الوادي. وعندما أحس بأنه سيفقد عقله، خرج من بطن تلك الأحراش، مخترقاً جهاتٍ عدةً، وبزغ على القرية من الجهة الجنوبية الشرقية، دخلها كلص محترف. في البدء قبع في أطرافها، وسأل وتفحص، فلم يَطمئن خاطره، فمدَّ خطواته في عمق القرية، وأمسك بالعابرين متسائلاً:

- ألم يأتِ أحد من العاصمة؟

وعرف أهل القرية أنه لم يرحل إلى جازان. ومع مقدم وفد العاصمة كثير من الأعين استدلّت طريق مخبئه فَقِيدَ إلى هناك يجر خلفه سلسلة طويلة وسخريات طائشة كانت تفتت عظامه.

في تلك الفترة لم أكن أعلم تحديداً لماذا نبذت القرية أبي، أو لماذا هو نبذها. كان بيتنا مغروساً داخل أحراش الحلفا المتداخلة ويصعب الوصول إليه لمن لا يعرف تفاصيل تلك التضاريس. في تلك الناحية غُرست عشة واحدة بُنيت بصورة سيئة وظلت محدودبة مائلة من الأعلى في انتكاسة أشبه برجل ركع وتصلّبت مفاصله فظل على وضعه.

وما إن يدخل الليل حتى نفتح صدورنا لهلعنا الليلي وتظل أجسادنا فوق الأرائك مبتعدين عن الأرض خشية من الزواحف الغازية أو من الثعابين المتسلقة بين لبنات العشة.

كان ينهر أمي دائماً من تخاذلها وتساهلها معي.

في الليل يتحول إلى وحش كاسر ينعتها بأوصاف بذيئة، وفي أحيان كثيرة تمتد يده إليها بينما أظل أنظر إليهما بجزع. وفي إحدى الليالي حين كان يهم بصفعها حاولتُ نجدتها بصراخ متواصل:

- ثعبان... ثعبان!

لم يلتفت إليّ إلا بعد أن شد ضفيرتها وألصق يده على خدها وجاءني قافزاً:

- أين هو؟

اكتشف مناورتي معه فجذبني من غرتي للأعلى وقذف بي بين الأحراش وعاد مزمجراً:

- الآن سأصدّقك إذا صرخت: ثعبان!

جرى بيني وبين تلك الأحراش ليل ضرير. كنت مقذوفاً بين تلك

الحشائش الحارقة وكلما تحركت ذبحتني تلك الحشائش فأحس بدمائي تفور من كل جسدي، وكلما حاولت أن أستغيث بأمي ارتأى لي أبي موصياً:

- من يستغِثْ تخرجْ له الحيات(*)!

فبقيت في مكاني، يصلني صوت أمي وهي تسترحمه أن يعود بي. لم أسمع ردَّه. لمحت فقط فانوساً يُطفَأ، وتغرق عشتنا في ظلام دامس.

ليلة مخيفة قضيتها هناك لا تُجْدي الكلمات لروايتها.

كان هو مصدر رعبي. أخافه كثيراً. خلف عشتنا تستقر دارتنا تبث روائح بطوننا كلما ركدت الريح فتزكم أنوفنا، وفي موسم الأمطار تطفح على سطح الأرض فيغدو المكان نتناً بصورة لا تُطاق.

خرجت ذات صباح للدارة ووجدته متركباً على ركبتيه، وممسكاً بعضوه. ارتبكت كثيراً. كان عضوه كبيراً ومرتخياً بين أصابع يده اليسرى وشفرة بيده اليمنى استقر نصلها بداخله وهو يعالجه بألم وعيناه مغمضتان ويزفر بتأوه مكتوم. لم أستطع البقاء لمشاهدته. ركضت لأمي وألقيت بخبري على مسامعها:

- أبي يقطع...

- يقطع ماذا؟

- ...

- لماذا تبدي خجلك. قل فأنت رجل. عليك ألاّ تخجل من شيء.

(*) من بعد هذه الأحداث بدأ مريضي يحدثني بأمر الكائنات التي يراها تجوب الأرض من غير أن يلمسها، لكنه أقسم إنه يرى كائنات غير مرئية - لا حصر لها - تعيش معنا، ولم أستطع إقناعه بأن ما حدث كان نتاج رعب طاغ اعتراه. وظلت تلك الصور ملازمة له نتيجة اختلال عصبي... ومن هنا أيضاً بدأت مهمة البحث عما يمكن إثباته علمياً من تلك المقولات التي ينثرها مريضي.

الدكتور حسين مشرف

- إربه!!

حضنتني وهي تتمتم:

- أنت لم تعصِ اللَّه يوماً، فادعُ له بالعافية.

وحين واجهتها بصمتي خبطتني على رأسي:

- لماذا لا تلبي.

- . . .

- ألا تحبه؟

هززت رأسي موافقاً.

- إنه يحبك كثيراً فلماذا لا تحبه؟

- . . .

- هو أبوك.

- ذا. . .

- ما بك تتعتع؟ تكلم.

- هو دائم الصراخ ويضربني كثيراً.

- ومع هذا فهو يحبنا.

شعرت بأن ثمة شيئاً تخفيه عني. عدت راكضاً لموقعه فلم أجده، ووجدت بقعة تبوُّل اختلطت بدم، عدت إليها:

- هل كان أبي يختن نفسه؟

ضحكت وامتدت يدها لعضوي وشدت قلفته برفق:

- أنت من يحتاج للختان.

- . . .

- سوف نفرح بك قريباً.

أصبحت أتربَّص به. في بعض الأوقات يتحول إلى وحش كاسر، وعندما لا يطيق البقاء في البيت يحوم كحيوان سُدَّت عليه المنافذ فيقفز

من مكان لآخر ممسكاً بشيئه حتى يعيه القفز، يعتصر، ويتكوم كثعبان تسمَّم بفريسته، ويظل يعصر أيره ويشده كمن يهم بسلخه أو بتره.

في هذه الحالة لا أحد يقترب منه. يتلوّى، يصرخ، يئن، يبكي، ولا أحد يقترب منه. نقف نحن من بعيد نراقب فحيحه... وحين يبلله العرق تقترب منه أمي من على بُعد أذرع وهي ممسكة برأسها وأحياناً تطلق يديها منفرجتين للسماء داعية بالغوث والسلامة. وإذا ارتفع صوتها زأر بها لاعناً كلَّ ما يخطر على البال من شتائم، فتتراجع صامتة تحدق به مشيرة بالدخول لعشتنا وهي تردد:

- ألم أقل لك لا تتعرَّ أمام النساء. واللّه لقد أصابتك عين إحداهن!

استيقظت ذات ليلة على هياجه وهو مستلق على أريكته... هناك كان الفانوس على مقربة منهما وهي تمسك بشفرة بفمها ويدها تمز شيئه بقوة وهو يشد شعرها ويئن. أصابني الرعب. التحفت بغطائي وأغمضت عيني خشية أن ينهض من أنينه ويشدني من شعري ويرميني بين الأحراش.

تخشَّبتُ في مكاني، فأنا أذكر عاقبتي قبل هذا المشهد بليال.. كان حلقي يابساً ولساني كحجر يتقلَّب بصعوبة داخل فمي. نهضت لتناول شربة ماء. وصلني صوتهما مكتوماً ومرقدهما يتأرجح من تحتهما بأزيز يخالطه لهاث متسارع. حدقت باتجاهما فوجدته منبطحاً عليها لاهثاً وأمي تحاول كتمان صراخها المبثوث وممسكة بظهره بشدة تجذبه إليها. نهضت من رقدتي وجذبت عمود قعادتنا المتراخي وألقيت به على ظهره ففز كالملدوغ... كان عارياً تماماً - وكثيراً ما رأيته عارياً - وصفعني على وجهي بينما كانت توسلات أمي تتبعه وهو يحملني للخارج:

- لا زال صغيراً لا يعرف شيئاً.

- سأجعله يعرف من الآن.

من تحت غطائي كنت أرقبهما، لا تزال ممسكة بعضوه تؤزه أزاً بينما

جسده يرتعد كثور سمين. كان ضحية شفرة باترة يتقلب في فراشه ممسكاً بشعرها ويلهج بكلمة واحدة:

- يا لطيف!

كان كالمحموم أو كالملدوغ أو كمن يريد أن يسلم روحه.

مدَّ يده أسفل مخدته وناولها شفرته وصاح بها:

- أدخِلي سنيها وانتزعيها نزعاً.

- لا أقدر.

كوَّم يده وألقاها على ظهرها فتقاعست، وتناولت الشفرة من يده وغرستها، غرستها بعنف فصرخ صرخة أظن أن الصباح انبلج لها فجأة، وهمد في مكانه، وتراشق الدم على ثوبها فنهضت من فوقه وقبلت رأسه وجلست بجواره تبكي.

ما الذي يجعلها تحبُّه كل هذا الحب؟

***

كلما أصابه ذلك الألم سمعتها تردد:

- ألم أقل لك لا تتعرَّ أمام النساء. واللَّهِ لقد أصابتك عين إحداهن!

كل نساء القرية يعرفن عضو أبي جيداً، ويمكن لأي واحدة منهن أن تصفه لو تخلت عن خجلها.

أعرفه، فظاً غليظاً، يأتي كإعصار في يوم قائظ ويقلب كل شيء ويغادر كما أتى.

لم أستطع أن أحدد مشاعري تجاهه. أكره كلَّ شيء فيه، وأتجنَّب أي تصرف يقوم به. ومع ذلك لا أعرف لماذا كانت تقول والدتي:

- أنت شبيه بأبيك في كل شيء.

منجذب إليها. أراها أنقى شيء في هذا الوجود. تكدِّرني علامات القلق البادية في حركة عينيها، وقلبها المقبوض على الدوام... هل هي

مرغَمة على أن تقوم بهذا الدور. في أحيان كثيرة تطبب مزاجها بالأغاني الحارقة، وتنظر لقامتي كلما ابتعدت عن الأرض. ربما تقول:

- الريح تُطيح بالفسائل الناضجة، وإذا لم تقوَ عليها فتتركها للطيور.

لا أحد ينتظر المطر عاري الرأس، وكذلك الشمس لا أحد يتعمم بها في اليوم القائظ.

كانت تخشاني كثيراً، ولا أعرف بالتحديد لماذا نشأ بيننا هذا التنافر الذي لم نفصح عنه. كنا نتبادل خشية غامضة مما يحدث بيننا، ويبدو أن خشيتها تلك هي السبب خلف تغاضيها - مؤخراً - عن تلبية استغاثتي حين كان يضربني، وقد أقلعتْ أيضاً عن مناداة الجارات لكي يوقفن اندفاعه الأهوج ورغبته الملحة في سلخ جلدي.

لم يكن يمر يوم إلا ووجد سبباً لضربي، ولم يكن يطيب له إلا رؤية الدماء تسفح من جسدي. في البدء يُخْلي سراح الحمار من مربطه، ويقوم بربطي مكانه، ويتناول عصاً من السجف المجاور ويبدأ في «مهمته المقدَّسة». ذات مرة كانت أمي تقف بيننا فهددها بأن يُجلسها بجواري، وعندما استخفت برده شدها من شعرها وكاد يربطها لولا أن نفذت من بين يديه وهي تصيح:

- أعدك بألاّ أتدخل ما حييت.

وبسبب هذا القَسَم كانت تلجأ الى الاستعانة برجالات القرية. وعندما يتوافدون يطلق عليهم الشتائم، ويتشاجر معهم فيتركونني لقمة سائغة له داعين اللّه أن ينفطر قلبه لبكائي. ومع مداومته على ضربي وتخلِّي رجالات القرية عن الاستجابة لاستغاثاتي، استعانت امي بجاراتها. فمع ظهور إحداهن مستجيرة به يتركني في الحال. وعندما استشعر أنهن يمنعنه من ضربي بتدخلاتهن المتكررة، أضاف لطقوسه شيئاً لم يكن يخطر ببال، فبعد أن ربطني وجهز العصا لجَلدي خلع مدرعته وحل مئزره فأصابني الذعر عندما رأيته عارياً، وبدأ بجَلدي. وعندما استعانت والدتي بجاراتها

وأقبلن كانت كل واحدة تتراجع عند رؤيتها له وهو يقف عارياً متشفياً في سره منهن. قلة منهن كن يغطين وجوههن ويقفن حائلات بيننا. كانت الوحيدة التي تغامر في كل حين لجذبي من أمامه جارتنا خديجة إبراهيم.

وتقوّلت النساء في ما بعد عليها، يقلن: كانت تنتظر مجيء أبي وتقف دائماً بالقرب من فناء دارنا حتى إذا استغاثت أمي بجاراتها هبت لنجدتي وهي متحررة من ملابسها الثقيلة، وتتعمد مسكه من خاصرته وهي تستغيث به أن يلقي عصاه.

هذه الشائعة بلغت مسامع زوج خديجة ابراهيم فحرَّم عليها دخول بيتنا. وبسبب تلك الشائعة أيضا بقيتُ عرضة للضرب من غير أن يلبّي أحد استغاثاتي المتلاحقة. وعندما علمت مسعدة ما يحدث لي، انتدبت نفسها للمجيء اليومي إلى منزلنا، وكلما همَّ أبي بجَلدي وقفت أمامه حاملة مدية حادة ومهدِّدة ببقر بطنه، فيتركني ويتبادل معها السباب إلى أن يتعب كل منهما من دلق مخزون شتائمه، وينتهيا بأن تلقي عليه ملابسه وهي تردد:

- لو كنت أحتمل ضخامتك لكنت أنهيت هذه المشاجرة من وقت مبكر!!

ولا يجد أبي حيال غزلها الصريح سوى قذفها بشتيمة عارية وكفكفة ضحكة طويلة هربت من داخله.

وأقلع عن عادة ضربي بعد ان أصبحتُ أقرأ ما في عينيه، فكلما قرأت موعداً لجَلدي أطلقت رجليَّ للهرب وأغيب يوماً أو يومين وأعود بعد أن يكون قد هدأت دماؤه الفائرة.

***

في آخر أيامه، قرر أبي أن يسافر إلى عدن. قيل له إن هناك أطباء إنكليزاً. ظلت هذه الأمنية ملازمة له، كان ينتظر أن تعود الأموال لتسيل بين يديه.

رفض اقتراح أمي حينما اقترحت عليه الذهاب لجدة فصاح بها:

- ليس بها إلا هنود يمنحون المرضى دواءً واحداً مهما اختلفت علاّتهم.

- جرِّبْ!

- أوَتظنينني لم أذهب إليهم، لقد ذهبت، وربما تضاعف الأمر من أدويتهم التي تسبب الخَدَر ولا تجلب الشفاء. أحدهم قرر بقر بطني لاستخراج الحصى وقد وافقت ولكنني تراجعت حينما علمت أن من يجلس تحت مشارطهم لا يخرج إلا للقبر.

صمت وقد بدأ الألم يعتصره:

- لا بد من الذهاب لعدن.

كادت تقول له:

- السفر مكلف.

لكنها صمتت، فهي تعرف ثورة غضبه، فقد غدا لا يمتلك شيئاً. فبعد صولاته وجولاته نضبت أمواله وغدا يبتكر الوسائل لاستعادة مجده الغابر، لكن سيرته المشوّشة أبعدت كل من حاول مد يد العون له. كان يدّعي أن له تجارة تمخر في بحار العجم وستعود محمَّلة بالأموال، لكن هذه الدعوة لم ترقَ لأحد. وقف طويلاً أمام بقرتنا الوحيدة، لف ذراعيه على رأسها، وحوَّطها مراراً. وضع وجهه بين عينيها ولثم غرتها، وأسقط هامته بين قائمتيها الخلفيتين وتلمظ ضروعها. كان من عادة أمي ألاّ تفاجئه في أي موضع يكون، حاولت أن تعلمني أن يسبق صوتي مقدمي، كانت تفعل معه هذا، تفعل ذلك بصور متعددة... تذكر اللّه أو تصلّي على النبي، أو تنده باسمه. يكره الحضور المباغت ويردد:

- الموت هو الكائن الوحيد المخاتل الذي لا يترك لك فرصة أن تستقبله كما تحب... ولا أريد أن يأتيني أحد كالموت.

ذات يوم لمحته يطارد جارنا - حينما كنا نقطن داخل القرية - فقد باغته بمقدمه، ووقف عليه بينما كانت إبهامه مغروسة بمنخره يعبث به بلذة، يُخرج قرمه ويتطلع إليه للحظات ويفركه ما بين سبابته وإبهامه ويكوِّره ويعاود ضغطه عليها. فجأة سمع صوتاً متهيجاً:

- ظهرت بوادرهم من على مشارف القرية وأنت جالس هنا تلعب بمنخرك!

قفز من مكانه كقط سُلخ ذيله. ومن غير مقدمات دفعه أمامه بكل قوة فسقط جارنا على الأرض مندهشاً، فسل أبي عوداً يابساً من سجف فنائنا وشوطه على صدره:

- لا أريد رؤية وجهك بتاتاً.

وقبل أن ينبس بكلمة كان العود يعيث بجسده في كل مكان، فخرج راكضاً يلعن الحظ الذي قاده لأبي في مثل هذا الوقت، بينما كان أبي يركض خلفه مقسماً إنه سيسلخ له ظهره إن جاءه مرة أخرى.

***

لم تورثني أمي أي صفة من صفاتها. وحين تحضنني لصدرها في حالات استرخائها، تسرح ببصرها بعيداً: أنت متفرِّع منه ومثله تماماً، قاس كجذع!

قبل تلك الحادثة التي لفّ جسدي في كفنه كانت تتشممني في كل حين، ويطيب لها تشمُّم إبطي وترفع صوتها:

- لك رائحة تذكِّرني برائحة الوادي حين يبشّر بمقدم السيل. رائحة ليس لها مثيل.

وتمرغ أنفها ما بين رقبتي وكتفي، وتحضنني بشدة حتى ألتصق بنهديها ويغوص مرفقي بعظام صدرها. كانت تقول:

- أنت الوحيد الذي خرج برائحة بطني للوجود. كم أتمنى أن تحافظ

على هذه الرائحة حتى تغدو فحلاً. ساعتها لن تتركك امرأة... ستُجنُّ بك كل النساء.

وحين شقَّت تفاحة آدم حنجرتي، كانت تتأفف حين ألتصق بها فأتمادى في سماجتي، فتدفعني عنها دفعاً:

- لك رائحة تيس لا يمل التوبير. اذهبْ واغتسلْ.

صببتُ كل مياه الآبار على جسدي ودلكته بشجر السدر والنيم فلم تكن تزداد إلا نفوراً.

قالت: منذ أن رأيت عينيك مرتكزتين على حوض زينب أيقنت أنك لن تحافظ على طهارتك.

نافرة بجسد مرتوٍ قلَقاً، تأتينا بين الحين والآخر، جبلية تزوجها عن عشق، وظل يروي فورتها أثناء الليل والنهار فتبرّأ نهداها من أغلالهما. وكلما جاءتنا فزَّ من داخلي عصفور صغير وحلق بين تينك القمتين. يداهمني ألم ممض وأنا أرقب تهاديهما فأعتصم بينهما بنظراتي المتلهفة. أذوي كعصفور داهمته عاصفة ممطرة فارتمى بين قمتين تجاورتا فمنحت المعتصم الدفء والأمان. جاءتنا لتطحن قدحا من الذرة، وانكفأت على المطحنة. نهر صدرها ملَّ العبور من بين تينك القمتين وطفح بزَبَده على ضفتيه مغرياً الناظر بشهوة الارتواء والارتماء. كفكفت فستانها فانقشع عن ساقين ممتلئتين ناصعتين. وكلما انكفأت على المطحنة استدارت مؤخرتها وترقرقت بتوتر.

يا اللَّه، من أين خرجت هذه المرأة!!

استوطنت مخيلتي. نهم بها. شيء ما سال فارتوت له الأرض، وعرفت أن هناك أرضاً تُحرَث بلذة، وأن هناك نساءً ليس لهن عظام؛ نساءً من زبد. واكتشفت عمق حماقاتي؛ اكتشفت أن مسعدة بقايا موات أقبر عظامها النخرة في أرضي.

***

كانت تحدث أمي بغنج مبالغ فيه لو سمعها رجل لأقسم إن هذا الصوت لا يكون إلا لحورية:

- ما أخبار زوجك يا زينب؟

- لا خبر و لا مخبر. ربما اتجه للحجاز.

وصمتت للحظات وتابعت:

- هم هكذا الرجال، يبحثون عن جنة غائبة.

- وهل اشتقتِ لحضوره.

- على النساء أن يتكوَّرن بجوار رغباتهن حتى يعطف عليهن الرجال.

غمزتها أمي:

- وهل طفح بك الكيل.

سالت ابتسامتها العذبة، وسحبت طرف فستانها، وتكوَّرت على المطحنة مبدية جسارة في إهمال فخذيها سلوة للعابرين.

كنت غارقاً في حوضها. صوت أمي يأتيني من بعيد كمقاليع تحثُّ طائراً هوى على أن يعاود التحليق والابتعاد، وأنا أهوي، أهوي هناك عند نبع تدفَّق، وأغرق كل الكائنات، فأترك له أن يجذبني للأعماق. مقاليع صوتها ضارية:

- هاه... البقرة ستموت. احمل لها العجّور.

عبثاً حاولت ثنيها عن إبعادي، وعندما لم يفلح صوتها جذبتني من ترقوتي:

- هيا اخرج.

في تلك الليلة جاءتني زينب وتخلَّت عن فستانها أسفل مخدعي، وتركتني أغوص بين أعطافها، بين زبد نهديها وهي تتثنّى. انقلبت على بطنها فبانت مؤخرتها وترجرجت بتوتر. شهقت في لجة ذلك الجسد اللدن، وغرقتُ. أحسست بنار تشعلني وتهيجني فيستجيب لها ماء فاتر

جرى كالطوفان يُغرقني، ودفء يتموج بين أطرافي، ويسكن كل شيء... يسكن... لحظات عدم... ليس هناك زمن أو مكان فقط عالق في تلك اللحظة. عدت علقة في رحم الزمن، وعندما عدت كان ماء لزج يجري بين فخذيّ. شعرت بخوف وارتباك، تحسست موقعي، نهضت. كانت عشتنا تسبح في ظلمتها ومن هناك يصلني شخير أمي منتظماً... كنت خائفاً، اقتربت منها، هززتها برفق، فلم تستجب، فعدت لمخدعي، وعبثاً حاولت أن أنام.

كانت زينب لا تزال تقف على أهدابي، منكفئة على المطحنة ومرة على فراشي، ومؤخرتها تترجرج بتوتر فانقلبتُ عليها ونشتُها بكل قوة، كانت قعادتي «تزيط» وأنا ألهث محموماً، وقبل أن أصل مرة أخرى لتلك اللحظة العالقة في رحم الزمن كان ضوء فانوسنا يشعل ظلمة عشتنا وشبح لامرأة تقف على هامتي وصوتها مذعور:

- ماذا تصنع يا قليل الحيا؟

وامتدت يدها لظهري تخبطه، تقبصه، وأنا متشبث بقعادتي أنوشها بكل قوة. جاورها أبي ضاحكا:

- إنه يشبه الحمار الأعرج، وهذا النوع لا تقبل به النساء، فدعيه يُفرغْ قوته على قاعدته بدل أن يجلب لنا الفضيحة!!

توقفت على صوته، وارتدت ناري المتأججة تحرقني بضراوة. اعتراني خجل مريع فدسست وجهي أسفل مخدتي ولم أرفعه استجابة لصراخها:

- أريد أن أرى وجهك.

في الصباح قرّبني إليه. لأول مرة أجده أقل ضراوة مما كنت أتصوره:

- البارحة كانت شهادة بلوغك، لكن عليك أن توفر مياهك للغد. وإذ لم تستطع فأخبرني لأزوجك.

- لكنك قلت إن النساء لا يقبلن بمثلي.

- ستجد آبارا كثيرة تقبل بعطفتك فلا تفكر بهذا الأمر!

وتركني ومضى، بينما كان صوتها يصلني حارقاً:

- علّمه قلة الحياء حتى يصيبه العطب قبل الأوان.

وعندما عبرتها خبطت كتفي:

- الآن عرفت سر ذهاب رائحتك، وبقاء رائحة تيس الضرب.

لا أعرف لماذا سرتُ باتجاه بيت زينب، ورأيتها: كانت مهرة خرجت تصهل في فناء دارها، مرتوية لا تحتاج لجدول ماء يملأ ساحتها. من يومها كرهت مسعدة، كرهتها كثيراً، وندمت لأنني منحتها أرضي لتقبر بها عظامها النخرة.

في زمن ما، ستقف الحياة لتخبرنا
بسرِّها الصغير العظيم. ساعتَها، لن تكون
لدينا فرصة لأن نقضم شفاهنا حسرةً على كل ما حدث.

تهامس أهل القرية مرتابين من خبر احترق ليلة البارحة على قارعة الطريق ففاحت رائحته بين جَنَبات القرى الممتدة على الوادي.

- قبضوا على نصراني في قريتنا.

وتحول الخبر إلى حياة يعيشونها، ويتابعون حكاية ذلك النصراني الذي قَدِم إليهم، ويقسمون إنه العين الشريرة التي حلّت بالبلد وخسفت بمباهجهم.

فبعد صلاة المغرب تقاطر المصلُّون في خطوط متفرقة كنمل أصابه بلل فتفرق في حركة عجلة بينما كان ديك محمد إسماعيل لا زال يكاكي من حنجرة أصابها العطب فتطيَّر منه القادمون وغيَّر بعضهم ممشى طريقه في تحفُّز يشوبه ضجر من ديك لم يبق له سوى عُرف تآكل وعين انطفأت في صراع مغمور لم تقف عليه سوى دجاجتين كانتا من نصيب ديك قاني الاحمرار مدَّ مخالبه لعين خصمه وتركه ينقر الأرض من ألم مبرح. ولغياب الجميع عن هذه الواقعة قيل إن «البدة» زهرة موسوية خلعت عينه وأبقت له عينها الشريرة كي تداخل من تشتهيه من غير أن يفطن لها أحد من الرجال الصالحين ذوي البركة والكرامة. وخشية أن تصيبهم تلك العين المتوهجة كجمرة نار تستعر في كل حين، ابتعد عنها كل أهل القرية، فأودعت عينها الشريرة لذلك الديك الذي تبرّأ منه محمد إسماعيل،

وقذف به خارج الدار، إلا أن الديك عاد، واستقر على عريش صاحبه من غير أن يجرؤ أحد على الاقتراب منه، وبعد القَسَم الذي اندلق في الهواء وكلف محمد إسماعيل مشقة صيام ثلاثة أيام من غير أن يبرَّ بقَسَمه. فحين أقسم على قتل ذلك الديك اللعين - الذي أخرجه مراراً لأداء صلاة الفجر في غير أوقاتها - وسلَّ شفرته مقترباً من السهوة التي ينام عليها، وقبل أن يمد يده إليه، كان الديك يرف بجناحيه، ويسقط في بيت منور الحبشي الذي كانت زوجته محل ريبة. وقبل أن يواصل اللحاق به كانت أمعاؤه على وشك أن تغادر بطنه الممتلئ. فقد نصب منور شركاً لعشيق زوجته الذي يقفز إليها ليلاً، ويعبثان مع بعضهما طعناً، لدرجة أن يتنبه الجيران لآثارهما. وقبل أن يعمق جنبيته في خاصرته كان يركض بعيداً لاعناً الديك ومنور على السواء.

هذا الديك أصبح لعنة تطارد محمد إسماعيل في كل مكان. فما إن يصاب أحد أهالي القرية بمرض أو صرع حتى تتجه الأصابع لعين الديك وقد أحاطوا به محاولين رشقه بسهام أُعِدَّت لهذا الغرض. ومع كل محاولة ينطلق سهم ليصيب أحداً منهم حتى عادوا يحملون ستة جرحى، واكتفوا بهذه الخسائر على أن يواصلوا حبك الحيل للقضاء على العين الشريرة التي استقرت في قريتهم. وظل الديك ينعم بما يشتهي من غير أن تجرؤ يد على منع منقاره العابث عن طعامهم وشرابهم وأبدانهم.

وحملوا الهدايا وذهبوا لزهرة موسوية متوسلين إليها أن تجنِّبهم كوارث تلك العين، فأقسمت مؤكدة أن ليس لها علاقة بما يحدث. وعرضت عليهم أن يكفّنوها ويصلوا عليها إن كان بهم شك مما تقول، وخلَّصت من بين أياديهم هداياهم، وودعتهم ناصحة بالبحث عمن أسكن هذه الروح الخبيثة في القرية.

جزموا أن غريباً جاء إلى القرية وأسكن روحه الشريرة في عين الديك. كان هذا اليقين بعد تلاوات متعددة قام بها السيد إبراهيم عبده،

والسيد هادي بن علي، والسيد طاهر الحسيني، وكل منهم جزم أن الروح التي تسكن عين الديك هي روح خبيثة لا تقطن بالقرية (وبرّأوا زهرة موسوية)، وذهب ظنهم إلى أن عابر سبيل أودع روحه هنا خوفاً من ملاحقة القراء له، وجزموا أن صاحب تلك الروح الخبيثة سيعود حتماً، وظلوا ينتظرونه زمناً طويلاً إلا أنه لم يصل حسب زعم الشيوخ الثلاثة.
وقبل اكتمال البدر خرج الشيخ هادي بن علي ليقول:

- دنا ظهور زارع الروح الخبيثة، فتنبّهوا.

فتناوب أهل القرية للخروج ليلاً والإمساك بالغرباء القادمين للقرية.

البارحة دخل القرية رجل غريب له هيئة الزرانيق، فسوالفه تمددت على صدغيه، وهفهف شعره الطويل خلف ظهره يحمل وجهاً ترابياً غامق الحمرة بعينين ضيقتين كخط رُسم ومُحِيَ على عجل، له قامة مربوعة يتدلى منها ثقةً واعتداداً. كان يسير غير مبال بتلك العيون التي انبثت ترصد تحركاته من غير أن تمنحه شعوراً بالخيفة أو الحذر. كان يسير بخطى متوثبة انتهت يده بحبل يجر جملاً من خطام تشقق ورغى بزبد قديم، وعندما غدا بعيداً عن الدروب المطروقة تنحّى جانباً، وتبوّل واقفاً، فتقافز الجميع صائحين:

- نصراني في القرية!

تطرشق ماؤه، وبتر تبوُّله بدس عضوه في ارتباك فتصايحوا به مجتمعين:

- وليس مختوناً أيضاً.

- النصارى لا يُختنون.

- لا يأتي بالعين الخبيثة إلا الكفرة.

وقال محمد إسماعيل:

- ارجموا النصراني، لعنه الله. . . ارجموا النصراني!

فحصبوه بحجارة عديدة، فلم يجد ما يحميه من تلك الحجارة المتساقطة سوى الاحتماء بجَمله. وأصيب في أماكن متفرقة، وأحاطوا به ولم يتقدم أي منهم لشد وثاقه، وكلما أراد أحدهم فعل ذلك سمع قولاً يثنيه عما عزم عليه:

- أتلمس نصرانيا؟

- إنه نجس. ألم تره يبول واقفاً ولا يستتر من بوله.

- هذا صاحب العين الخبيثة التي استقرت بديك محمد إسماعيل.

نخسوه بعود طويل ودفعوه أمامهم، بينما ظلت حلقة من المشيِّعين تحيط به، وسارعت مجموعة تسير على أعقابها، ومجموعة تستحثه على السير، وعندما بلغوا المركز ولم يجدوا العسكري موسى في مكانه صاح أحد القرويين:

- موسى نسي أنه عسكري وتفرَّغ للمتاجرة بالموز تاركاً المركز كبيت للضيافة.

تلفتت المجموعة تحدق بمن حضر الواقعة، وتحيَّروا في من يشد وثاقه، ولم تطل حيرتهم، فقد أرغموا العبد مرزوق على شد وثاقه:

- أنت عبد ولا يضرك ما يصلك من نجاسة!!

- ولكنني مسلم وأخاف أن أتنجس.

- أنت نصف مسلم. ألا تعرف أن دِيَّتك نصف دية المسلم!!

- قم برباطه حتى نرى أمره في الغد.

لم يتطرق لعضو هذا الغريب سوى النساء حينما استنكر بعضهن أن يكون الغريب غير مختون، وأخذن يبالغن في وصف العضو غير المختون. ومن استملحت الحديث طالبت بشرح مستفيض متسائلة:

- كيف لهذا العمود المغلف أن يزاول مهمته في رش الحقول التي يطأها.

وبرغم كل التخمينات التي انبرت من بعضهن للشرح، إلا أن سؤالاً واحداً لم تستطع أي منهن الإجابة عنه:

- كيف لمائه أن يتصبب من خرطوم تغضَّن وحبس مجرى المياه المتدفق؟

وبيَّتنَ النية على استضافة مسعدة لكي تزيح لهن الحجب المُسدَلة، فهن يصفنها بالخبيرة التي لا تُبارَى في هذه الميادين.

وقف السيد إبراهيم عبده على الرجل الغريب فوجده متهالكاً وعلى وشك النفاد، وعلم أن امرأة تسللت في الليل وقامت بربط اللحمة الزائدة من عضو الغريب وشدها بحبل في سارية عالية. استبشع السيد إبراهيم تلك الفعلة وخاطب الحضور:

- هذا رجل ذمي عليه ما علينا.

استنكر الجميع تلك المقولة وتأفف جميعهم من إطلاق سراح عضوه المشدود كوتر فقد مرونته، وأوشك على الانقطاع. ولم يرد السيد إبراهيم عبده أن يصل به الأمر إلى مسك ذلك العضو المتهالك، أمام الجميع، فأطلقوا منادياً في القرية يخبر أن من ينجز هذه المهمة سيكون نصيبه جَمل الغريب. وظل المنادي يدور بين طرقات القرية إلى ما قبل الغروب من غير أن يتقدم أحد لنجدة ذلك الغريب الذي خارت قواه، ولم يعد قادراً على فعل شيء سوى التأوُّه. وكلما أراد أن يتحدث لا تساعده قواه على إخراج الكلمات الواهنة أبعد من شفتيه.

وقبل أن يسقط تماماً، كانت مسعدة تسير حثيثة وسط ذهول الجميع وتحل وثاق ذلك العضو ساحبة الجمل إلى دارها وهي تصيح بهم:

- ليس له إلا إصبع لا تصلح لإخراج القرم.

ولم تترك لأحد منهم أن يعلق بكلمة واحدة. وبعد يومين اكتشفوا أن الغريب يحمل خطاباً ممهوراً بتسهيل رحلته، وكان مصاحباً لفرقة جاءت لجباية الزكاة، وتقدم عن جماعته المخيمة بين القرى الواقعة في الجهة

السفلى من الوادي. ويصرح بأنه تقدم مجموعته لخشيته أن يُصاب بحمى الوادي. لم يستمع أحد لمقولاته، وظل مربوطاً في جانب مهمَل من المركز، يُقذَف له بالأكل من على بعد. ومع مقدم القافلة التي تحدث عنها، تبين أنه رجل محظي من قبل رئيس القافلة الذي اشتط غضباً لفعلة الأهالي، وقام بنفسه بفك وثاقه، والاعتذار عما حدث له. وبسبب تلك الفعلة لم يسلم أحد من أهل القرية من مضاعفة إخراج الزكاة. الوحيد الذي رضخ له الغريب كان صالح التركي حيث تنحَّى به جانباً وهمس له:

- بمقدوري أن أراسل من أمهر لك هذا الخطاب وأحاجّه فيك.

- كيف؟

- كيف تكون جابياً للزكاة وأنت غير مختون وتبول واقفاً.

- وماذا في ذلك؟

- من لا يُختتن ليس مسلماً، ولا يبول واقفاً إلا النصراني. ألا تعرف هذا.

- لا.

- إذاً، أنت لست مسلماً، ولا بد من أن خلفك أمراً تخفيه.

ارتبك الرجل الغريب، ونفر بصالح التركي:

- إذا لم تمض فسأجعلك تندم.

- يبدو أنك لا تعرف مع من تتحدث. أوَتخيفني؟ سنرى.

وامتدت يد صالح التركي لصرة، كان الغريب يضعها بين جلده وثيابه، فارتج الغريب هلعاً:

- ماذا تريد؟

- معرفة ما تحمله.

قبض صالح على تلك الصرة، وأخرج منها أوراقاً عديدة، لُفَّت بعناية، ونشرها بين يديه صائحاً:

- جاسوس!

فغر فم الرجل الغريب، وخرجت عيناه الضيقتان جزعة:

- ماذا تقول؟

- هذه الأوراق بها رسومات لمنطقتنا، وهذه كتابات عن قرى الوادي. لا شك في أنك جاسوس، ولو علم أهل القرية فلن يشدوا عضوك هذه المرة بل سيجدون أن رأسك أيسر بكثير لأن يُعلّق.

تراجع الرجل الغريب عن حدته، وأخذ يلين حديثه مغدقاً على صالح النعوت الفخمة:

- لا بد من أنك رجل مُلمّ بكل شيء، ودرايتك ستجعلك تفهم هدفي كما هو من غير تحريف.

تراخت حدة صالح التركي، والتف حول الغريب:

- اصدقْني ما الخبر.

- أنا رجل دارس لجنوب الجزيرة العربية، قدمت من مناطق بعيدة، وجئت من أجل أن أتعرف إلى تضاريس هذه المنطقة وعاداتها، وشيوخها، وحيواناتها. باختصار جئت دارساً، ولم آتِ مندساً كما تسارَع إلى ذهنك، بل إنني مزوَّد بخطاب مهمور لتسهيل مهمتي.

- هنا لا يعرفون الممهور من غير الممهور. ونصيحتي لك أن تتعاون معي أو تتركني أمرر كلمة واحدة لمسامع الشيوخ. بعدها ستتناثر أوراقك ولن تجد من يجمعها لأن رأسك سيكون معلَّقاً في إحدى هذه الأشجار.

- سأبلغ رئيس القافلة عن تماديك في ما لا يعنيك.

- وأنا سأبلغ أهالي القرية أنكم جميعاً تكذبون علينا، وقبل أن تتم المراسلة في شأنكم سنكون قد قضينا عليك بتهمتين: كونك جاسوساً، وكافراً.

ضحك الرجل الغريب كثيراً، واقترب من أذن صالح هامساً:

- أنت تتوهم مقدرتك على فعل كل شيء.

وودعه، ومضى في طريقه، ومع الغلس كان رئيس القافلة متهيئاً للذهاب لجباية الزكاة من القرى الواقعة في أعلى الوادي، تاركاً الرجل الغريب وبعض أفراد القافلة في قريتنا ليلحقوا به في اليوم التالي بناءً على نصيحة أسداها صالح التركي له. ومع الظهيرة كان صالح يقف على رأس الرجل الغريب يرفع حاجبيه بمكر:

- الآن أستطيع أن أساومك على أي شيء، أليس كذلك؟

- ماذا تريد تحديداً؟

وعندما أحس بوجله وتردده اشترط عليه أن يقاسمه في ما أخذه الجباة من فائض الزكاة، فحاول الرجل الغريب إفهامه أنه مرافق للجابين وليس له علاقة بجمع الزكاة، فثار صالح التركي وهمَّ بأن يصيح بأهل القرية، فاستمهله بعض الوقت حتى يتدبر أمره. وعندما غادر الرجل الغريب القرية مع القافلة التي جاء معها، كان صالح التركي يخزّن نصيبه من الحبوب في أماكن بعيدة عن أعين أهل القرية، ويحصي النقود التي اقتطعها من الرجل الغريب، بينما ظل أهل القرية يترقبون مقدم صاحب العين الشريرة، وظل الديك يُخرجهم لأداء الصلاة في غير أوقاتها(*).

***

(*) لم أُورد هذه الحكاية عبثاً، فقد أكد مريضي أنه كان يشاهد قوماً يتقاتلون في تلك الرقعة التي يجوب بها ذلك الديك، وقد فوَّت الديك نصراً مؤزراً لقائد الجيش الغازي حين نبَّه القوم بالهجوم فتقافزوا من مراقدهم لدفع الغزاة.

وقال مريضي أيضاً: إن الحياتين (حياة أهل القرية، وحياة الجيوش المتحاربة) يعيشهما في الوقت نفسه، وبعبارة أدق يشاهد الحياتين!!

ويرى مريضي تفسيراً معقولاً لصياح الديك في غير وقته؛ يرى أن الديك يعيش في زمن غير زمنه، يعيش في زمن أولئك المتحاربين، ويغدو صياحه تنبيهاً بدخول وقت غير وقت أهل القرية.

الدكتور حسين مشرف

- سمعتَ الشيخ عبده ماذا قال؟

- ماذا قال؟

- قال إن الخير يعمُّ بينما العذاب يخص.

- وما الذي يشغلك في هذا القول.

- الذي يشغلني أن منطقتنا يعمها العذاب ولا يعمها الخير.

- ألا ترى بقية المناطق تنعم بكل شيء بينما نحن نستظل بالشقاء. أين وزارة الصحة من هذه الأوبئة التي تفتك بنا؟ وأين الكهرباء من هذا الظلام الدامس؟ نحن خارج الزمن. لا يوجد أي شيء لدينا. فقط نتوالد كالبكتيريا، نتفطر ونموت بسمومنا.

- ربما لم يسمعوا بنا.

- عدم سماعهم بنا هو الكارثة. واللَّهِ لأرسلنَّ برقية للعاصمة، ولأكبر كبير في الدولة، ولْنرَ ما يحدث.

- يبدو أنك جُننت. من يتحدث عن الحكومة هكذا.

- أنا لم أقل شيئاً فيها، ولكن من لنا إذا لم تتنبَّه لأوضاعنا.

- المدينة سوَّست تفكيرك. حياتنا هكذا أجمل وأيسر!

- واللَّهِ لن أسكت حتى أجعل قريتنا تتلألأ بالكهرباء.

تناقل الناس أن صالح التركي أبرق للعاصمة برقية غاضبة من الأوضاع المتردية للقرية، وتقوَّل الكثيرون إن تلك البرقية ستقلب الدنيا رأساً على عقب، فقد كتبها بماء السحر الغالب لتخفف حدة تلك البرقية التي حملت تهديداً صريحاً بالخروج على ولاة الأمر.

وكان أهل القرية يترقبون شيئاً غامضاً سيعصف بقريتهم قريباً، وحين يلمحون صالح التركي ما زال يسير في الطرقات يبادرونه:

- ألم يصل شيء بعد من العاصمة؟

فيأتي رده متعجرفاً:

- سيأتون كما طلبت، ولن يمضى شهر إلا وقريتنا تنعم بكل الخدمات. لقد وضعت في تلك البرقية خلاصة فنون الكتابة لديّ.

وبعد مرور أسابيع من الانتظار والترقب، لم يأت أحد من العاصمة، فكان أهل القرية يتضاحكون من صالح كلما مرّ من أمامهم:

- لم يصل أحد لا من جازان ولا من العاصمة.

فيمعنُ في تأكيده:

- ما كتبته يجلب جيشاً وليس وفداً. سيأتون، فاصبروا.

فيتضاحكون منه غير موقنين من رده.

* * *

أنا أُشبه قريتي.

قبل قليل قلت لا داعي لوصفها، لكنني أجد نفسي الآن راغباً في الحديث عنها:

هي قرية مثلها مثل كثير من القرى المقذوفة بهذه الناحية لكنها تتميز عنها بخاصية قد تكون فريدة من نوعها، فهي قرية ذات صبغة حيادية، فمن يدخلها أو يخرج منها لا تترك في داخله أي شعور بالغبطة أو الحزن. قرية محايدة تماماً ليس فيها شيء يُذكَر. حتى أناسها أقرب إلى الملامح الغائمة ويبدو أننا جميعاً - أهل القرية - نعيش هذه الأزمة التي أود أن أحدثك عنها من خلال سرد حكايتي، وإن كانت حالتي فريدة كقريتي. لا أريد تعميم ما أنا عليه حتى لا تتناقص أهمية الحدث الذي أعيشه، وأظن أنه حقيقة على هيئة ما. في قريتي أناس بلا ملامح، فللوهلة الأولى التي تنظر بها إلى تلك الوجوه لا تصيبك الدهشة، وبعبارة أدق لا تخلق في داخلك القبول أو الرفض، بل في أحيان كثيرة تشعر تجاههم بالأُلفة، لكنك حين تمعن النظر تُدهَش من أن تلك الملامح ليست ملامح جلية إنما تلوح لك من بعد كونها طبيعية بينما هي تنضح بغيبتها وتسكن بمكان أعزل أشبه بتلك الأمكنة التي تتراءى لك في

الأحلام، فكلما أردت الإمساك بالمكان غاب في أقصى الذاكرة لدرجة أن ترضى بمواصلة أحداث حلمك في عزلة عن المكان. هذا لا يعني سرابية المكان ولكنه كما قلت لك، أشبه بالأماكن التي نراها في الأحلام، لا تكاد تخلو من كارثة. يومياً لنا حكاية تجعل المكان ساحة لمردة أو لغيب غائب. ولا يوجد لقريتنا تاريخ مسجَّل اللهم إلا حكايات سُجنت بصدور الكبار. وربما يعود عدم الاكتراث بها لكونها قرية خارج دائرة التجارة أو ممشى القوافل، تدثَّرت بتلال رملية من ثلاث جهات، وفتحت جهتها الشمالية لواد غزير المياه يتحول في مواسم الأمطار إلى عذاب ماحق، وعندما تنضب مياهه يتحول الى مساكن للبعوض والحشرات الغريبة، وغالبا ما تتغذى هذه الحشرات على أجسادنا، أو دوابنا. وبالتجربة غدت بيوت كثيرة تهيئ أضحيتها لهذه الحشرات، ويستعد كل بيت لفقد أحد أفراده. يبدأ الوداع بحمى خفيفة تعتري المصاب ورعشة يصاحبها غثيان واحمرار في العينين، ويلتهب جسد المريض بحمى متكبرة لا تقبل التطبب ولا تغادر الجسد إلا بإطفاء الروح في لحد عميق.

وغار ذكر قريتنا لكونها ليس لديها شيء تمد به يدها للآخرين، فلم يحتاجوا إليها، ونسوها في مكانها، وظل أهلها يزرعون ما تيسر من الحبوب والقطن وقليلاً من الفواكه والحمضيات، إلا أن نتاجها الزراعي لا يكفي أهلها فتملأ بطنها بحشائش استطابها أهل القرية وغدت من مكونات غذائهم اليومي من غير تحرُّز أو تهيُّب من أن تحوِّل أمعاءهم الى حبال متداخلة. وليس فيها حرفيون يمكن لصناعتهم أن تجعل العيون تقف على مدخلها الشمالي وتدفع الطالبين لتمهيد الهضاب التي تحتضنها كما تحتضن الأم وليدها، كما يحدث مع بعض القرى المجاورة التي اشتهر بعضها بالخزافين أو الحدادين أو النجارين أو الذين يجلون الفضة والذهب. قرية تتبرز أكثر مما تفكر، فظلت كعجوز عاقر تجلس كل صباح لاستقبال الشمس وتودعها مع الغروب. ليس أمامها سوى المكوث

تحت أشعة الشمس أو الهروب منها صوب ظل تنعم فيه باجترار أيامها ووساوسها.

وهي هكذا لم يكن لها في يوم من الأيام مفخرة يمكن أن تتقدم بها للغير أو أن تسوقها أمامها إذا جدَّ الجِد أو إذا ذكرت المحاسن فتتسابق القرى لذكر مآثرها، ولهذا ظلت غائبة عن كل شيء. وعندما تذكَّرها الناس تذكَّروها بحادثة سيئة وغدت عيرتنا في التجمعات، وتلبن الناس بتلك العيرة حتى أن شيخنا كان يتلثّم إذا حضر مناسبة في أي قرية من القرى المجاورة بسبب تلك العيرة.

يقولون إن شيخنا أراد إظهار مقدرة شجاعته فحمل بندقيته الجرمانية واخترق الأحراش باحثاً عمن أحال أمن القرية إلى نهب متواصل. وعندما توسَّط المكان وجد نفسه محاصَراً بأربعة من لصوص الوادي، فسلبوه بندقيته، وحلقوا ذقنه، وجردوه من ملابسه بعد أن وسموه بميسم على هيئة نصف دائرة. ومنذ تلك الحادثة تغير اسم قريتنا وغدا الناس يطلقون عليها «قرية أبو ميسم».

وبين ليلة وضحاها خرجت هذه القرية من شرنقتها، وتردد اسمها على شفاه الناس حيث خندق بها جيش الإمام البدر، وقد أفاقت القرية على دخول سيارات فأصيب الكثيرون بلوثة تلك الآلة التي تسابق الخيول، ومن استطاع تحمُّل الصدمة لم يقدر على تحمل أولئك الغرباء الذين نزحوا إليها بأعداد كبيرة. وكانت فرحة الكثيرين مضاعَفة حين رأوا التموينات الغذائية الغريبة تهلُّ عليهم من كل حدب وصوب. ومن ذلك الصباح غدت قريتنا عاصمة القرى المطلة على الوادي. وبعد انتهاء الحرب غادرها من جاء إليها، وعادت تسترجع وضعها الأول بمثابرة عنيدة. وانتهز أبي ذلك الوجود، وغدا مراسلاً بين الجيوش المتناثرة هنا وهناك، فاكتسب حظوة لدى بعض القادة. وعندما مضوا نسوه لكنه لم ينسَ حلمه الذي عاش في مخيلته فواصل العمل ليلاً ونهاراً لكي يحقق

رغبته في رؤية أهل القرية يقدمونه في مناسباتهم ويبجّلونه بلقب شيخ. وتنازل عن هذا اللقب الوضيع طمعاً في تسميته شيخَ المشايخ، وتخلى مرة أخرى عن هذا اللقب مقابل لقب لم يَبُح به وظل ينخر هامته إلى أن أوصله للخَرَس.

وفي كل مرة يبتعد عنه اللقب ويتقدم به السن، يغدو ارتقاء سلَّم الألقاب العالية أكثر صعوبة مما مضى حيث تضيق فسحة الوقت، وتتطاول الرقاب الباحثة عن فضاء لأعناقها.

وكلما تقدم به العمر زاد شبقه لبلوغ مراده. ظل على هذه الحال مثابراً وميقناً من بلوغ هدفه. كان إذا اختلى بنفسه سرَّب هواجسه صريحة:

- سأجعل هؤلاء الكلاب يندمون على تأخر وصولي للكرسي.

بعد رحيل الجيش بادر أبي - وكان آنذاك قد بلغ الثلاثين أو زاد عليها قليلاً - بإحداث تغييرات جذرية. غاب شهوراً بحجة أن المسؤولين طلبوا مقدمه ليكافئوه على مواقفه البطولية، وعندما عاد من جدة كان يحمل معه بزاً ومعلبات، ويقال نقوداً كثيرة. ويبدو أن ذلك كان صحيحاً، فقد طالب بالمشيخة من غير أن يكون لأسرته في يوم من الأيام أي دور يُذكَر. التغير الذي أحدثه أبي - وحدث ذلك في زمن متأخر - جلبه لبعض العمالة ليعملوا في قريتنا، ومن هناك تعرفنا إلى عادات وتقاليد جديدة انتشرت بالقرية انتشارَ النار في الهشيم.

وكادت تحدث كارثة حين خرجت إحدى صبايا القرية وهي متَّشحة بلباس جلبته لها إحدى زوجات أحد المدرسين المصريين.

جاءت المدرّسة مع أبي الذي لم ينتدبه أحد لهذه المهمة، ولكنه جلبها عن طيب خاطر ظاناً أن عملاً مثل هذا سيجعله مقدَّماً بين أهل القرية. وظل كمكوك لا يمل من التردد بين الرياض وجدة حتى جاء ذات صباح يصيح بالقرية:

- لقد جئت بأمر يقضي بفتح مدرستين في قريتنا: واحدة للأولاد والأخرى للبنات.

استهجن الكثيرون صرخاته واستقبلوه باللوم:

- ظننا أنك جئت لنا بكنوز الدنيا تعويضاً عن الأضرار التي ألحقها الجيش بمزارعنا...

- مدرسة! وهل أخبرك أحد أننا نفتقر للمدرسة؟

- وماذا يفعل السيد هاشم في الكتّاب، وعبد الرحمن الشرقي في المسجد، أم أنهما لا يعجبانك.

- ومن غير خجل تقول مدرسة للبنات! هل تريد إخراج بناتنا يا فاسق!

ربما شتمهم وهو يحاول إفهامهم بأهمية مثل هاتين المدرستين. ولم يكن الأمر في حاجة لتليين مواقفهم، فقد جاءت المدرستان كأمر واقع، وظلتا فترة طويلة فارغتين من الطلاب والطالبات وتقوّضتا بعد تلك الحادثة التي كادت تحرق أحلام أبي في مهدها.

جاء لمدرسة البنين ثلاثة مدرّسين مصريين وسودانيان وعراقي وأردني، ويبدو أن الأمر أُسند لأبي فأخذ يبحث لهم عن مكان تقام فيه المدرسة. وعندما لم يستجب له أحد اقتطع من بيتنا مساحة وأقام بها عشتين ظلّتا فارغتين بينما تقاطر الصِّبية والصبايا إلى السيد هاشم في الكتّاب غير مكترثين بتلك الإغراءات التي قدمها أبي لمن يسجِّل في المدرستين القائمتين في وسط فناء بيته.

وقد أرادت إحدى زوجات المدرّسين المصريين أن تتودد لإحدى الصبايا فمنحتها قارورة عطر وفستاناً عاري الأكمام، فحدثت الكارثة التي حركها السيد هاشم عندما أشار إلى أن هؤلاء المدرِّسين جاؤوا لإفساد ديننا ودنيانا، وضرب مثلاً بتلك الصَّبية التي ارتدت فستاناً عاري الأكمام ووضعت عطراً يفوح في كل القرية محرِّضة على الزنى، ليرتفع صوت

عبده شوعي مقسما إن الفتنة حلت بقريتنا وجرَّم أبي لإقدامه على جلب مثل هذه النوعيات من البشر المنحلّين.

وكادت البنت تُرجَم لأن الشيخ عبده أفتى بأن من تشم رائحتها فهي زانية. وهوَّن أبي الأمر على أبي الصبية الذي خشي على ابنته من تنفيذ ذلك التهديد، إلا أن كل الكلمات التي دلقها أبي لم تكن كفيلة بجعل الرجل يبلع هلعه فغادر القرية ليلاً من غير أن يشعر به أحد.

وعندما لم يجد أهل القرية ما يلوكونه وقفوا مجتمعين على بيت القاضي مطالبين بطرد المدرّسين وإغلاق المدرستين. ولم ينتظر المدرِّسون قرار القاضي فعادوا من حيث أتوا، وظلت العشتان المفتوحتان تعبرهما الريح حتى قوضهما أبي وأعادهما لفناء بيتنا.

يومها ثارت ثائرة عبد الرحمن الشرقي واتهم أبي على الملأ:

- صالح التركي رجل يميل للمذهب الزيدي، ويريد الإفساد في الأرض.

وظن العسكري موسى أن تهمة الشيخ عبد الرحمن الشرقي لأبي تتعلق بمحاباة سياسية، فربض على باب بيتنا حتى قدم أبي فوقف أمامه محذّراً:

- لم تنته بعد فتنة الحرب، وإذا كنت مع الجمهورية فسوف أقودك للرياض لتعرف أي جرم اقترفت.

لم يكن متوقَّعاً ردة فعل أبي الذي جذب غصناً يابساً من سجف جارنا أبي حسين وانهال عليه ضرباً:

- أوَتجرؤ على مخاطبتي هكذا يا كلب!

ونشب بينهما عراك، احتار في فك نزاعه مشايخ الوادي: فمجموعة ترى أن موسى يمثل الدولة، واحترامه واجب، وفرقة أخرى ترى في صالح التركي متحدثاً باسم القرية مع الدولة وممثلاً للدولة في كثير من القرى، وهو أحق بالاحترام من رجل يقضي وقته في السُّوق بدلاً من

القيام بمهمته التي أُوكلت إليه. وانتهى الأمر بالانتصار للبزة العسكرية التي يرتديها موسى وباعتذار من طرف اللسان ارتضى موسى أن يتمتم به أبي لدرجة أن أحداً لم يسمعه، ورضوة عبارة عن بغلة صغيرة وريال مجيدي. ولا زال موسى يضمر لأبي الضغينة إلى أن قدم الأمير فأسرع للتشفي منه وإظهار ما كان يضمره له من سنوات طوال.

* * *

لم يبع أبي بقرتنا كما كان مقرّراً ليذهب لعدن. بقيت بقرتنا في دمنتها، وجاء أبي يحمل مالاً كثيراً وأمطر به والدتي التي لم تجرؤ أمام فرحته على أن تسأله من أين له بكل هذه الأوراق النقدية، وإن كانت عيناها تشيان بقلق وريبة من تلك الأوراق. وبعد أن هدأ قليلاً هممت:

- رائحتها نتنة يا صالح.

هاج فجأة، وقفز من مكانه صائحاً:

- إذ متُّ فستبحثين عن هذا النتن بجسدك!

دُهشت لهذا الرد البذيء، وهزت جذعها مشيرة باتجاهي:

- وهذا، ألن يتكفل بي؟

- أظنه بيضة فاسدة!

- لا تنسَ أنك قلت إنني كأنثى العنكبوت، وسأظل كأنثى العنكبوت.

- الزمن القادم ليس به خيار: إما أن تموتي بقيمة أو تموتي مجاناً.

- أي زمن تتحدث عنه؟

- أنتِ أشبه بالدابة التي عليها أن تمضغ ما يقدَّم لها أو أن تخرج للبرية علها تصطاد نبتة هاربة من هذا الجفاف.

- وأنتَ أشبه ببئر لم يبق بها سوى الغبار.

صرخ بها محتدّاً:

- أنا، أنا أشبه بحبة قمح أينما جرفتني الريح أنبت.

هزت كتفيها ساخرة، وخرجت فبقي كمرجل يدلق فورانه على جَنَبات شدقيه. وعندما لم يهدأ جذبني من مقدمة رأسي وانهال عليَّ بالضرب، لتتمدَّد صرخاتي مستغيثا بالجارات اللاتي امتنعن عن تلبية تلك الاستغاثات. وأمام ضرباته المتوالية تمنيت مقدم مسعدة قبل أن ينسى في فورة غضبه أنني لم أعد أقوى على تحمل ضرباته الهوجاء.

***

أقبح شتيمة وجهها إليها على مدار حياتها حينما عاد محمَّلاً بكل تلك النقود، وحينما استرابت منها. كان رده يفتقر للياقة ويجحد السنين التي أمضتها بجواره مطببة صابرة:

- إذ متُّ فستبحثين عن هذا النتن بجسدك!

لم تعبر شتيمته هذه كالعادة، فلأول مرة تحزم بقشتها وتخرج لبيت أبيها غاضبة. لم تغضب كثيراً حينما رمى عليها طلقة اليمين عندما كان متهيجاً لإقراض الزرّاع. قبلت عذره حينما أقسم إنه لا يذكر تلفظه بالطلاق. في تلك الأيام كانت لا تزال شغوفة به، لا تزال تبحث فيه عن فارس يُخرجها من رتابة الوقت، ويعمر رأسها باللذة، ولا زال فتياً تتسابق عيون الصبايا لقطف عينيه الشاردتين. هذه المرة شعرت بأنه هدَّها بمعول صلب. كانت تجلس في الليل وحيدة، تخرج من بين فكيها الكلمات من غير أن تدرك:

- ما الذي حمله على كل هذه البذاءة؟

ربما لم تكن تحمل له إرثاً من الذكريات المُرَّة، كما تحمل ذاكرتي، فله معي تاريخ مجيد من القسوة والعنف. أتذكره كالأوحال المنسكبة لا يتورع عن جرف أي شيء حينما تعصف النار بأوردته. كنت أتساءل: لماذا يصفها بأنثى العنكبوت؛ تلك الأنثى التي تجلس على البيض ولا تأكل خشية نزول القاذورات على بيضها، وإذا فقست تموت من الجوع.

هذا الوصف يبرّئ نيته من اتهامها بتلك الجملة السافرة القبيحة. ما باله يجري على جسدها وأعصابها من غير أن يترك كلمة اعتذار صغيرة تزيح كمَّ القاذورات التي يسكبها من فمه بين الحين والأخر؟

لـم تطل غيبة أمي، فقد عادت أكثر ضراوة، وأقل صبراً حيال انفعالاته وكلماته الحارقة، وارتفع صوتها قليلاً قليلاً، وعرفت كيف تترك أوامره معلّقة في أوقات كثيرة.

ربما أبقت شيئاً من الأمس لداخلها، داخلها فقط، كي تستطيع مواصلة السير في حياة لم تعد تحفل إلا بصراخه ونهمه في البحث عن المال.

حين كنا في الأحراش شعرت بأن في الأمر سراً غامضاً.

ففي تلك الليلة بالتحديد، سرى في خاطري يقين بأن قلبيهما تآكلا ولم تعد خفقاتهما متناغمة.

هل أتبعها. عندما عاد كان مهيضاً يتلفف بأردية غامقة ويحوم كأنثى البعوض، له زنة أكثر فجيعة مما مضى. لم تعد تنكفئ عليه، وتعبث بشفرتها في عضوه المرتخي كنبتة نزعت سيقانها عنوة من تربة خصبة، فأخذت تحاول مواصلة الاخضرار مع علمها المسبق بضمورها الوشيك. لم تعد تفعل ذلك، بل أصبحت متضجرة من أناته تتركه في عشتنا المحشورة بين حشائش الحلفا وأشجار الأثل والرديف وتدس جسدها في تلك الأحراش غير عابئة بأفعى متطفلة أو عقرب هربت من لزوجة الأرض بحثاً عن أمان بين تلك النباتات والحشائش المتزاحمة والملتفة على بعضها وكأنها تتستر على جريمة اقترفاها معاً، وتواطآ على عدم البوح بها، والاكتفاء بتعبيرات الملامح المعكرة.

كانت عشتنا ترتكز في عمق الأحراش، لها باب واحد يختبئ خلف كومة من أشجار السلم، وتتواضع قامتها حتى تجبر داخلها على طأطأة هامته ليس إجلالاً وإنما رهبة مما قد يجد داخلها. هناك تستقر أريكتان

متهدلتا الحبال يغطيهما فراشان عاث بهما الهواء والمطر والشمس فتركتهما جثتين التصقتا بحبالهما فلم يعد يميّز أيها الحبال وأيها الفراش، ومخدتان حافظتا على صحتهما برغم الهزال البادي عليهما، وأشياء تذكِّرك بسقط المتاع. وربما يتبادر للذهن أنها أشياء تم التقاطها من الدروب التي تستقبل فائض أثاث البيوت بعد أن مل أصحابها من استعمالها: كوز مشقوف، ودبية بلا هزاز، وكدّان جُز رأس إحداهما وبقيت الأخرى بلا أذنين، وخياطي، ومغراف نحاسي، وصحن مستدير اعتلى الصدأ جوانبه وواصل الزحف صوب قاعدته. لا شيء البتة يؤكد شائعة أكياس الذهب التي عاد بها من الرياض.

يعيشان في هجران عاطفي، يتحدثان ببرود، وينتقلان مع الشمس، تقلبهما من غير أن يقترب أحدهما من الآخر. في أحيان ألمحه يقترب منها فتقف الكلمات في حنجرته فيعود صامتاً متطلعاً نحو رأسه المدلَّى على صدرها وهي تخبز قرصين من الحنطة. ألِفَ الكلمات الحجرية، ولم يعد قادراً على أن يحطمها في فمه ليتواصل مع امرأة كان يسرق متعته من جسدها ولا يكف عن هذا الذنب الذي اعتاد عليه.

كنت ضحية هذا الصمت، فهما يعيشان كحجرين جمعهما جبل واحد، ولا فكاك من تجاورهما فأبقى بينهما ممراً كي لا يحتك أحدهما بالآخر.

قبل أن يمطر بينهما هذا الصمت، كنت أجد نفسي على لسان واحد منهما، حتى وإن كان ذكري بتلك الصورة لا يُرضيني إلا أنني كنت أرف ببالهما.

في كل مرة - من تلك المرات التي يأتيان فيها على ذكري - كنت أشعر بهما يقتلانني بالفعل الماضي. حديثهما عني ماضوي، غالباً ما يردد أبي مقولات تُشعرني بأنني ماض في حياته. آخر مقولاته التي سمعتها - حدث ذلك في وقت مبكر - وهو يحدث أمي:

- كان ولداً يشي بمستقبل بائس.

وضرب المقعد الذي يقتعده متحسراً:

- لو أنني نفذت نذري مبكراً لربما نجا!!

وفي مرة أخرى قال لها:

- قلت لك لا تعولي عليه كثيراً، احتسبيه...!!

وفي إحدى الليالي بينما كنت أوهمه بأني نائم سمعته يخاطبها:

- منذ أن خرج وهو نبتة مصفرَّة، لا يمكن لها أن تثمر.

هكذا، كل الكلمات بعيدة ليس لها صلة بي، وإن اقتربت تحاول التخلص من إثم ارتكباه، ذلك الإثم هو أنا! فبينما يعيشان في حياتي وأشعر بهما، أبقى أنا خارج حدودهما، خارج اللحظة التي يعيشانها.

في هذه الحرب غير المعلَنة، كنت أجلس بينهما حائراً. الليل يتحول إلى عذاب بطيء، فحين يأوي كل منهما إلى مخدعه، أعجب لغياب مرقدي، فلم يكن بالعشة سوى مخدعين افترقا، واستقرت كل أريكة في جانب من العشة، فأظل كهرّ غير مرغوب فيه، يموء، ويتمطّى، ويعبث بمخالبه، ويرفع رأسه تجاه تلك العيون المنطفئة، ولا أحد منهما يلتفت إليه.

يطرأ في بالي أن أسألهما: أين سريري؟

وعندما وجدتهما لا يكترثان بما أقول حامداً أو ساخطاً، ارتضيت أن أعيش معهما مهمَّشاً. كنت أرقب الأشياء عن بعد أو قرب، فالأمر بالنسبة لهما سيان. فهما يتصرفان وكأنهما يقطنان هذه الأحراش بمفردهما. حتى عندما خرجا من القرية لم يصطحباني معهما. أذكر أنني أنا الذي كنت أتبعهما من غير أن يشعرا بي. ربما نسياني!

بعد مقدم العسكري موسى، وعودة أبي بتلك الحالة الفاجعة، استشعرت بأن هذا الذي ملأ الوادي نجوماً من أحلام، غدا ينتظر حلماً

بسيطاً، أبسط من رفة جناح طائر.

غدا يحلم بأن يقول كلمة واحدة، ربما كانت كلمة اعتذار لتلك المرأة التي أضناها طويلاً.

***

للتوّ عدت من الموت.

أذكر هذا جيداً...

لستُ واهماً البتة.

لم يدَّعِ أحد أنه مات وعاد. أنا أدّعي هذا، ولست كاذباً في ذلك. فنحن نتباعدَ في فهم الحقائق، ولكل منا مفهومه للحقيقة المجمع عليها. قد نختلف في أمور طفيفة أو عظيمة، حول تلك الاختلافات التي نصنعها، نحن نصنع حقائقنا وفق موروثات تؤثّر في رؤيتنا، وتثبيت دعائم الحقائق المطلقة.

الحيادية تمنحك فرصة أن ترى بعين صحيحة، الغريب أن إيمانك بنهج ما يدفعك لتصديق وقائع مستحيلة، وحين تأتيك تلك الوقائع من خارج نهجك ترفضها رفضاً قاطعاً.

ربما تظهر لوزتاك وأنت تصرّح باختلافك حول جدارة لاعب ما بالانضمام للمنتخب، بينما يضمر فكاك في القضايا التي تقودك نحو الهاوية. هنا تفضل أن يكون رأيك حبيس جمجمتك، لا تريده أن يخرج البتة حتى أنك تقضم على لسانك خشية أن تسهو فيتسرب من بين فكيك في غفلة منك.

منذ طفولتي، وأنا أشعر بأنني أحمل سراً عظيماً. كنت أخشى أن أتحول إلى مشهد يثير الرعب بين الناس، أو أن أكون سخرية يتلهى بها أولئك القرويون السذَّج. لكنني تعبت، تعبت من حيرتي، وتعبت من الأحداث التي تعبرني من غير أن أجد لها تفسيراً أرتاح إليه، ينسيني هذه المتاعب المتداخلة.

لم أخبر أحداً بما حدث. كان سراً عظيماً يعشعش في داخلي، وكلما نازعتني نفسي لإخراجه وبّختها وأغلقت عليه كل المنافذ.

هناك حقائق عديدة يجمع عليها الآخرون ونراها وفق رؤيتنا حتى وإن لم نصرّح بذلك، لكن الحقيقة المجمع عليها هي الموت، وهذا الموت له حقيقة أخرى عندي؛ حقيقة أنني عدت منه. ربما لم يكن موتاً كاملاً لكنه حدث وشعرت بنفسي خارج الزمان والمكان. لم يداهمني نعاس فتوهمت أو هلوسات غيبوبة، لا لم يحدث شيء من هذا، بل رأيت نفسي متأرجحاً فوق هامات الناس، وقبل أن أحلِّق بعيداً عن جسدي المسجى عدت بسرعة مهولة.

أنا وأبي نتبادل الموت.

هو ميت خارج حلم لم يتحقق، يبحث عن زمن خصب ليزرع نفسه كرجل له نفوذ وسلطة؛ يبحث عن وجوده الذي يراه في أن يتحول إلى سيد مطاع الكلمة، وفي كل محاولاته للوصول للوهم الذي عشعش في مخيلته يسقط من حياته غير المستطابة ويواصل حياة ميتة خارج أحلامه. حين يدخل لأوهامه يغدو نضراً بهياً متدفقاً حيويةً ونشاطاً... هذا البحث عن الحياة التي يراها تليق به جذبه لدروب لم أحبذ له العبور منها. سلك دروب النفاق، والدسائس، والحيل. لبس كل الأقنعة. هل الحياة فيها من الخسة ما يجعلك ميتاً هنا، وحياً هناك؟

الآن أقدّر هَوَس أبي بالسلطة.

- نحن لا نحيا في الحياة بل نموت فيها.

ربما تلتبس عليك هذه الجملة. وللإفصاح عن مكنونها أقول لك:

- إن عِشْقَنا لشيء ما: امرأة، مال، عادة، أو أبناء، هذا العشق هو فناء أو موت في هذا الذي عشقناه، حيث يتحول المعشوق إلى بؤرة نُفني ذواتنا فيها. وخارج هذه البؤرة نشعر بمرارة الحياة وعدميتها، وتتحول حياتنا إلى نَفَس يصعد ويهبط من صدورنا بينما الذات مقبورة في المفقود

الذي يمثل الحياة لنا. وهذا موت لا نعترف به كالموت الذي يذوب فيه الجسد.

وفي بحث أبي الدائم عن النفوذ، تحول إلى رجل مناوئ للسلطة من غير أن يفهم معنى المناوأة أو الرفض بمفهومه السياسي. فقد كان رجلاً يبحث لنفسه عن دور يرفع به عن كاهله تلك النظرات الشوهاء التي طالما رمقه بها أهل القرية. كان يقول إنه يحس بنظراتهم تَحُتُّ لحمه كشفرة مهمتها تقطيع جلده نتفاً نتفاً، وتترك دمه يتلبد على جسده، وتمضي - تلك العيون - غير عابئة باعتداده، هذا الاعتداد مردُّه نقيصة يحملها في داخله، فكلما حاول نفض غبار تلك النقيصة ذكّره بها أحدهم:

- من أي قبيلة أنت؟

حاول الانتساب لأكثر من قبيلة، ووجد أن كل القبائل تعرف أفرادها فرداً فرداً، وتلفظ الطارئين كما يلفظ البحر زبده. وظل يطارده اسم مدينته أينما اتجه، فقد لُصق باسمه وأبى الفكاك، فعندما يسرد اسمه كان يحاول إطالته بوضع أجداد لا علاقة له بهم كي لا يصل إلى لقب التركي أو الباشا، واستبدل لقب التركي بأسماء عديدة لكنه سرعان ما ينسلخ منها أو تُسلخ منه.

جاء جده الرابع في حملة تأديبية للمنطقة فطاب له المقام، وتزاوج مع إحدى القبائل المتواطئة مع النفوذ التركي، فكان نسله يتنامى ببطء فلا يلد له إلا ولد واحد، واستمرت عائلتنا في مد أجيالها المتلاحقة بابن واحد لكل أب، وأراد جدي أن يكسر هذه القاعدة فنافح عشر نساء من مختلف بقاع الأرض، ولم يكن نصيبه من هذه المنافحة سوى أبي الذي جاء من امرأة مقطوعة وذات نَسَب متواضع، وظل يوصي أبي بمد جسر العائلة. ولم يكن نصيب أبي أفضل من أبيه فقد جئته هزيلاً، وبعد دخولي الحلم متُّ، ولكنني عدت من موت حقيقي لكي أواصل مدَّ هذه الأسرة

بالابن المرتقب (ربما كانت ميتتي كسراً لتلك الحلقة الهزيلة). عندما شببت عن الطوق خشي أبي أن أكون كلالة، ويصمت لحظات ويردد:

- كلالة كلالة أفضل من أن يأتي حفيدي ويناطح عقولاً سقيمة مثل هذه التي أناطحها.

وبعد تلك الحادثة يئس تماماً من مد جسر أسرته وأيقن أن نسله توقف عنده، وكان يقول:

- أجزم الآن أنه مات فعلاً.

بحثه عن دور وسط قبائل متضاربة لحمل راية القرى النائمة على الوادي، جعله يقدم على فعل أمور لم يكن سواه يقدم عليها. لقد أضنى نفسه وأضنى امرأة لا تشبه النساء.

لماذا يداهمُنا الموتى في مناماتنا؟
حُمْقُنا يجعلنا لا نمسك برسائلهم
التي يدسُّونها في مخادعنا.

كان الليل يضحك في سماء قريتنا، وحين يأوي أهل القرية إلى مخادعهم، تكون الحياة رثة في تلك المنامات الوضيعة. تهدل الروح بأمنيات خضر، تعرشت بحلم جرى كماء في مخادع عطشى، فالتموا جميعاً لاقتسامه، بينما كان يتسلل من بين أصابعهم المتراخية، ويغرق في العيون السَّكْرى بالنوم الثقيل.

كانت إشارتنا أن أجد بابها موارباً، فأدلف، وأغلق الباب بالمزلاج، لأجدها كعروس تنتظر فارساً غاب عن ساحة المعركة منذ أن أُعلن عن بدء الحرب!

في الليالي المقمرة تزداد شبقاً وعنفواناً. تجذبني من يدي، وتغلق عليَّ أبواب الكلام، ولا تترك كوة لكي تتسلل منها كلمة واحدة. وتعلن بدء الحرب، لأصول وأجول، أطعن هنا وهناك، والقتيل يستصرخ بي أن أواصل تعميق خنجري.

الليلة منحَتْها الحياةُ دماً جديداً، انسلخت من جسدها القديم، وتهيأت لمطر عاصف، فارتوت بماء دافق، أغرق أحلامها، وأمانيها، وقبل انتهاء الحرب بدقائق أسلمت الروح منتشية صافية من كدر الدنيا. أخذت آخر الرحيق وهي ترفرف براية الاستسلام. انتهت فجأة، وكأن الدم الجديد كان فاسداً فسمم بدنها. وقبل أن تتلقى آخر الطعنات همد

جسدها المرتعش وبرد كآنية ظلت طوال قيظ الظهيرة تترشح حتى إذا جاء الليل دلقت ماءها البارد وبقيت آنية فارغة.

بعد موت مسعدة لم يعد أحد يشعر بي. كنت كالفزّاعة نُصبت في وسط الحقول وليس لها من وجود سوى مراقبة رفيف العصافير المحلّقة بعيداً عنها. لم يعد لي من وجود سوى الوقوف كشاهد على جدب الأرض أو ارتوائها. الكل أسقطني من حسابه. أنا لست موجوداً بالنسبة لهم، وهم يعبثون بوجودي.

تُرى ما علاقة وجودي بمسعدة؟

* * *

خلاء موحش. للتو جفَّ السيل في هذه الناحية وترك أرضاً تقرشفت طينتها، وتسللت من ثناياها رائحة مطر طازج وأرض رخوة. تكاثرت الحشرات على النباتات الوليدة تحطُّ عليها بعد أن تحلّق فوق تلك الأرض اللزجة. صفت السماء، وأنارت قناديلها، وعبق الجو برائحة ندية، وهبت ريح باردة، تخترق تلك الملابس الرقيقة موصلة موجة من برد يرتعش له الجسد ويفيق للملمة عظامه.

في الصباح، وجدوها ملقاة على أريكتها، في كامل زينتها. لم يكن وضعها مطمئناً، فرجلاها المتباعدتان تثيران الريبة، والفلُّ المغطي مرقدَها يشي بأن رجلا تمرَّغ بين حبات الفل، وتلك الزينة المستقصدة. لم تشأ أي من النساء أن تلحق ظناً أو شتيمة في ذلك الجسد البارد. غطوها، وطلبوا حسينة المغسلة التي قامت بمهمتها سريعاً، وتناول نعشها المصلُّون الذاهبون للمسجد. وبعد الصلاة كانوا قد وصلوا الى الجهة الغربية من الوادي، وحفروا حفرة لم تعمَّق تماماً، وألقوها بها كمن يتخلص من إثم لازمه سنين طويلة، وعادوا خفافاً.

الوحيد الذي سكب عليها دمعة حارة كان حسين يماني، وصرَّح للمشيعين بأنه سيتقبل فيها العزاء.

بعد ليلة ممطرة، جرى فيها الوادي، جاء ذكرها على لسان أمي:

- رحم اللّه مسعدة، لقد قذفوا بها إلى الوادي، ستعري المياه قبرها وتجرفها بعيداً.

لسعني شيء ما، أحرق داخلي. هي المرأة الوحيدة التي غدوت بقية عمري أبحث عن شبيهة لها، أفني قوتي في كل النساء، ولا أجد بينهن مسعدة؛ تلك العارية من كل شيء، المجرَّدة، الصافية في رغباتها، وحممها، وأقوالها، انكفأت على سريري، فنهضت حية فوارة، لسانها الطري يسكب حمماً من اللوم:

«لم أظنَّ أنكَ عقرب، تلدغ لمجرد اللدغ!».

أفقت من تململي، وسحبت فانوساً من مخزن الأدوات الذي يستقر خلف عشتنا، واتجهت صوب الجهة الغربية.

الليل رائق، ونسمات الهواء تتدافع منتشية بطلل غمر أشجارها، ورباها، وأريج الأزهار يفوح بين تلك العقوم التي ارتفعت قليلاً عن الأرض لتحديد الحقول. سماء افتخرت بصفائها ونجومها المتلألئة ذات الوميض الحاد.

كنت أسير، وذكريات الباب الموارب تلازمني، وامرأة غنية بأنوثتها تنتظرني، تجذبني وتغلق نوافذ الكلام، تهيِّئني لمعركة درَّبتني عليها من وقت مبكر.

كان ماء الوادي طافحاً على جَنَباته، وثمة شجيرات مضغها الماء فجرت في مجراه ولم تعد محتفلة بالانتصاب أو اليباس، كانت تسير وفق جريان الماء. في مناطق عديدة تفجرت الأرض وكشفت عما تحتها، وأبقت طيناً لزباً يلتهم الأقدام السائرة. تحاشيت المرور بين الأوحال، واخترت السير فوق العقوم حتى إذا انتهيت إلى بطن الوادي انحرفت يميناً، وسلكت متعرجات بسيطة ووقفت على جرف الوادي، هابطاً نحو مقبرة أُعِدَّت بشكل سيئ. في السابق لم يكن أحد يرغب في دفن موتاه

هنا لولا أن سيداً من سادة الأشراف بلعه سيل جارف، فقيل إن هذه البقعة تُوفِّى بها أنفس الصالحين، حيث يأتي الماء ويحمل صاحبها لقبر أُعِدَّ له في الماء.

سمعت أنهم دفنوها بجوار شجرة أثل هرمة استعصت على الزمن وظلت خضراء على مدار العام. أسرجت مصباحي، وسلكت قبوراً مفجورة بانت عظامها، وجماجمها، وأجزاء من أطراف لا زال الدود ينتظر لحظات جفافها ليكمل مهمته.

هناك تقف شجرة أثل ضخمة، وأسفلها قبر كُشف وأبان جثة لا زال شعر صاحبتها طويلاً. وكامرأة تخشى أن يراها حبيبها على غير ما تحب انكفأت على وجهها. رعدة مريرة تجتاح مفاصلي، ورغبة في إعادة التراب ليغطي تلك الجدائل النافرة من قبرها. تريثت قليلاً حتى هدأ خاطري. كانت الأرض لزجة. حاولت دفع كميات من تلك اللزوجة صوب القبر، وكلما دفعت بها لهناك، ظلت الجديلتان ظاهرتين.

«لم أظن أنك عقرب تلدغ لمجرد اللدغ!».

صوتها يتضخم بداخلي، فتزداد رعدة الهلع اشتعالاً. نهضت على عَجَل، حاملاً فانوسي وقافزاً بين تلك القبور المفجورة. أحس بشيء يسير خلفي وصوت يتراقص مع وميض النجوم الكثيفة:

- لن تهرب مني أبدا!!

طَرْفةُ العين زمنٌ لا نكترثُ به.
هذا الزمن جُلِب فيه عرش بلقيس وغيّر التاريخ،
ومع هذا لا نعترف بأننا كائنات سائبة.

من عادة أبي ألاّ يمضي شيء من غير تمحيصه. يسأل كثيراً ويقف أمام الأمور العابرة يستقصي أخبار الناس، ويذرع الأماكن ويتبادل الأسرار. لم يَبُح بسره يوماً ما، ومع ذلك يظن الجميع أنهم مقابرُ لأسراره. وقد خلق هذا الظن حين لجأ إلى إيهامهم بذلك، فقد كان يحيك أسراراً وهمية ويوزّعها على المقربين منه، فيمنحونه أعماقهم ميقنين أنهم الأثيرون لديه. الوحيد الذي كان يعرف تضاريس أعماقه هو عمر أبو دربين كما كان يقول دائماً، ويبدي حسرة مبالَغاً فيها لبُعده عن صديقه الحميم.

لم يكتشف أحد من أهل الوادي عبقريته، ولم يلمّح له أحد بأنه الرجل المنتظَر الجامع لكل الشروط لقيادة قرى الوادي. وبسبب هذا الإهمال المريع تبرع بنعت نفسه بصفات عظيمة أخذ يوزعها كما يوزع أسراره الوهمية. كان يقول عن نفسه:

- أنا أشبه بحبة قمح أينما جرفتني الريح أنبت.

أصبح كالوحول المترفة باللزوجة، كلما سال في الدروب ترك تضجراً ودعاءً بأن يكفَّ اللّه عذابه. هذه الصورة التي تناقلتها أعين القرية عنه كانت معكوسة في باله، فقد كان يظن أنه نعمة مهداة وبركة من اللّه خص بها هذه البقعة من الأرض، وعندما تطرأ هذه الفكرة في مخيلته يقول لجلسائه:

- إن اللَّه حين يريد بقوم خيراً يجعل لهذا الخير سبباً، وأنا عندما أجلس إلى نفسي أتفكر في مسيرة عائلتي المضنية كيف ارتحلوا من جبال الأناضول وقطعوا الوهاد والقفار وشقوا البحار وجاوروا البيت الحرام لينسلَّ منهم جدي ويبذر نسله في هذه البقعة النائية المنسية. كل هذا لم يكن عبثاً. حدث كل ذلك لكي أكون هنا، أكون بينكم أصنع لكم حياة تليق بالبشر وترفع هاماتكم عالياً...

وفي محاولة منه لربط تسلسل تداعياته لا يلحظ تلك الغمزات المتبادَلة التي يتراشقها جلساؤه، بل يسيخ السمع لهمهماتهم ظاناً أنها استحثاث لمواصلة سرده.

في إحدى الجلسات هرب من بين فكيه حلمه الذي خبأه طوال السنوات المضنيات التي قطعها رحّالاً بين المدن والصحاري:

- سأكون أميراً عليكم.

وتنبّه حينما انطلقت ضحكاتهم عالياً، ولم يجاملوه هذه المرة بل انثالوا عليه بالسخريات:

- أمير، أوَلم تكن تطالب بشيخ شمل.

تنبّه إلى أنه فرَّط في عرض خبايا نفسه في لحظة تفكير بصوت مسموع. وأظن أن حلمه احترق بالإفصاح عنه واعتراه الضجر حينما لم يؤخَذ كلامه على محمل الجد، فقد غدا سخرية معلَنة يفصح بها الساخرون في الأسواق والمجالس. فبعد تلك الليلة التي خرج فيها لسانه بذلك القول، وبينما كان على بوابة متجره يهم بفتحه، سمع تهليلاً من الباعة وبعض المتسوقين:

- جاء الأمير!

أَحَسَّ بغبن لرعونته، وعدم مقدرته على جعل فرائصهم ترتعد لرؤيته. ربما فاضت حسرته حينما تذكَّر أن الكثيرين من رجالات القرية يصيبهم الخَرَس حين يكون بينهم الشيخ إبراهيم المحلاوي، وظل يبحث عن سر

تلك الشخصية؛ سر أن يكون محترماً ومحبوباً، فالأمر ليس مقترناً بالمال أو السلطة، فالمال يمكن أن يمنحك الحب، والسلطة يمكن أن تمنحك الاحترام بلا حب، لكن أن تجمع الحب والاحترام معاً فلهما طريق لم يتبين له بعد.

***

في حُمَّى نشوته، أخرج قصبته، ونقعها في مداده المخلوط بالزعفران، وخطَّ سطراً واحداً:

«لقد أكل الجوع والمرض قريتنا، فإذا لم يكن لكم بنا حاجة فاتركونا لحال سبيلنا».

وتحرك صوب رجالات القرية وطالبهم بالبصم، وكلما سأله أحدهم على ماذا يبصمون يجيبهم بنفرة حادة:

- هذا الخطاب سيحسّن من أوضاع قريتنا.

فيتلمّظون من خلف ظهره بعد أن يبصموا على تلك الورقة، ويمسحون أصابعهم بأطراف ملابسهم.

لم يكن مكترثاً كثيراً بتلك الغمزات التي كان يراها عياناً - هذه المرة - وأخرج مظروفاً جديداً، ونادى على خادمه معتوق ليشد له حماره. وحين بلغ مدينة جازان أودع ذلك المظروف لأحد أصدقائه العارفين بكيفية إيصال المظاريف المهمة إلى الجهات المعنية بعد أن نقده مبلغاً من المال كتحفيز للهمة، ووعده بمضاعفة هباته لاحقاً. وعاد من حينه يغشى المجالس متبختراً:

- غداً ستذكرون أنني رفعت هذه القرية من الحضيض إلى الأعالي.

كانت كلماته تتطاير في أطراف القرية وذاكرتهم تسترجع تلك الوعود التي أطلقها ذات يوم، وعاد يحمل خبر افتتاح مدرستين في القرية اللتين جاء معهما الانحلال والسفور من خلال المدرّسين الذين رغبوا في هتك حشمة فتياتهم وعفافهنّ.

ولم يَدْرِ بخلدهم أن صالحاً أحدث أمراً جللاً.

***

تقاطر الرجال صوب بيت الشيخ يحيى عبد اللّه الواقع بالجهة الشمالية من القرية، ولم يكن أحد منهم يعرف بالتحديد لماذا دعاهم الشيخ. كانت الأسئلة تسيل من بين الشفاه متقطعة:

- ما الذي حمل الشيخ على جمعنا، وحضَّ على تواجد معظمنا؟

كان رجالات الشيخ يستقبلون تلك الأسئلة برد مقتضب تخالطه غلظة:

- لبوا دعوته واسألوه.

في فناء داره الواسع، اختلط علية القوم بأسافلهم، نزهاؤهم بأراذلهم، مما أثار غيظ بعضهم:

- لو أنه جعل هذا اللقاء مقتصراً على فئة لكان خيراً له ولنا.

وقد أكثر صالح التركي من اللجاجة، فكلما هدأ القوم حفّزهم للتذمر. استجاب له قلة، ومع ظهور الشيخ سكنت تلك المماحكات لسماع سبب هذا التجمع. كانت عينا الشيخ الضريرتان تحاولان طرد قذاهما بمخلوط مكوَّن من الزر والقرنفل وحب الهيل، وكلما مسح عينيه هلَّت دموعهما مدراراً فينشغل بتكفيف أدمعه بباطن يده. استوى في جلسته وخاطب القوم:

- وصلني خبر وصول وفد من العاصمة لتقصّي أخبار قريتنا وأظنهم جاؤوا لمعرفة احتياجات قريتنا والقرى التي تحت إمرتنا، وقد جمعتكم لأقول لكم ألا يُظهر أحد ضعف نفسه كما يفعل الكثيرون من أبناء القرى الأخرى، فنحن في خير وعافية، وإياكم أن تفضحونا بدناءة بعض النفوس. وقد جمعتكم لأقول لكم أَظهِروا كرمكم وتأففكم من وسخ الدنيا، ونريد الرجل الصحيح والبندقية الصحيحة لكي نكون عوناً عند الحاجة، وأريد منكم...

نفر صالح التركي من المجموعة صائحاً:

- يا شيخ نحن نفتقر لأمور كثيرة، ومجيئهم أنا السبب فيه.

فضحك الشيخ وهو يمسح إحدى عينيه الضريرتين محاولاً إيقاف انهمار دموعهما، وضج بالضحك مَن كان متواجداً، حتى أن صالحاً امتقع لونه وهو يسمع استهزاء الشيخ به:

- أنت يا صالح لا تكف عن أوهامك... كيف كنت السبب في مجيئهم؟

حدق بالمجتمعين بنظرة متعالية وعمّق بصره بالحضور محاولاً تفخيم كلماته:

- لقد أرسلت برقية للعاصمة نتذمر فيها من أوضاعنا، ولا شك في أن هذا الوفد جاء لإصلاح الأمر.

قفز الشيخ من متكئه صائحاً:

- نتذمر... هل جُننت يا صالح؟

- نعم نتذمر، وهل في قريتنا ما يستوجب بعث برقية شكر.

ومنح نفسه هواءً إضافياً وهو لا زال يعمّق بصره في الحضور وتابع:

- بل طالبت بأن يتركوا سبيلنا إن لم يلتفتوا لشؤوننا.

- لا شك في أنك جُننت. فأنا براء مما فعلت ولا أعرف شيئاً عن الأمر الذي تتحدث عنه.

انطلقت ابتسامته صافية:

- وبصمتك التي وضعتها على المكتوب الذي عرضته عليك.

- هل كان ذلك مُرسَلاً للعاصمة.

- نعم.

- ألم تقل إن فحواه استعطاف ورجاء بإدخال التيار الكهربائي لقريتنا.

- لو كان استعطافاً، فسيأتي رده حين يأكلنا الدود.

- وماذا قلت فيها؟

قلت لهم: لقد أكل الجوع والمرض قريتنا، فإذا لم يكن لكم بنا حاجة فاتركونا لحال سبيلنا.

- قبّحك اللّه... قبّحك اللّه!

وصاح في المجتمعين:

- واللّهِ لقد قادنا صالح إلى نفق معتم... فامكثوا في بيوتكم وتربّصوا العقاب.

نفر المحتشدون وهم يلعنون صالح التركي ويتبرأون من فعلته، وكل واحد يُشهد الآخر على خلاء ذمته من تلك البرقية التي لا يعرفون فحواها.

وعادوا لمنازلهم يترقبون قدوم وفد العاصمة بشيء من الخوف والحذر.

***

منذ ثلاث ليال. لم يخرج صالح التركي من بيته، وتناقل أهل القرية خبراً تناسل من بين شقوق البيوت المحيطة به:

- أصيب بالفالج، فقد أصابه الذعر عندما علم أن مصيره سيكون ضربة بالسيف.

ولم يجرؤ أحد من رجالات القرية على أن يعيده. كانت زوجته تخرج متلفعة بشرشف طويل لجلب الحكيم الذي عجز عن مداواته، وقد نصحها بأن ينتقل لإحدى المدن الكبيرة. وكلما حاولتْ معه الرحيل الى جدة صاح بها:

- الدنيا تقبل علي هنا، وأنت تريدينني أن أذهب عنها!!

فتركته يئن، وجلست بجواره تغزل كوافي طلب منها أن تغزلها كهدية

لصديق عزيز قال عنه:

- هذا الذي سيوصلني الى حلمي.

* * *

كانت أياماً معدودات وانقلبت القرية رأساً على عقب. ففي صبيحة يوم قائظ هلَّ على القرية مجموعة من العسكر وعدد قليل من المدنيين. كانت تلك العريضة التي بصم عليها أهل القرية تقف على أهداب كل منهم وقد تنصَّل من فحواها الجميع واحتجوا بعدم معرفهم بما كان بها، ليقاد أبي مع ذلك الوفد ويغيب لسنتين متواليتين كنا نسمع أنه سجين المصمك.

وفي ليلة غائمة عاد مع المطر واندس بين عظام أمي، ومع الصباح اغتسل وخرج لأهل القرية. وقبل أن يقيم إمام المسجد صلاة الفجر كان أبي قد ترك بصقة واسعة أمام المصلين وخرج ليصلي منفرداً خارج المسجد... لم يجرؤ أحد منهم على الاقتصاص لنفسه ومسحوا بصاقه ولم يتركوه لشأنه، وتناقلوا صلاته منفرداً وتعليق الإمام عبد الرحمن الشرقي على تلك الصلاة:

- هذا الرجل ليس من أهل السُّنة والجماعة، فهو يصلي كما يصلي الزيدية.

وغدا حضوره للمسجد مثيراً لتوجسهم، فهجر المسجد واتخذ من بيته مصلّى.

* * *

لم يعد له من جليس سوى عبده معتوق ومذياعه. وحين يشتد به الألم يتلوّى ما شاء له، وينهض ممسكاً بشيئه دائراً أرجاء البيت لاعناً حياة تنغصها وخزات إسكاتها يستوجب الفضيحة بين الناس. كان يقول لزوجته:

- ظن هؤلاء الحمقى أنني أشتهي نساءهم اللاتي يعبرنني وأنا ممسك بعضوي.

فتهدِّئ من انفعالاته، وتلتزم ركناً دأبت الجلوس فيه للاشتغال بصنع الكوافي التي غدت هوايتها المحببة.

ذات ظهيرة وبينما كان يدير مؤشر مذياعه قفز صائحاً:

- يا اللّه كارثة.

فلم تكترث بهياجه وظنَّتْه كعادته حين يضخّم الأخبار التي يسمعها من مذياعه. نشط على غير عادته، ودخل للاغتسال ساكباً تلك المياه المتبقية في الزير من غير أن يكترث بصراخها:

- ليس لدينا سواها فلم يخرج معتوق للورادة اليوم.

خرج والماء يتقطَّر من صدره العاري، وطلب منها أن تُخرج له أفخر ثيابه. وتحامل على نفسه، واتجه للمسجد، وانتهز فرصة انشغال الإمام بالحديث مع بعض المصلّين، وسار متوجهاً إلى المنبر مباشرة. شد قامته ووقف خطيباً:

- لو تعلمون ما الذي حدث اليوم؟

كان المصلون مندهشين لمقدمه لأداء الصلاة معهم، وكان أكثرهم اشمئزازاً الشيخ عبد الرحمن الشرقي الذي سارع ونهره:

- نحن لا نرغب في صلاة الزيديين بيننا؟

- وهل تعرف معنى الزيدية؟

- هي مذهب فاسد. . .

- لم آتِ من فراش مرضي لكي تُسمِعَ لي ما حفظته من كتبك. جئت لأمر جلل.

- نحن لا نرغب بك.

- أوَتظنها بلد أبيك.

اشتط الشيخ عبد الرحمن غضباً وصاح منفعلاً:

- اشهدوا على هذا الزيدي، واللّه لأحبسنه...

ضحك منه صالح التركي:

- أنت أشبه بالتيس المخصي لا تقدر على الوثب على نعجة ضالة.

فتضاحك بعض المصلين، بينما ظل الشيخ عبد الرحمن يتقافز من مكانه محذّراً. لم ينظر إليه صالح، بل ارتفع صوته عالياً:

- أيها الناس، إنني أحمل لكم خبراً حزيناً.

تنبه الناس لكلمات الأسى التي تتقاطر من فمه، وأسكتوا صياح الشيخ عبد الرحمن متسائلين:

- ماذا تحمل يا صالح من أخبار؟

- قلت لكم سمعت خبراً أحزن العالم أجمع. واللّهِ لم آت إليكم إلا بعد أن جففت دموعي مراراً.

- يا صالح قل لنا: لقد أتعبتنا.

تطلَّع في وجوه المصلين وتحيَّن الفرصة الملائمة لإلقاء فجيعته. فبعد أن أنصت له الجميع، قلَّب بصره في مواقع عدة وباغتهم بصوت فاجع:

- لقد قُتل الملك فيصل...

قال جملته بصوت باتر، وأطلق نحيبه عالياً، فاصطخب المسجد عن بكرة أبيه، وعادوا منصتين لصوت صالح:

- أيها الناس لم يكن فيصل ملكاً لبلادنا وحسب، بل كان ملكاً على جميع الدول الإسلامية، ورحيله خسارة لنا، وأرى أن علينا أن نجد وسيلة لكي نقوم بواجب العزاء.

فعلق عبد اللّه بن أحمد:

- يا صالح لو كان خبرك لعبة جديدة فلن يسلم رأسك هذه المرة.. تنَّبه وتراجعْ ونحن كأننا لم نسمع ما تقول.

- أقول لك لقد قُتل.

وأمسك أذنه:

- لقد سمعت الخبر بأذني هذه.

- كيف حدث ذلك؟

وقبل أن يعيد سرد تفاصيل الخبر الذي سمعه قال:

- سوف أروي لكم كل شيء. وإذا أردتم أن أُحضر المذياع إلى هنا أفعل.

فصاح الشيخ عبد الرحمن الشرقي:

- يا فاسق، تُحضر الغناء والموسيقى إلى المسجد.

كانت رغبة الكثيرين عارمة لتحقيق ذلك، لولا أن الشيخ عبد الرحمن ذكّرهم بأن المذياع مزمار من مزامير الشيطان.

فاكتفوا بسماع الحكاية من فم صالح التركي، وقد مضى وقت صلاة العصر من غير أن تقام الصلاة، وكلما احتج الشيخ عبد الرحمن استمهله المصلون بحجة أن في الوقت متسعاً.

أعاد صالح التركي جملته كما هي من غير نقصان وكأنه يحفظها عن ظهر قلب:

- أيها الناس، لم يكن فيصل ملكاً لبلادنا وحسب، بل كان ملكاً على جميع الدول الإسلامية، ورحيله خسارة لنا، وأرى أن علينا أن نجد وسيلة لكي نقوم بواجب العزاء.

فنهض الشيخ ابراهيم:

- يكفي ما قمت به من فعلة خسيسة منذ سنوات مضت.

- ألا زلت تشك في أنني لم أوصل تبرعاتكم؟

تباكى كثيراً، ومسح أنفه بطرف كِمه:

- لو ذهبتَ معي للعزاء في موت الملك فيصل فسوف أوقفك على

حقيقة التبرعات هناك. أما هنا فلا يجدي الحديث.

قال حسن مغربي:

- بسببك سُرقت كل بضاعتي قبل سنوات، فماذا تريد الآن منا.

- لا أريد شيئاً. أريد منكم أن تشكّلوا مجموعة أرأسها لنذهب في التعزية والمبايعة.

رد الشيخ إبراهيم:

- لو خرجنا للعزاء فلن تكون بيننا.

- لن يستطيع أحد منكم أن يتحدث، أو يوصل تعازينا. أنا الوحيد القادر على ذلك، وسوف...

توقف عن الكلام، متحرجاً أن يمسك شيأه، فأحنى قامته وأخذ يتلوى لألم ممض عصف بمثانته، وتخلى عن حرجه وأخذ يعصر شيأه غير قادر على مواصلة الحديث، فنزل من على المنبر يتلوى من الألم، فحمله عيسى زلابيا، والشيخ طاهر الحسيني، ومضيا به لداره، وهو يتأوه من شدة الألم.

وقبل أن يخرج من المسجد صاح بالمصلين:

- أنا الذي سأرأس الوفد الخارج للعزاء والمبايعة.

***

لم يخرج أحد للمبايعة خشية أن يكون خبر صالح التركي ملفَّقاً. وحين تأكدوا من صحة الخبر كان قد مضى أسبوع كامل فلم يحبذ كبار رجالات القرية الخروج للعزاء بحجة أن مدة العزاء ثلاثة أيام وقد مضت، وعليهم أن يتدبروا من يخرج للمبايعة. وقد أجمع الجميع على ألاّ يكون صالح التركي من ضمن الوفد الخارج لتقديم واجب الولاء والطاعة.

وقف صالح في داره يشتاط غضباً وألماً ويكاد يحترق من غيظه، يدور أرجاء الدار ممسكاً بعضوه يعصره عصراً ويصيح:

- لو أقدر على بتره لاسترحت.

ويلتف التفاتة سريعة:

- هل سمعتِ أن أحداً جز عضوه ومات.

ضحكتْ نصف ضحكة:

- وماذا أصنع بك وأنت في تلك الحالة.

شاركها الضحك مقبّحاً ردَّها، فأخذت تنصحه بالوقوف على أطباء المدن. صرخ بها محتداً:

- هل تريدينني أن أغادر بعد أن استوى كل شيء.

فتبحلق في وجهه من غير أن تعرف ما الذي استوى، فقد حاولت في إحدى فورات غضبه معرفة ما يقصده باستواء كل شيء، فثار في وجهها:

- ستعلمين حين تنحني هذه الرقاب لخطواتي!!

فتعود إلى ركنها مشتغلة بكوافيها التي تراكمت من غير أن تقدم على بيعها. وفي كل مرة يأخذ صالح كمية منها ويبعث بها لصديقه عمر أبو دربين. قبل أيام قال لها:

- سيكون بيننا في منتصف شهر رجب وتتحقق كل أحلامي.

لم تعلّق على مقولته، واكتفت بالتطلع إليه وهو يعبث بشيئه، ويقضم حبة سفرجل استعصت على أسنانه. ربما تمنت أن تقول له:

- كفَّ عن أوهامك.

لكنها لم تقدر.

مع خروج الوفد كان صالح يصاحبهم كالظل، فتوجسوا منه خيفة فكانوا ينهرونه فلا ينتهر. وبِعد مفارقتهم لمدينة جازان لم يلمحوه قط، فكانوا يتساءلون:

- أين ذهب صالح؟

كانت خشيتهم أن يحدث شيء يعكر صفو مهمتهم.

***

الأخ عمر أبو دربين المحترم

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

حان موعد القطاف، وقد مهّدت لك كل شيء وفق ما اتفقنا عليه. عليك التوجه لقريتنا وسوف أعمل على التأكيد على مجيئك. فإذا جئت فكن حازماً وصاحبَ بطش تَدِنْ لك الرقاب. ننتظر مقدمك مع منتصف رجب، فلا تأت قبل هذا ولا بعده.

إياك ثم إياك أن تخلف الموعد أو وقت القدوم.

كتبه: صالح التركي

وحرره بتاريخ ٢١-٣-١٣٩٥هـ

كتب الجملة السابقة، وشد بغلته، وأخبر زوجته أنه مغادر لجازان لعدة أيام.

وافق خروجه خروج الوفد الذاهب للمبايعة، فاستشعر بعيونهم أنها تتلو رسالته التي وضعها بين صدره وثيابه، وخشي أن يدخل معهم في عراك فيُفتضح سرُّ رسالته، فحرص على أن يحتفظ بمسافة كافية تُبعده عنهم لو همّوا بالقبض عليه. كان يستبطئ مسيرتهم، فكلما رغب في تحريض حماره على السير الحثيث رأى قافلتهم تسير بتلكؤ، فعرج على كثير من القرى، وكلما عاد لطريق جازان وجد قافلتهم لا تزال تسير سير المتمهل.

ومع مدخل المدينة كان قد بلغ مقصده، وغاب عن عيونهم. وهناك استأجر رجلاً لإيصال تلك الرسالة لمدينة جدة بعد أن زوده بعنوان المرسَل إليه، وظل لأيام يدور في أروقة الإمارة حتى حصل على ورقة رسمية مختومة بختم الإمارة اختطفها وجلس يكتب فيها:

حضرة شيوخ قرى الوادي الكبير المحترمين

حضرة العسكري موسى علي القائم بمهام المركز المحترم

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

بلغنا خبر تعيين أمير على قرى الوادي مجتمعة، نبلغكم بقدوم الأمير عمر أبو دربين أميراً على بلدتكم وجميع قرى الوادي التي من حولكم، فساعدوه في مهمته. سوف يصلكم في منتصف شهر رجب ولتخرجوا جميعاً لاستقباله، فاحترامه من احترام الدولة وإياكم والتأخر، فمن يتأخر عن ملقاة الأمير فسيكون محل سخطنا جميعاً.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

حرر في ٨-٤-١٣٩٥هـ

وعاد لأهل القرية منتشياً. اليوم قرر أن يصلي صلاة الجمعة مع أهل القرية، فاغتسل ولبس أحسن الثياب ودهن جسده بدهن العود، ووضع تحت كوفيته قطف ريحان، وتوجه للمصلّى. وبعد أن أنهى الإمام صلاته، وقف أمام المصلين خطيباً:

- علمت أن أميراً قادماً وسوف يكون الأمر مختلفاً، ونصيحتي لكم أن تُعِينوه على أمره، والسلام.

كانت هذه الخطبة قصيرة ومدهشة للجميع. وقد تقوّل الكثيرون إن صالحاً غدا مسالماً ويرحب بأمير على قرى الوادي، في حين كان يسعى لأن يصبح شيخ شمل بدلاً من الشيخ يحيى عبد اللّه. وصدّق قلة مقولتَه معلّلين ذلك بقولهم:

- كل ما يقوله صالح يحدث.

وكذّب كثيرون مقولته، واستملحوا النكات على وقفته وخطبته

تلك. . . وبعد أيام كان خطاب قد وصل المركز أخذ يقلّبه موسى بين يديه بين مصدّق ومكذّب.

وقال بعض المشايخ:

- يبدو أن وفدنا الذي بعثنا به كان محرّكاً لهذا الأمر.

الوحيد الذي كان يشعر بالندم العظيم لذهاب وفد المبايعة كان الشيخ يحيى عبد اللّه الذي أخذ يوسوس بصوت مرتفع:

- مع مقدم الأمير لن تكون الكلمة الوحيدة من اختصاصي.

ويقضم يده متحسراً:

- لو ظللنا بعيداً عما يُذكِّر بنا لأمضيت حياتي شيخاً لا تُرَدُّ كلمته.

وحين قفز بباله صالح التركي تسارعت الشتائم على لسانه لاعناً:

- لعنة اللّه عليك يا صالح، فأنت سبب كل الكوارث التي تحل بنا!

***

حدث ما لم يكن في الحسبان.

استطاع الشيخ عبد الرحمن الشرقي أن يكوِّن رأياً جماعياً شمل شيوخ القرى وأعيانها بضرورة نفي أبي مستنداً في مطالبته تلك إلى أن صالحاً يسعى للإفساد في الأرض. وسرَّع من وجيب قلوبهم حين ذكَّرهم بما أحدثه صالح في الأيام السابقة، وادّعى أنه تنامى إليه خبر أوصله له أحد أقربائه القادمين من الرياض لزيارته، تنامى إليه غضب ولاة الأمر من صالح الذي تجرأ على مخاطبة المسؤولين بتلك اللغة الانفصالية، وأنه رأس سهم مدبب يُستخدم من قبل الغير لتخريب العقيدة بمعتقده الفاسد. وخصص خطبة بعد صلاة العصر - دُعي لها مشايخ القرى المتجاورة - تحدث فيها أن صالحاً فاسق، وبسبب فسقه لم يغادر العذاب القرية. ولأن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فقد دعاهم لتغيير النفس بنبذ صالح. وقد كانت تلك الجمل مستعصية على الفهم من قبل رجال القرية

حين سمعوها من الشيخ عبد الرحمن إلا أنهم تبنوها حين بسّط لهم الأمر في كون صالح التركي رجلاً منحرف العقيدة يسعى لإدخال البدع لتعاليم الدين، مستغلاً كثيراً من الحوادث التي اقترفها صالح في حياته ابتداءً من محاولته ذبح ابنه وانتهاءً برغبته في إدخال المذياع لداخل المسجد.

واستنكف الشيخ راجح بن علي أن يطرد صالحاً كما يُطرد اللصوص. ولكي لا تذهب كلمتهم أجمعوا على تبليغه بقرارهم ومنحه الفرصة لتدبر أحواله، وإذا امتنع أحيل أمره إلى جازان بتهمة إثارة النفوس والبحث عن الوسائل لتقويض أمن البلد

في الليل اندس العبد معتوق في مخدع أبي وأبلغه بذلك القرار، فنهض لبندقيته يحشو بها الرصاصات وهو يتميز غيظاً ويقسم أن يجعل الشيخ عبد الرحمن يسفح التراب من غير أن يجد من يعيد أمعاءه المبثوثة.

كان العبد معتوق ينظر إليه مشفقاً. وكلما هم بالخروج أمسك بيده راجياً منه التريث:

- يا سيدي، كل القرية اجتمعت على إخراجك، ونصيحتي أن تختبئ كما فعلت سابقاً وتعود بعد أن تتدبر أمرك.

- أوَتريدني أن أهرب؟

- في أحيان علينا أن نتخلى عن كبريائنا.

نظر إلى معتوق بصلف وتراخت عضلات وجهه:

- لقد تعلمتَ سريعاً يا معتوق. أعدك بأن تكون في وضع أفضل مما أنت عليه الآن. أمهلني أياماً وسترى ماذا أفعل بهؤلاء!

تبسّم معتوق ووضع يده على كتف أبي:

- أنا معك في كل الأحوال. الآن عليك أن تتدبر أمرك قبل أن يجتمعوا عليك.

تساعدا في حمل الأمتعة الضرورية التي نحتاج إليها في عزلتنا الجديدة، وحملاها على دابتين صحيحتين، أركب أمي إحداها بينما سار معتوق يتبع رحلتنا التي سلكت درباً مهجوراً يوصل للأحراش القريبة من القرية، موصياً أبي بألا يظهر حتى يأتيه منه خبر.

استوطنّا مرة أخرى تلك الأحراش التي هرب إليها ذات يوم خشية على رأسه أن يُفصل عن جسده. كان الخلاف قد دبَّ بينه وبين أمي حين عاد ذات صباح يحمل أوراقاً مالية شمَّتْ منها أمي رائحة دنس لم تقبل به.

وبقيا يرممان علاقتهما بكلمات مقتضبة، وكل منهما يبحث عن منفذ للخروج من عتمة النفق الذي وجدا نفسيهما يوغلان السير فيه.

في أحيان، كنت ألمحها تحاول أن تستعيد طبيعتها معه. يحدث هذا كلما رأته يتلوّى من الألم وهو يمسك بشيئه ويرج الكون بصراخه الذي يفتت القلوب الصلدة.

خمسة أيام خرجت القرية بغير هدى.

اليوم الأول

استيقظت القرية من نومها راكضة، ونصبت عند مفترق الوادي.

الفلاحون تركوا حقولهم تستقبل الشمس وحيدة، والرعاة تركوا بهائمهم ترزح في مطارحها تمضغ القصب اليابس وتنعم بيوم من الرغاء الممتد، وبائعات الملوخيا واللبن لم يخرجن كعادتهن الصباحية وهن يصحن مستجلبات الزبائن بأصواتهن اللزجة المنغمة.

العسكريان الوحيدان الموجودان في القرية خرجا يحملان بندقيتين متصلبتين ووجهاهما تتقافز منهما حيرة حادة، تحاول أقدامهما إخفاءها بالركض المتواصل.

في هذا الجو الراكض تبقَّت أشياء طفيفة تلتزم بالصمت. فعلى غير عادة توقفت الغبرة في هذا الصباح المدهش، وذاك السوق العتيق البالي التحفَ بالصمت الصباحي، وظل غارقاً بروائح الموز والشفلح والسمن، وإن استطاعت هذه الروائح أن تتسلل عبر ممراته الملتوية منتشرة بتمدد أطرافها في اتجاه الوادي... شيء ما يشي بأن الكل يسابق الغلس صوب مفترق الوادي، حتى أن الحاسي قذف برشاء الدلو جانباً وانطلق راكضاً غير مكترث بصرخات من تبقَّى على البئر طلباً للماء:

- الماء غار وكأنه أحسَّ بقدومه فذهب لملاقاته.

ساحات القرية خلت من تلك القامات المشدودة والأصوات الممتعة، وغدت البيوت خاوية من الأطفال وصيحاتهم المتعالية مما مكّن طيور «المساملة» من أن تشقشق طويلاً من غير ان تجد طفلاً يتربص بها لإيقاعها في تلك الفخاخ المنصوبة على جذوع الشجر وبين أغصانها. فالصغار خرجوا يحملون بيارقهم الملوَّنة ويسابقون ذويهم نحو المقدمة، ولم يتبقَّ داخل القرية إلا صرخات الرضَّع، وأنات المسنين الذين يزحفون نحو قبورهم بملل وألم.

في هذا الصمت - الطارئ - كانت الحياة تتأرجح بين صرخة رضيع وأنة مُسن. ومن وسط الأحراش - القريبة من القرية - صعد زفير حاد صاخب ثقب رتابة هذا الخلاء. صدر هذا من جسد ملقى على شبرية مرتفعة.

كان ذلك الجسد يئن، وحين يلمحها بجواره تنضح من جسده تلك الحمى المتدفقة بقطعة قطن وماء بارد، تنفرج عيناه ويتطلع فيها بحسرة محرضاً إياها على أن تركض صوب الوادي. وعندما يئس أطبق عليها أهدابه وأنَّ بثقل.

- لم أشأ أن يأتي وأنا على هذا الوضع.

- هوّن على نفسك.

- أنت لا تعرفين إلى أي حد انتظرت هذه اللحظة.

وكان يرتطم بصخرة العجز كلما حاول النهوض، فألقى بجسده على فراشه وأخذ يئن ومن بين زفراته كانت تخرج كلمات بذيئة يعلّقها على أعناق رجالات القرية بتساو من غير أن يستثني أحداً.

على امتداد الوادي تناثرت الأجساد في حركة دائبة، فالعيون زائغة والأفواه تلهث، وتلك الأقدام الراكضة اجتاحت كثيراً من الحقول لتتقصف تحتها زرعات صغيرة وصيحات محذرة بهلع.

حماة الحقول تلاشت صرخاتهم في هش هذه الجموع عن محاصيلهم، فكتمت غيظها وشاركت تلك الأقدام دهس ما تبقّى من زرع منتصب، ويمّموا وجوههم صوب مفترق الوادي.

يقولون:

- سيأتي - في هذا اليوم - مع الشمس.

***

عصر الأمس كان شوعي عبده يقرع طبلته بعنف وصوته يتردد صاخباً:

- الحاضر يبلغ الغائب... الأمير سيأتي مع الغلس.

ومضى يدور في أزقة القرية صارخاً:

- الحاضر يبلغ الغائب...

كان صوته يصل متاكي رجال القرية من غير أن يهتمَّ أحد لسماعه، اللهم إلا الصِّبية التفوا حوله وظلوا يسيرون خلفه مردِّدين ما يقول.

كانت لهجته تبدو أكثر حدة وتحذيراً من أي «حضار» سابق. وقد تأكد أهل القرية من جدية النداء بعد ان أطل عليهم العسكري موسى في متاكيهم وهم يتقوّتون بنهم، وأشداقهم المتكورة تكاد تطرد عروقها النافرة بصلابة وتوتر، وعندما رأوه يوزع بيارق متعددة الألوان -بعدد أفراد كل أسرة - زادوا يقيناً بقدوم الأمير.

كان موسى ينفض مؤخرته معلناً رحيله بعد إطلاق تحذيرات صارمة من مغبة عدم ملاقاة الأمير عند مفترق الوادي منهياً كلَّ زيارة بجملته التي ذهبت مَثَلاً:

- من لم نره فلن يرى الدنيا.

***

هذه القرية تذكر بوضوح قدوم أول عسكري إليها، ذاك الرجل البدين، المتقد العينين ذي الشاربين المعلقين في الهواء، وصاحب النبرة

الحادة الآمرة الذي كان يصرخ في أرجاء القرية مذكِّراً إياهم بأنه ممثل للحكومة في هذه الأرض المنسية خلف المستنقعات والأودية، فكانوا يرفعونه بعيونهم ويُسقطونه متندّرين به وببزته الزيتية. وعندما نفد صراخه، ويئس من ركونه في غرفة المركز وحيداً يهش الذباب والفراغ بينما القضايا تعبره صوب «عقلاء» القرية ومشايخها، قرر حمل حاجياته وغادر القرية ليلاً. وفي أحد الصباحات أفاقت القرية بلا عسكري يصرخ فيها مذكِّراً بأهميته وهي تضحك من صراخه.

وظلت قريةً تعتمر بأهوائها حتى جاء موسى مذكِّراً بسلَفه، إلا أن هذا عندما وجد صوته يمضي مع الريح حاول أن يندمج بهم، فقذف ببزته الزيتية وبندقيته التشيكية وخبأهما في سحّارته العتيقة واشتغل بائعاً للموز في السوق، وأغلق المركز مما أغضب دورية التفتيش القادمة من العاصمة، والمكونة من مجموعة عساكر ذوي رتب عسكرية مرموقة وحملها على اصطحاب «عقلاء» القرية ومشايخها للعاصمة. كان ذلك منذ شهور طويلة مضت، حتى أن القرية اعتصمت بالصمت والحذر، بعد أن زُجَّ بصالح التركي في أحد سجون الرياض، وأُقيل شيخ مشايخ شمل بني عمر من مشيخته لتعطيله أوامرَ المركز والاستئثار بالبت في الأمور المتعلقة بشؤون قرى الوادي. وتُركت القرية لعسكريَين يذودان مشاكلها باتجاه مدينة جازان. وعندما أطل صالح التركي على القرية بعد رحلة قصيرة لجازان حاملاً خبرَ قدوم أمير على قرى الوادي، سخروا منه. ومع هذا الإلحاح الذي أبداه موسى غدا قدوم أمير للقرية أمراً نافذاً.

ولما مضت الأيام الأولى من غير أي بادرة لمقدم الأمير، تناسوا الأمر وعادت الحياة لسيرتها الأولى. بالأمس، ومع ضربات الزقار، تحركت ذكرياتهم الراكدة، ولكي ينفذوا الأمر، ناموا مبكرين، ليستيقظوا مع الغلس، راكضين صوب مفترق الوادي.

* * *

على غير عادة، كان المركز مشرَّعاً بابه. ذلك المركز الذي أغلق أبوابه من أمد طويل، وأصبح رجل البريد - إذ كان يحمل أمراً ما وهذا نادر - يتوجه إلى السوق ويسلم ما يحمله إلى العسكري موسى الذي أصبح بائع موز معروفاً بسوق القرية، حتى أن سلعته غدت مضرباً للمثل فيقولون: كنه موز موسى!

اليوم، استيقظت القرية لتجد باب المركز مشرَّعاً. ومن خلال فرجة الباب المفتوحة لمحتْ موسى جالساً، ينفض الغبار المتكدس على بندقيته ويبلل قطعة شاش في صحن مليء بالكاز ويمررها بين مفاصل بندقيته التي أكلها الصدأ وقضم فوهتها واسترخى على زنادها، فلم تعد تطيق الحركة. وقد أخرج بزته الزيتية، وشدها على قامته؛ تلك البدلة التي أصابها القرض في أماكن عدة من طول مكوثها داخل السحارة المضيافة للفئران والجدجد، فبدت هيئته مثيرة للضحك والرثاء معاً.

جاوره في جلسته تلك مأموره الذي اشتغل بسد ثغرات المركز بطين جلبه من أقصى الوادي.

كان صوت موسى قلقاً متوتراً:

- هل صحيح سيأتي أمير لهذه الخرابة؟

ظل منصتاً يترقب إجابة شافية عن سؤاله، وعندما لم يرد عليه مأموره انقلب عليه ساخطاً:

- أوَتظننا نبيع الموز بالسوق حتى تتشاغل عني... أنا أسألك!

رمى المأمور الطين من بين يديه بتذمر مكبوت وأجاب:

- الجواب يخبر، أوَلم تقرأه؟

رد عليه بملل وضيق زائدين:

- قرأته أربع مرات ولا زلت متعجّباً.

- غداً نرى. اجلس الآن ونظف بندقيتك، ودعني أُصلحْ هذه الغرفة

قبل أن تنالنا الفضيحة أمام الأمير.

***

عند مفترق الوادي، وقفت القرية تنتظر انجلاء غبشة الليل، وتستعد لاستقبال الأمير.

كان موسى يحصي رجال القرية فرداً فرداً، وفي الشق الآخر تكفلت زوجته بإحصاء النساء. كانت عيناه تتقافزان في أعيان القرية، تتفحصان وجوههم للاطمئنان إلى اكتمال عددهم وربما لاستبيان مشاعرهم تجاه القادم. كرر البصرَ حين استشعر بفقدان أحدهم. جال ببصره متفرّساً تلك الوجوه التي تباينت سحناتها؛ منها المعتد والقلق والساخط، وبين كل تلك الوجوه لم ير وجهه فتساءل بإلحاح:

- أين الشيخ يحيى؟

فتهادى إليه صوت من بين جموع المحتشدين يُعلمه بأنه سقط من على ظهر دابته، وقد بقيت معه زوجته لتمريضه. اشتاط موسى غضباً وقذف ما بيده من زهور السكب التي قطفها من جَنَبات الوادي لتقديمها للملوّحين لمقدم موكب الأمير، وسمح لفمه بأن يتشقق بصراخ احتبسه منذ علم بهذا المقدم:

- بنفسي أخبرته بضرورة مقدمه، لكنه تمارَض، وهذا لن يعفيه من الحبس.

- قلت لك سقط من على دابته، ألا تفهم؟

أشار لزميله بجذب الشخص الذي تطاوَل عليه في الرد، وعندما وقف أمامه صاح بأعلى صوته:

- لقد مضى عهد التسيُّب، ولو عدتَ لمثل هذا الرد الفظ فسوف تجد نفسك تسحب قيودك تحت قدمي، أفهمت؟

قال جملته حازماً مما مكَّنه من إظهار سطوة البطش، وقد اطمأن

لتلك الجملة التي قذف من خلالها بكرب يعتري داخله. قطبّ عن حاجبيه حين سمع صوتاً هامساً:

- نسي صوته الذليل وهو يحرّج على موزه الخائس.

كاد يستدير صوب صاحب الصوت. فكر في أن ملاسنته مع الحضور ستُفقده هيبته، وربما أطل وفد الأمير وهو على تلك الحالة، فحبس غيظه وانشغل بصف تلك الأجساد حسب مكانتها وسِنها، في حين كانت الشمس تتسرب من معطف الليل ببطء ممل. وقد تشاغل القوم بالأقاويل:

- يقولون إنه سيأتي راكباً بغلة لها أجنحة كأنها البراق!!

- وه... أوَتظنه نبياً؟

- صه وإلا حبسوك.

- وه... ماذا قلت حتى يحبسوني؟

***

لم تفلح جهود موسى في تنظيم تلك الأفواج الراكضة من داخل القرية، فتناثرت عند مفترق الوادي في جماعات متفرقة. وبعد لأي استجابوا لصرخات موسى في التقارب وتشكيل منظومة تُقنع القادم بأن ثمة نظاماً يوجد هنا أيضاً، إلا أن حَمَلة البيارق احتفظوا بالمقدمة وأخذ شاعرهم يلقنهم ما سوف يرددونه بعد كل مقطع. وتسابق الصِّبْية إلى مقدمة الطريق لينقلوا خبر قدوم الأمير قبل وصوله إلى مكان الترحيب، وبقيت النساء مهيآت لإطلاق الزغاريد.

في هذا الجو المتأهب، والأصوات المتداخلة، والعيون المسكوبة بكل لهفة لرؤية القادم، كان موسى غاضباً لرؤية أعيان القرية محتزمين ببنادقهم بينما بندقيته أصابها الصدأ. لم تفلح محاولته السابقة في تحريك مفاصلها، ولم تعد قادرة على إطلاق حجر. شعر بالخزي حين وقف على باب الشيخ يحيى طالبا إعارته بندقية ريثما يتدبر أمر بندقيته الصدئة، ولم يمكّنه الشيخ يحيى من استكمال ذرف حججه، فقد صفق الباب في

وجهه بعد أن وخزه بجملة سرت مسرى النار في دمه، بعدها لم يسمع سوى جملة تمنى لو أن أحداً سمعها معه ليرسل بالشيخ إلى المصمك من غير الحاجة إلى تشفّ:

- وهل أنا مسؤول عن تموين رجال الحكومة بالبنادق؟

كان يتمنى لو أن أحداً شاركه سماع هذه الجملة وندم ندماً لا زال يتجرّعه بعُسر، ويتحين الفرص لأن يعيد الشيخ جملته تلك. وعندما لم يره ضمن المستقبلين شعر بفرح وهمس بداخله:

- لقد وفَّر عليّ عناء البحث عن وسيلة للإيقاع به.

سرحانه مكّن بعض الصفوف من الزحف من أماكنها وتغيير الوضع الذي ارتضى به. وفي الحال استعاد يقظته وصاح بهم:

- واللَّه من لم يحافظ على مكانه كما رسمته له ليكون جزاؤه الجَلد بقايش العسكر!

تهامس بعض المجتمعين عن تغير نبرات موسى الآمرة، مستغربين ذلَّه طوال السنوات الماضية. كيف انقشع عن رجل متسلّط بلسان بريت حتى غدا كرأس الإبرة، ينغز من يشاء من غير تهيُّب أو وجل.

هذا الاستنكار كان يقف له جواب صريح اندلق من فم حسين جبريل:

- هو يعلم أن السلطة إذا جاءت جاءت ومعها أصواتها.

عادت الصفوف إلى مواقعها الأولى، ولم يكن تهديده سبباً في عودة الصفوف إلى مكانها، بل رغبة من المستقبلين في رؤية الأمير من غير زحام يُغيِّب عليهم مشهداً سيرونه ضمن الأحداث المهمة التي عبرت حياتهم. فسرعان ما استعادوا وضعهم السابق. ففي يمين المقدمة ظهر أعيان القرية محتزمين ببنادقهم الجرمانية ذات المعبر الضخم متمنطقين بمعابر عديدة، تعتلي رؤوسهم طواق مختلفة الأشكال والألوان. وفي ميسرة المقدمة ارتصَّ ذوو المهن المهمة في القرية كالنجارين والحدادين

وذوي الأراضي المحدودة من الفلاحين. وفي وسط المقدمة جلس الطبالون والمداحون ورماة البنادق مبقين فرجة تبين جمهرة الحضور، بينما شكلت النساء قوساً خلفياً نشزت عنه زوجة موسى وهي تؤدي دور زوجها نفسه وتبدي ترفُّعاً على النساء القرويات، ولم ترشَّ على إحداهن مطر وجهها، فقد ظلت عابسة واجمة وكأنها مُقْدِمة على كارثة ليس لها خيار من تفاديها، تشيح بوجهها ذات اليمين وذات الشمال وتسترخي عضلات وجهها قليلاً كلما تلاقت عيناها مع عيني زوجها المنشغل بتهدئة الجموع المائجة والتي كان يصفها بعالي صوته:

- يا بقر، لم يحن وقت الطرح بعد!

ويتراجع عن هذه الشتيمة إذ أحرن أحد من علية القوم بتقديم اعتذار مبتسر:

- كان علينا أن ندعو نخبة القوم بدلاً من أراذلهم.

فجأة، أحس موسى بأنه غير قادر على السيطرة على الأفواج المتدافعة. فقد شبَّ جدل حول من يتقدم بالسلام على الأمير أولاً. وبعد شجار طويل ومناقشة طويلة كان خلالها يسعى لتقريب الآراء المختلفة، رضوا بأن يتقدمهم خطيب الجمعة الشيخ عبد الرحمن الشرقي، فهو - على حسب إجماعهم - يجيد الكلام النحوي، وله فصاحة اكتسبها من وقوف المنابر وخطب الجمع والأعياد؛ تلك الحصيلة من الخبرات سوف تُسعفه حين يتلعثم. هذا الاختيار لم يَرُقْ لإسماعيل المؤيد فاحتج:

- أنسيتم ماذا فعل بنا في صلاة الاستسقاء؟

كان اعتراضه يمكن أن يكون محل تفاوض لو أن الأمر توقف هنا. فقبل أن يعلّق أحد على مقولته ظهر أصحاب الحقول المجاورة لمنطقة الالتقاء متذمرين على ما حاق بحقولهم من عطب؛ تلك الحقول التي تقصَّفت سنابلها تحت أقدام المستقبلين. قال أحدهم لموسى:

- مه. . . أميرك سيعوضني بدلاً عن الوجيم التالف؟

- حسَّك عينك تتهرج.

سرقته كل العيون المحيطة به فتراجع على الفور:

- كنت مازحاً، فلو تلف محصول العام كله ما زادني ذلك إلا غبطة.

خفّت لهجة موسى قليلاً وقطم الكلمات قطماً:

- هه... ظننت أن لك رأياً آخر.

من عمق الوادي جاء جوهر (ريس القرية) مخباً يحمل وجهه الأسود، وتعبه اليومي، وقد استقرت تحت إبطه أدوات حلاقة بدائية. طرق نعليه يحثي مؤخرته برمل ناعم غاصت فيه قدماه فأبطأت خطواته المستعجلة. ترقّبه الحضور لظرفه وعته طفيف غلف عقله. رغبوا في تطرية الوقت وتمنوا لو يفعلها جوهر. صاح به إبراهيم عبده:

- أقْبِلْ يا جوهر.

لم يكن محتاجاً لهذا النداء، فقد اقترب من الجموع ومدّ رأسه من فرجات الأجساد المتزاحمة والمغيِّبة قامةَ موسى الفارعة ونادى به:

- وا موسى... ترى أنا سأحلق للأمير.

زجره بغلظة:

- هذه الساعة ليست ساعتك يا جوهر.

- أقول لكِ سأحلق للأمير تقول لي هذه الساعة ليست ساعتك. وهل طلبتك زوادة.

ضغط موسى على الكلمات ضغطاً:

- أقول لك هذا رأس أمير أم تحسبه رأس خادم تزينه بجروح شفرتك المثلومة. اقلب وجهك الآن.

انسحب جوهر ماسحاً مديته بإزاره المتسخ، وجلس بعيداً ينظر إلى الزقارين وهم يحمّون طبولهم الكبيرة ويحمّسونها على نار اشتعلت من وقت مبكر، ويمسحونها براحات أكفهم ويعيدونها إلى ألسنة النار الملتهبة.

تنهَّد بعمق؛ وجلس يشحذ شفرته بحجر مستطيل تدلَّى من عنقه وهو يتمتم:

- لو جاء فسأحلق له.

* * *

الأفق يتفتق عن شمس باهتة مدت خطواتها على الكون بخدر وتثاقل، فبدت أشعتها متعثرة. هذا الظهور يذكرك بامرأة في لحظة طلق متعسر، فقد ظل المدى «يزحر» بميلاد يوم جديد انتظرته القرية بفارغ الصبر. مع إطلالته تدافعته نسائم الحقول الريانة، وارتدت الأرض طلاً مرتوياً، وهفهفت قامات السنابل الخفيضة وحلَّق سرب من طيور المساملة مغادراً أعشاشه. هناك - عند مفترق الوادي - انهمك موسى - للمرة العاشرة - يصفُّ أهل القرية، صفوفاً متوازية، يتقدمهم رماة البنادق ومن خلفهم النسوة المزغردات، تاركاً للبعض حرية التهيؤ للاستقبال. فصعد بعضهم على ربوات الحقول وتعلق بعضهم بفروع أشجار الأثل مادّين أبصارَهم صوب الطريق الممتد والمنتهي بخلاء فسيح علَّهم يلمحون موكب الأمير قبل أولئك الصِّبْية الذين تخلوا عن مهمتهم وانشغلوا بمطاردة العصافير والفراشات المستيقظة للتو.

صرخ أحد المتجمهرين:

- كأني أرى عصفوراً مقبلاً علينا، أظنه هو.

اخترق هذا الصوت أذني موسى المتحفزتين فرفع صوته منفعلاً:

- أطلقوا المعابر وغطرفنَ يا حريم.

تحركت مفاصل البنادق بسرعة وتطايرت المعابر ودوّى صوت الرصاص مخترقاً ترقُّبَ ذلك الصباح الرائق فخفقت أجنحة العصافير القابعة في أوكارها هرباً، وجاست رائحة البارود بين زغاريد ممتدة كانت تسيل بدلال عكرت فتنتها تلك الأصوات المنشدة وظل صوت موسى ضائعاً وهو يصرخ:

- لا تُفرغوا البنادق بهذه الصورة. انتظروا حتى يصل.

وحين وجد أن صوته مات وسط ذلك الضجيج، ركض ووقف أمام الرماة ماداً يده وصوته يكاد يشقق سقف حَنجرته:

- لو انتهى الرصاص قبل وقوفه بيننا فسيكون وضعنا مضحكاً ونحن نمسك ببنادق فارغة.

توقف الرماة. وحام موسى مترقباً تلك النقطة السوداء التي كانت تتحرك باتجاههم، ولم يقدر على لجم قلقه فكان يرفع صوته بين لحظة وأخرى سائلاً:

- هه... وصل.

فلا يجيبه أحد، فيقلع عن صراخه، ويلقي ببصره لنهاية الطريق المحشور في جوف الخلاء فلا يلمح شيئاً سوى كلب يعدو بقلق، وحين بلغ القوم وقف لاهثاً، ماداً رقبتَه صوب موسى الذي زجره فصدر منه نباح متكاسل، قصير، وبقي واقفاً وسط أفواج المستقبلين، فهمَّ موسى بقذفه بحجر التقطه من الأرض إلا أنه تراجع حين سمع مساعده يقول:

- أظنه كلب الأمير.

فجأة، انطفأت تلك النشوة الفائرة، وخمدت الأصوات وعادت الأعين تترقب ولادة المدى. لا شيء كان يتقدم هناك سوى شمس باهتة مخضَّبة بصفرة فاقعة خطت لتصعد عرشها. حين انقلب بعض القوم هامّين بمغادرة المكان، التفت موسى صوب مأموره يائساً وهمس له:

- ألم أقل لك، لا أحد يأتي لهذه الخرابة؟

وانثنى ليعطي أمراً بالانصراف، فاقتنصت عيناه بغلة تشق الوادي مخبة وعلى ظهرها استقر شخص مهيب الطلعة، فصرخ موسى متهللاً:

- جاء الأمير. أطلقوا نيران بنادقكم وأنتن أيها النساء غطرفنَ.

فتراجع عن نيته منْ همَّ بالذهاب، واستعد الرماة، واقتربت النساء من

بعضهن وقد فتحن أفواههن بزغاريد ملتهبة، كان ينتظرها صوت جهوري أن تهدأ للحظة ليطلق جملته المدسوسة في حنجرته باشتهاء:

- ألم أقل لكم إن هذا الكلب كلب الأمير.

فغطى على صوته عيار ناري حاد انطلق صوب الفضاء محدثاً دوياً ومحرّضاً تلك الزغاريد على أن تتصاعد، ليعود الضجيج، وتنطلق العيارات النارية في كل الاتجاهات. وتخبطت الأصوات حتى أن الكلب مد رقبته صوب تلك الوجوه المتحفزة في نباح متواصل. وما إن بلغت البغلة بصاحبها مقدمة المنتظرين حتى تخاطفته أيدي كبار القوم وأنزلوه كما تُنزل كومةُ الحطب وأحاطوا به. وتقدم عبد الرحمن الشرقي ليلقي خطاب الترحيب، إلا أن القادم كان صوته حازماً بالرغم من تلك البشاشة البادية على محياه. كان يتطلع في تلك الوجوه المحيطة به:

- أين صالح التركي؟

لم يجبه أحد، وتبادلوا النظر مع الشيخ عبد الرحمن الشرقي. كاد الشيخ إبراهيم منور يتقدم ليخبره بنبأ طرده لولا أن يد الشيخ عبد الرحمن جذبته ودس في أذنه جملة جعلته يتراجع لخلف الصف:

- أجزم أن هذا الأمير جاء لتطبيق شرع اللّه في ذلك الفاسق. فلا تُظهر معرفتك به كي لا ينالك رذاذ الغضب.

وظلت همسات خافتة تشتعل بين المجتمعين:

- ألم أقل لكم إنه يعلم بكل صغيرة وكبيرة.

ولكز رجل الشيخ ناجي بن علي:

- أتسمع، يسأل عن صالح هذا الذي تدافع عنه.

تمتم الشيخ ناجي:

- اللّه يستر.

وفي جهة أخرى من ذلك التجمع بزغ رجل وهو يزاحم مَن حوله لرؤية الأمير القادم:

- عسى يخلصنا من هذه الضائقة.

أمن آخر مستغرباً:

- للتو وصل وعرف بتغيُّب صالح التركي. كيف لو طوَّل في القرية. أظنه سيُخرج ما تم دفنه من سنين.

- الذي يموت لا يرجع، نريده أن يهتم بأحوالنا ويدفع عنا شَرَه الشيوخ.

- من يُدعَ لوليمة يذُق طعمها.

وحدّق في وجه القادم متابعاً:

- ألا ترى أنه أقرب للجوع من الشبع، وهؤلاء هم الذين يأكلون الأخضر واليابس.

- لكنه بمفرده، ماذا بمقدوره أن يفعل؟

- ربما تصل قواته في ما بعد.

حفَّ بالقادم المستقبلون. وأخذ مشايخ القرى وأعيانها يتقدمون للسلام عليه في انتظام غير معهود، فيمد يداً متخاذلة، وكلمات باردة. التفت إلى من حوله بعينين حارتين، وكان سؤاله هذه المرة أكثر إلحاحاً:

- قلت أين صالح التركي؟

فتحرك موسى من بين الصفوف وهو يتلوى معتذراً:

- حاضر يا سيدنا، استرحْ أنت من وعثاء السفر، وسيكون بين يديك في الحال.

- إياك أن تعود من دونه، فهمت!

هز موسى رأسه في وقفة منضبطة لم يتعود على فعلها منذ أن وطأت قدماه هذه القرية.

تحرك الموكب يزفُّ القادم صوب المركز تسابقه زغاريد النسوة وأصوات طلقات البنادق، وقد بدا الضيف أقل هيبة بالتفاتاته المتكررة وسؤاله الذي لا ينقطع:

- أين صالح التركي؟

* * *

شعر موسى بحيرة، وأخذ يلوم نفسه على التسرع بالرد. وجال بخاطره احتمال:

- كيف لو أن صالحاً غادر القرية بالفعل، فما الذي ينجّيني من هذا القادم؟

تنبَّه إلى أنه لا يزال يقف في مكان الحفل بينما أصوات البنادق الضامرة تنطلق في الفضاء بطلقات متباعدة شحيحة، فركض خلف المحتفين عله يجد أحداً يرشده لبغيته، وكلما أمسك بأحد سأله:

- أين يمكن أن أجد صالحاً الآن؟

- لم نره.

هذه الإجابة كانت تحرق داخله، وتعجّل بفورة غضبه. وجد نفسه يقف في المجلاب وقد استرقَّت لسؤاله مجموعة من الحمّالين الذين طمعوا في أن تتحول ظهورهم الى خدمة مسخّرة لإرضائه. لم يصدق عندما أشار بعضهم إلى معرفتهم بمكانه وأنه لم يغادر القرية. قفز كطفل عثر على لعبة أضاعها ويئس من العثور عليها:

- لكم ما تشاؤون لو دللتموني على مكانه.

انسلَّ موسى من بين الجموع الملتفة حوله مصطحباً ثلاثة رجال تبرّعوا بإحضار صالح التركي. كان موسى يسير مدمدماً بصوت خفيض وهو يحث الخطى:

- صَدَق الشيخ عبد الرحمن. يبدو أنه موصى بمعاقبة صالح. لو لم يكن كذلك فما الذي يحمله على السؤال عنه بهذا الإلحاح؟ عيناه كجمرتين مشتعلتين. ماذا بك في أول يوم لإمارته وكسرت أوامره، سيعذبك يا موسى.

فطن بأن هواجسه اخترقت مسامع مسايريه. أحجم، وشد بندقيته بيده حتى التصقت بظهره:

- إن أحضرتموه قبل أن يصل الأمير للمركز فلكم الموز كله.

انطلقت السيقان مهرولة، ومن خلفها ركض موسى يقدح فيهم تلك الهمة المفاجئة:

- ولكم عليَّ عهد ألاّ تصلكم يد في القرية حتى يد الأمير نفسه.

استشعر بفداحة الكلمة الأخيرة فاستدرك على عجل:

- إلاَّ يد الأمير... سمعتم إلاّ يد الأمير.

تعرجت خطى الأقدام في منحنيات وعرة قبل أن تنحدر لجهة الأحراش مخترقة أشجاراً كثيفة تداخلت وضاقت دروبها مما حمل موسى على أن يصرخ بأولئك الذين تبرَّعوا بإحضار صالح التركي:

- هل أنتم ميقنون من أنه يقطن هنا.

انبرى أحدهم موضحاً:

- قلت لك: العبد معتوق قبل أيام اصطحبني إلى هنا.

صاح موسى:

- ما لي وما للعبد معتوق. أنا أريد صالحاً في الحال.

تابع المتحدث سرد حكايته وكأنه لم يسمع صوتاً:

- حملنا مؤناً غذائية إلى هنا ووجدت صالحاً في انتظارنا، وأظهر انزعاجاً لرؤيتنا، فخفف عليه معتوق قائلاً: هؤلاء حمّالون ليس لهم علاقة بشيء.

قفز موسى باتجاهه ووجهه يطفر نشوة:

- هل أنت متأكد؟

- سترى بعد قليل.

* * *

في عشة متداعية، انزوت بين أشجار ملتفة، وحُصرت بأعشاب برية، وبقية مياه آسنة راكدة كمرقد للضفادع ومهابط للبعوض ودويبات الأرض، داخل تلك العشة كان جسده يرتعد من الألم، وحمّى تعرجت بين ثنايا إبطيه وألجمت لسانه وتركت له تنهدات عميقة يهش بها ضجر الوقت، ووخزات الألم. بين لحظة وأخرى يزيح عن صدره بطانية متآكلة ويفرج ما بين فخذيه، ممسكاً بشيئه، وصارخاً:

- لم أعد أقوى على كل هذا الألم.

تجلس جواره، متلقية كلماتِه الضجرةَ وروائحَ أبو فاس والكالمين التي تفوح منه وتسنده على ذراعها، ترقب عينيه اللتين كانتا تحرّضانها على الخروج إلى مفترق الوادي. وعندما تيأس تطبق أهدابها، وتئن، وحين يضيق صدرها تماماً تجهش بالبكاء.

- ما يبكيكِ؟

- . . .

- قرب خلاصي. الليلة ستعودين للقرية وتملئين رأسك الصغير بالزهوّ. ستكونين سيدة هذا الوادي، وسيفرح أهلك لمصاهرتي، وسأجعل النساء يبلّون التراب الذي تسيرين عليه.

- . . .

- لماذا لا تردين؟

- . . .

- لستُ واهماً. اليوم سيتحقق ذلك الحلم الذي لم أعش بعيداً عنه منذ أن وُلدت.

يصمت للحظات مغالباً ألماً مبرحاً يعصف به.

- كنت راغباً في أن تذهبي لمفترق الوادي وتؤكدي لي خبر مجيئه.

- . . .

- آآآآآآآآآآآخ

جلست بجواره حائرة. لم تعد كسابق عهدها قادرة على إمساك عضوه ولزه والعبث في نفقه بحد الشفرة. بقيت نظراتها محايدة، ترقب تلوُّن الألم على محياه صامتة. أبقى يداً ممسكة بشيئه ومد الأخرى لملامسة كتفها:

- الناس يتبادلون الجراح ولم يكن لي سوى صدرك أعمّق فيه جرحي.

نهضت فجأة، فسقطت يده بجوار جذعه الملقى على تلك الأريكة الرثة، فاستعادها على الفور لتطبق على عضوه ويهدر بأنين مرتفع:

- لو تستطيعين الاقتصاص فلا تتأخري.

وتكوَّم كحنش برد دمه. التفتت إليه، كانت تقلِّبه بعينيها الدامعتين، وشيء ما في أعماقها يتمزق، أظهره ترددها بين البقاء في مكانها والاقتراب منه.

تسمَّرت في مكانها، وأخذت تعبث بجديلتيها قاضمة شفتها السفلى، وخطُّ دمع لم يجفَّ لا زال يجري على صفحة وجهها. جفلت لجلبة رنت بالخارج، وكان لوقع أقدام الرجال الداخلين للعشة دهشة، اتسعت لها عيناها، وشهقت:

- هكذا، لا دستور ولا ناموس، وكأنَّ صالحاً ميت!!

واستدركت دهشتها بجملة رديفة:

- حتى الموتى لهم حرمة.

لم يمكِّنها موسى من أن تمد استنكارها بعيداً، فقد دفعها بيده، وأشار للرجال الذين معه بحمل المريض حملاً، فغالب ألمه وصاح بموسى:

- أوَتجرؤ على مداهمة بيتي هكذا؟ واللّه لأؤدبنَّك أدباً يُدخلك في باب المعصومين.

فنخسه بعصى غليظة:

- تعجبني فيك عجرفتك. ولولا أن سيدي طلبك من غير أن يأمر بشيء لجعلتك تصل إليه مضرَّجاً بالدم.

التفت صالح لزوجته وقد بدا منتشياً:

- كما أخبرتك ستعودين سيدة الوادي، وهذا الكلب. . .

وأشار لموسى:

- سأجلبه ليحرس بيتنا.

اغتاظ موسى وألقى على جسده بعصاه صائحاً برجاله:

- احملوه حملاً.

حاول القفز باتجاه بندقيته فهوى يئن ويلعن موسى لعنات عديدة:

- يا كلب دعني ألبسْ ثيابي الفاخرة فاليوم يومي.

وفي لحظات كانت أيادي مرافقيه ترفع ذلك الجسد عالياً غير مكترثين بتهديداته ووعيده لهم بالعاقبة الوخيمة لفعلتهم، وركضوا به خارج العشة، بينما ظلت استغاثة زوجته تتبعهم:

- يا خلق اللّه الحقونا!!

سرت استغاثتها تزمجر في تلك الوحشة تقافز لها البعوض، ونقيق الضفادع، بينما ظل غضب صالح يتمزق بكلمات مرقت مسامع حامليه كريح ميت.

***

قذفوا به أسفل قامة الأمير، تبادلا النظرات، نهض صالح متوجعاً ولم يجف غضبه بعد. نظر صوب الأمير القادم مزهواً:

- هل يُرضيك ما قام به هذا العسكري الأهبل؟

رفع الأمير إصبعه مشيراً لصالح بالصمت، بينما كان المحتفون لا يزالون مجتمعين. تنبه صالح لثيابه الرثة حيال تلك الملابس التي

يرتدونها، فأخذ يزرر مدرعته ساتراً صدراً تقافزت منه شعيرات بيضاء، وشامة كبيرة قبعت أسفل ثديه الأيمن. واكتشف كارثة مئزره المشدود على خاصرته من غير حزام مما حمّله مشقة تثبيته بين لحظة وأخرى. وقدماه الحافيتان ذواتا الأظافر البارزة التي لم تقلَّم منذ وقت طويل، ورائحته التي تفوح بالأدوية، وسهوه في حك شيئه وعصره. وكلما أصلح شيئاً من هيئته لعن موسى في كل كتاب:

- قبَّحك اللَّه يا موسى. أيرضيك يا أميرنا أن أستقبلك بهذه الهيئة...

ندَّت ابتسامة رخوة من الأمير وعقَّب:

- لقد شخت يا صالح كثيراً. لم أكن أتوقع رؤيتك على هذه الحال.

قابل ابتسامته بابتسامة معكرة:

- كنتَ ستراني في حالة أفضل من هذه لولا هذا العسكري الأحمق الذي جلبني كما تُجلَب البهيمة.

والتفت مشيراً إلى موسى بسبابته:

- واللَّه لأجعلنَّك كلباً تسير خلفي أينما ذهبت!!

كان المجتمعون ينظرون لما يحدث مترقبين ردةَ فعل الأمير لكل تلك الشتائم التي كان يدلقها صالح، وفي كل مرة كان الأمير يشير عليه بالصمت من غير أن يتفوَّه بالمزيد، وظل موسى متحفزاً يرقب بعينين متشفيتين مشهد صالح وهو يحوم خجلاً من ثيابه التي أبدته كمتسول لم يأبه به أحد. والذي أدهشه لمعة الفرح التي تتقافز من عيني صالح ودورانه متطلعاً للحضور وهو يشير باتجاه كل واحد منهم:

- لقد جاء الأمير الذي سيُنصفني بينكم، وسيحيل نهاركم إلى ليل لا ينتهي!

استنكر الأمير تلك المقولة، وجذب سوطاً من يد العسكري الوحيد وطرقع به في الهواء، صائحاً:

- لا أقبل مثل هذا القول يا صالح، ولا أريد أن تقول كلمة واحدة.

- أوَيرضيك ما حدث.

- قلت لك اصمت حتى نثبت الأمر.

- إذا كان الأمر كذلك فسألزم الصمت.

أشار الأمير لموسى، فاقترب منه ليدسَّ كلمة في أذنه خرج على أثرها مباشرة. وقف الأمير يتصفح وجوه الحضور، فتقدم منه الشيخ عبد الرحمن الشرقي متحدثاً:

- أيدك اللَّه أيها الأمير، واللَّه لقد استبشرنا بمقدمك قبل مجيئك، واستبشرنا باسمك فجعلك اللَّه عُمَرياً كعمر بن الخطاب تمقت الباطل وتُقبل على الخير.

توقف قليلاً وأشار لصالح التركي:

- إن هذا الشخص أحال حياتنا إلى مؤامرات ضد الدِّين وضد البلد، وكنا قد اتفقنا على نفيه لكنه هرب قبل أن نفعل ذلك.

كاد صالح يدلق كلماته لكنه استجاب لإشارة الأمير الآمرة بإغلاق فمه، وتطلَّع الأمير للشيخ عبد الرحمن مستنكراً:

- من أنت.

- أنا عبد الرحمن بن عبد اللَّه. . .

رد عليه زاجراً:

- أنا لا أسأل عن اسمك، ما هي صفتك حتى تقرر أمراً ليس من اختصاصك. . .

تحرك صالح متشفياً:

- هذا الرجل يتقوَّل بما يفهم ولا يفهم، لقد جعلني. . .

- يا صالح اسكت. لم يحن وقتك بعد.

سكت على مضض، بينما ظهر موسى داخل المركز مردداً:

- نحن جاهزون يا سيدي.

استبشر وجه الأمير واتخذ له مجلساً في صدر المركز، وحين همَّ البقية بالجلوس صاح بهم:

- من أمركم بالجلوس.

فهبوا وقوفاً وهم يتبادلون النظرات الجزعة، ويسمعون كلمات الأمير المتلاحقة:

- أنا أميركم، والذي أشير به تفعلونه. انتهى زمن الفوضى.

لم يتبقَّ جالساً إلا صالح الذي عقب على مقولة الأمير:

- نعم، هكذا يكون الأمير...

أطلق جملته وهو مسترخ في جلسته فصاح به:

- أوَلم تسمع أنت أيضاً.

فغر فمه وأشار لصدره:

- حتى أنا!!

- ومن أنت حتى أفضّلك على الآخرين؟

وقفز من مجلسه صائحاً:

- كمّموا فمه. لا أريد سماع أي كلمة منه.

فاندفع موسى عَجِلاً وخطف شال أحد الحضور، ووضع قطعة قطن كبيرة في فم صالح ولف عليها ذلك الشال، فحاول صالح الإفلات إلا أنه خار حيال ذلك التدافع الذي تبرّعت به مجموعة من الحضور، لكل منهم مهمة في إيثاق قدميه ورجليه ولجم فمه. استطاع فقط تهريب جملة قصيرة قبل أن تسد قطعة القطن فمه:

- أوَتفعلها بي يا عمر.

صاح الأمير: لا تخرج كلمة واحدة من فمه... فهمتم. لا أريد أن أسمع كلمة واحدة تخرج من فمه.

وألقى بسَوطه على ظهر موسى الذي فزَّ مذعوراً وعيناه تتطلعان للحضور الذين انكمشوا في أماكنهم يراقبون ما يحدث بوجل. وبينما كان صالح يحاول فك قيوده ويزحر بصوت مكتوم، اشتعل الغضب بعين موسى فلم يمهله الأمير فرصة اتخاذ قرار متسرع حيث صاح به:

- أنا هنا لتنفيذ أوامر الدولة، ومن يفكرْ للحظة في تعكير الأمن فسيجد رأسه طعماً للغبار المسافر به إلى الرياض.

تراخت عضلات موسى وطأطأ برأسه فصاح به:

- هل أنهيتَ المهمة التي كلفتك بها.

- نعم يا سيدي.

- جهزها لكي أنفذ أوامر ولاة الأمر.

تحرك موسى للخارج وعاد يحمل موقداً استقرت به شفرة احمرَّ جزء منها احمراراً قانياً. حمل الأمير تلك الشفرة وأعادها إلى الموقد وتطلّع في الحضور مخاطباً:

- لقد بلَغَنا ما يقوم به صالح التركي من فُرقة وبث سمومه العقدية بين الناس، وتطاوله على ولاة الأمر. وحين بُلِّغت بإمارة هذا الجزء من البلد كانت الوصية الرأفة بالمواطنين والضرب بيد من حديد لمن تسوِّل له نفسه العبث بأمن البلد أو وحدتها. وصالح فجر وأفسد وتطاول، وجزاؤه أن يُجَزَّ لسانه، وسوف ننفذ هذا الأمر الآن، وأريد منكم مساعدتي في إتمام القصاص العادل. ربما تخرج كلمة من فمه لا تعجبكم أو تعجبني لذلك أريد منكم أن يكون آخر عهد له بالحديث ما تفوَّه به سابقاً. لا أريد أن أسمع كلمة واحدة تخرج من فمه.

تبرَّعت مجموعة، من بينها موسى، على إخراج لسانه من غير أن يتفوَّه بشيء. اقتربوا من صالح الذي كانت عيناه جزعتين يحدق بهما صوب الأمير مستنكراً، فأحاطوا به، وأحلّوا الشال الملفوف على فمه، وأمسك أحدهم بشدقه الأسفل، وآخر شدَّ شدقه العلوي، وتفرّغ موسى

لإزالة تلك القطنة الكبيرة وسحب لسانه للخارج فجحظت عينا صالح وأخذ يتلوّى ككبش يحاول الهرب من شفرة تلاحق رقبته من غير أن يستطيع الإفلات. تقدم الأمير وجذب الشفرة المحمّرة من الموقد المجاور لوقفته ورفعها عالياً متمتماً:

- بسم اللّه الرحمن الرحيم وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم.

وفي لمحة بصر جز لسان صالح ورفع الجزء المقصوص بيده صائحاً بالحضور:

- هذا جزاء من يريد أن يفجر بلسانه.

كانت زوجة صالح التركي قد وصلت الى المركز، ورأت زوجها زائغ البصر والدم يسيل بين شدقيه طرياً دافئاً، وقد وزع يديه؛ واحدة تمسك بفمه والأخرى تمسك شيأه، ويتمتم بكلمات اختلطت بدمائها ولا يُفقَه منها شيء، فرفعت صوتها بصراخ ليتجمع حولها أهل القرية، وتشفّى بعضهم من صالح تشفياً صريحاً:

- هذا جزاء من يدّعي ويتقوَّل.

انسحبت بزوجها إلى داخل الأحراش، وباتت تلك الليلة حائرة في تطبيب نزفه المتواصل.

***

دخل ليل موحش. لم يعد ذلك الصوت الفصيح قادراً على ذرف كلمات سليمة. كانت الحروف تنزلق من لسانه المبتور، فيأوي إلى ضرب ما يجاوره. كان يبحث عن شيء، ربما محبرته وربما قلمه السحري الذي طالما فاخر به. كان يحوم باحثاً عن أي شيء ليكتب به جملة. لم نكن نعرف ما هي. اتجه إلى الموقد وأخرج فحماً، بحث عن أي شيء يكتب عليه فلم يجد. اتجه إلى لبنة العشة وأخذ يكتب كلمات لم تظهر جيداً. احتاج إلى مساحة كبيرة ليكتب: «سوف أفضح هذا الأمير المزيَّف». ولم تكن لتُقرأ بوضوح. تناوب عليه القهر وألَمان: ألم ما بين فكيه، وألم ما

بين فخذيه، فعاد إلى داخل العشة، ارتمى على أريكته يتلوى. لم يكن مستقراً على حال. نهض في تلك الظلمة حاملاً فانوساً شحيح الضوء، كانت يد تمسك بالفانوس والأخرى تعصر عضوه عصراً. سرنا من خلفه صامتَين، وكان ذعر أمي يتضاعف مع سماع أصوات العواء وحشمشة الأشجار التي نخترقها. ظل سائراً حتى بلغ عمق تلك الأحراش. مد شفرته وجلس مفرشخاً. أشار لها أن تقترب. ناولها الشفرة فحملتها بيد مرتعشة وفرائصها تكاد تُخلَع من جنبيها. غرزت سنة الشفرة عميقاً، كان صوته ينضح آهاتٍ حارقةً، وكلما تعمقت الشفرة فار الدم بين فخذيه، نهضت صائحة:

- يكفي إلى هنا لا أستطيع أن اكمل...

تعتع كثيراً لكنها لم تقترب منه. احمرَّت عيناه وانطلقت يداه تتابعان تحذيراً لم تفصح عنه كلماته المتقطِّعة. بادلته النظر جزعة:

- لا أقدر... ارحم نفسك.

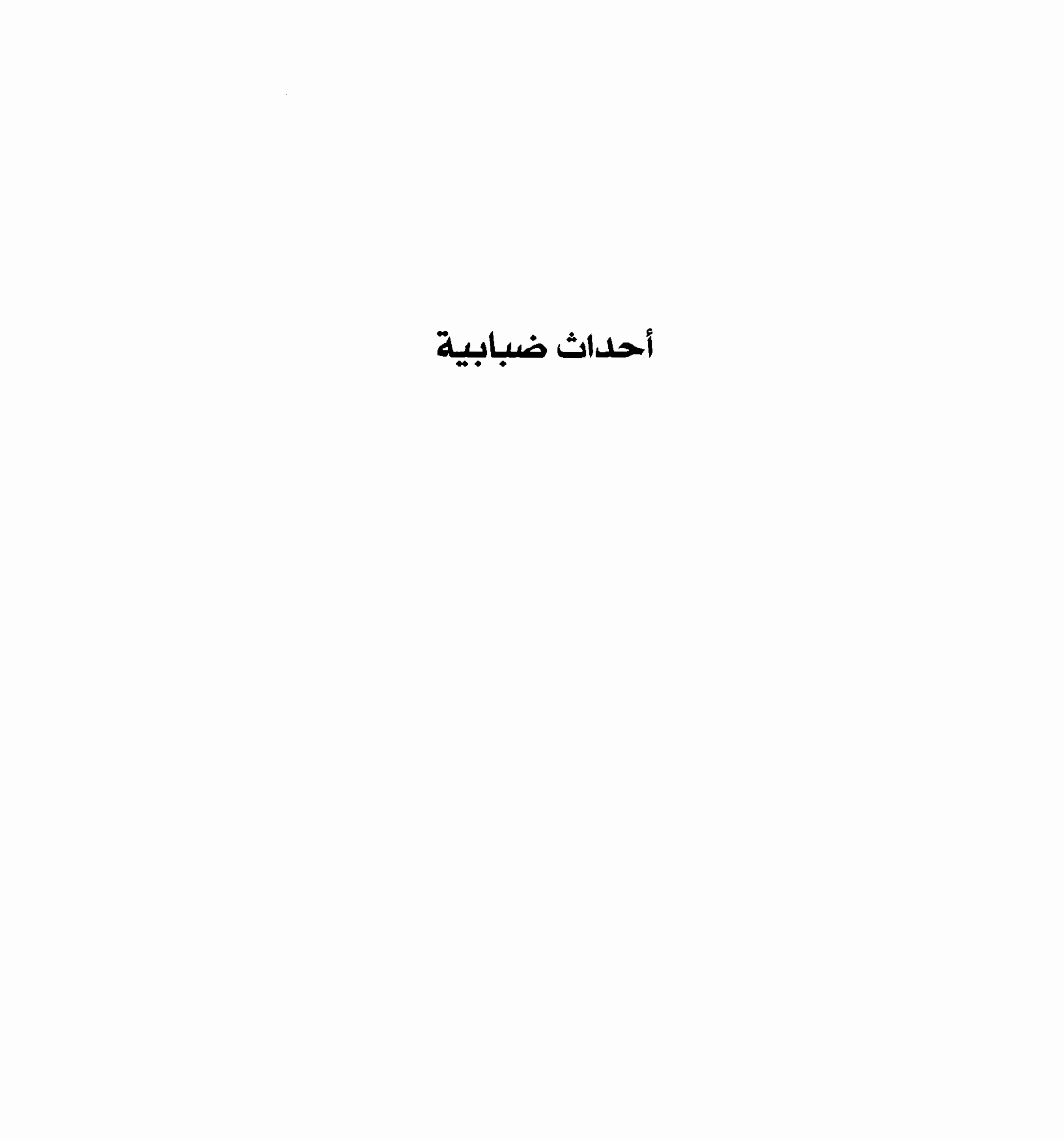
انتفض في مكانه، شد عضوه، ومرر تلك الشفرة ذات النصل الحاد، وجزَّه جزاً، وأطلق صرخة استفاق لها الصباح.

ظلت تسحبه نهاراً كاملاً. كان دمه قد جف تماماً. وقبل أن نصل إلى الطريق المؤدي للمدينة اعتراها جزع قاتل، فتناولت خنجره، وأخذت تغرزه في أي مكان من جسده، تأوه مع أول طعنتين وبعدها اعتلى صوتها مرتفعاً وهي تهذي بنحيب:

- ليتهِ كل شيء... ليتهِ كل شيء!

أُصبتُ بالذعر، وانطلقت هارباً لا ألوي على شيء.

أحداث ضبابية



البدايةُ صرخةٌ تشقَّق بها المدى،
بعدها تظلُّ تلملمُ صرخاتك من الجهات الأربع.

استشعرتُ بوجودي داخل حديقة؛ تلك الحديقة المقذوفة ما بين الميناء وأرصفته المتباعدة.

كنت كحجر أُلقيَ من جهة ما، واختبأ قاذفه خلف شجرة أو بناية، فتدحرج حتى استقر في مكان رخو، استقرَّ ملوَّثاً بمئات البصمات: بصمات القاذفين، وبصمات الرافعين، وبصمات المميطين، وتدحرج على أثر أقدام ساخطة، وأقدام لاهية، وأقدام مازحة.

حجر قُذف به من مكان ما واختفى قاذفه.

هل تجشأني البحر، لفظ كائناً مهيض الجناح، أُلقيَ داخله، فوجده غير قابل للموت، فتخلَّى عنه على أحد الشواطئ المسترخية، لتجففه الشمس، ويعاود الترحال؟ يعاود ترحالاً غير مشتهى.

كان الوقت غائماً، والمكان غريباً، والوجوه غير مألوفة، وغير أليفة، وأنا واحد ووحيد.

كان رجال الشرطة متناثرين في كل زوايا الميناء، يتهامسون عن القادم. سمعت قائدهم يحرضهم:

- تنبهوا! حانَ موعد قدوم فخامة الرئيس(*)؟

- حافظوا على الانضباط وأداء الحركات في الوقت نفسه. . . لا تشذ خطواتكم عن العزف الموسيقي!!

في كل مكان هناك شخص يأتي وتخرج البلد لانتظاره. يجد كلَّ الرقاب منحنيةً، وكلَّ العيون مبحلقةً. في كل مكان هناك شخص قادم، وخلق متحلِّقون حول ممشاه وهو لا يرى أبعد من خطوته. لايرى كم من الوقت والجهد صُرفا لهذه اللحظة العابرة التي يخطو فيها من غير أن يرى كل تلك الأجساد التي ارتصَّت لهذه الخطوة. أيكون هذا الرئيس كأميرنا الذي جاء؟ جاء لينهي حياة رجل ثرثر بأحلامه في كل مكان، وحين حان وقت الحصاد جُزَّ لسانُه. لم يعد ذلك الفم المفوَّه قادراً على نطق حرف سليم. رأيتها تغرس شفرتها في خاصرته وربما على ظهره حينما حاول تفادي طعناتها. لم أكن متوقعاً أن تجهز عليه بهذه الصورة. منذ كنتُ طفلاً وأنا أراها تغرز تلك الشفرة في شيئه ويبارك لها فعلتها. لمحت عينيه الجاحظتين المستغيثتين. ما الذي كان يود قوله في تلك الساعة. هل رغب في أن يبدي ندمه على الاقتران بقاتلته كلَّ هذا العمر، أم أراد أن يعتذر لها عن قتلها الذي كان يمارسه يومياً.

أصابني الفزع من رؤية عينيها. عينان هلعتان انقضّتا على جسد رخو

(*) لم يفصح عن اسم الرئيس الذي يتحدث عنه، ولم أعد قادراً على صياغة الأحداث بصورة منطقية كما حدث مع بقية الحكايات التي سردها سابقاً وقمت بجمعها من أفواه أهل القرية التي ذكر انتماءه إليها، وفضلت أن أقوم بتدوين أحاديثه المتأخرة كيفما اتفق، علماً بأنني حاولت جاهداً جعل الأحداث متقاربة مع إحساسي بأن ثمة فجوات أساسية في ما جمعته مؤخراً، وكنت عازماً على تنسيقها وحشو تلك الفجوات والفراغات في جلسات لاحقة، إلا أن ما حدث جعلني أرضى بهذه الصياغة. لذلك أستحسن عنونة هذا الفصل بـ«أحداث ضبابية»، وقد عمدت إلى إدخال رؤيتي الشخصية لمفهوم مريضي لحالته. . . هذا للتنبيه.

الدكتور حسين مشرف

وفار بهما شبق الضغينة، فأخذتا تبحثان عن الدم. هل رؤية الدم تعيد إلى ذاكرتنا القصة الأولى؛ قصة الموت الأول؛ قصة اختراع نهاية لهذا المشوار الطويل والمتعب... هل حقاً قام قابيل باكتشاف هذه النهاية، ولولا اكتشافُه هذا الطريقَ لظللنا نواصل الزحف المرير على سطح هذه الكرة من غير أن نعرف نهاية النفق المظلم الذي يوصلنا إلى نقطة استراحة مؤقتة نشاهد فيها اللعبة، ونحنُّ للعودة، نحنُّ لإعادة الحركة نفسها!!

كان الدم يفور من جسده وقد همد تماماً. فبعد أن اخترقنا الأحراش بحثاً عمّن يقلّنا للمدينة، كان قد بلغ حداً من الإعياء لا يمكّنه من السير، ولم تجد من يجاورها سوى جسدها الناحل المهدود، فعمدت إلى سحبه، ولم يكن من اليسير أن تقوم بهذه المهمة العصيبة لمسافة طويلة. ربما كانت تبكي وهي تقوم بمهمتها أو تلعن كل الطرقات التي لا توصل إلى شيء. انهارت بغتة... أكان لا بد من وضع الشفرة على الجرح. ربما صرختي أوقفت الطعن المتوالي. تلفتتْ كأنثى الضبع تتشمم الهواء، وَعَدَتْ صوبي. ثمة دم طازج لا زال في مكانه. كنت أركض والأشجار تتقصف تحت قدميَّ الثقيلتين، طامراً العقوم، وهابطاً الوادي الفسيح. رأيتهما معاً يركضان في إثريَ، هي كأنثى الضبع ومسعدة كسعلية نفضت عن جسدها تربتها اللزجة وحنّت لمن يجاورها في لحدها. ركضهما متواتر، خفيف وسريع، وجَلَدَهما نافذ، وصبرهما ممتد. شيء مني يتساقط في تلك الدروب الواسعة التي تسلمك لقناصك من غير أن تتوارى معك، من غير أن تمد لك مخباءها أو تسلمك لطريق أمين. وكلما عدوتُ أحسست بهما ملتصقتين بثيابي. أذكر أني هويت في بئر سحيقة. سقطتُ كحجر قُذف به واختبأ قاذفه. هويت... هويت. كل شيء يسقط... يسقط لقرار مكين، ويهدأ الكون، تغيب الخطوات، ويغور كل شيء... يغور عميقاً. الهواء ثقيل، وقاس. كنت معلّقاً هناك - هذه المرة لا أحد يجاورني- أحسست بحرارة أنفاسي. تيقظ ذلك الجسد

المسجَّى. طريق العودة ضبابي. سرعة مهولة وضجيج وحواجز تتخطاها كالبرق، تبقى معلَّقاً في مكان ما تنعم بالطمأنينة. هي لحظات وتهوي. . . تهوي، وكلما اقتربت من جسدك المسجَّى ثقل جرمك لتعود حجراً يرتطم بعنف ويفلق الحياة بآهة ظنت أنها تخلصت منها.

حواجز وأشكال هندسية تضيق وتتسع ونحن أسرى تلك الأشكال. من منا يعرف سر هذا الشهيق والزفير؟ هذا الهواء الذي يمنحنا الحركة، والأحلام، والجبروت، فإذا ركد في داخلنا غدونا كأواني الفخار المهشمة.

نحن نعيش في نقطة الغياب، نُمنع من زيارة الماضي بحاجز الماضي، ولا نقدر على تخطي الأيام لرؤية المستقبل. حتى اللحظة المعيشة تمنعك من معرفة خبر علق هناك، تمنعك من معرفة الأحداث التي تجاورك في حيك أو مدينتك أو قريتك. تمنعك بحاجز المكان. نحن نقوم طوال حياتنا بحركة واحدة: السير للأمام وكأننا علب في مصنع كبير وُضعت في دورها، تُعبَّأ، وتُختَم، وتسير آلياً، ليس لها أن تتقدم أو تتأخر وفي حركتها تلك تأخذ معنى وجودها. هذه هي الحركة الوحيدة التي نفكر فيها، نفكر في أننا نسير في خط مستقيم، ولو تركنا أماكننا لما احتجنا لقدح أذهاننا، سنرى أننا كنا نسير في حركة دائرية ولكبر الدائرة توهمنا أننا كنا نتحرك في خط مستقيم. إن رؤية القاعدة التي وُضعنا عليها داخل ذلك المصنع هي قاعدة دائرية وارتباطنا بها بالضرورة يولّد حركة دائرية.

الخط التصاعدي نظرة مخاتلة. أسسنا وجودنا على هذا المفهوم الخاطئ. إن رؤيتنا لأعالي الأشياء لا تُلغي وجود أسافلها. تلك اللحظة المعيشة هي خارج هذه الجدر التي نتمترس داخلها.

شيء ما يُنتزع منك فتغدو خفيفاً.

أزيز خفيض يقرض مسامعك، وكلمات واهنة تصلك من على بعد،

وجسد يهتز مع حركة مفاجئة، حوادث مختلفة تختلط وتنسل من الذاكرة، تتسابق وجوه عديدة للوقوف على حافة البال تلوّح بيدها، وبعضها تخرج دهشتها عبر عيونها ولسانها يحيك الدهشة:

- حقا عدت!

ماذا يعني أن تشعر بأنك موجود بينما تظل في حياة الآخرين مجرد شيء هلامي يُتعامَل معه وكأنه غير موجود.

نفير لبوق عال، ودق طبل عنيف يختلط بموسيقى عسكرية، وخبط أقدام على الأرض، وجسد فارع يخترق تلك الصفوف. هرج ومرج، وتلك القامة كبيرق يرف على رؤوس المحتفين، وتحايا عسكرية متبادَلة، وثلة من القوم يزحفون عن مسار تلك الخطوات. التقيا عند نقطة وحضن كل منهما الآخر.

حين جاء أميرنا لم يحضن أحداً، ترك لسانه مبلَّلاً باسم أبي، وسار من غير هيبة تُذكَر. كانت تلفتاته تشي بأن فؤاده خواء. كنت مقذوفاً أسفل تلك الأشجار الظليلة، وأنفاسي الخائرة تيقظ جسداً مُنهَكاً. حرصتُ على الاختباء. جذبت أحد الفروع الدانية واستترت به. أقوام تعبرني وأنا هناك، أنظر للعابرين والمتربصين، والمتطلعين ولا شيء لي سوى انتظار لحظة مناسبة لكي أغادر هذا الاختباء والبحث عن الطرقات التي جئت منها.

كنت هارباً منهما ومنه.

وغدوت هارباً من فعلته. اختبأت في أماكن عدة. وفي كل مكان كنت أحس بعيونهم تعبرني من غير اكتراث. كم تصبح الحياة ضيقة حين لا تجد عيناً تتبعك!!

***

لا أعرف بالتحديد متى جئت إلى هنا، وما هي الظروف التي قادتني،

وكيف حدث ذلك؟ لا أعرف. أتذكر أشياء مشوّشة كأحداث متقطعة يغيب بعضها تماماً وتقترب أحداث أخرى تكبر في مخيلتي وكلما حاولت استرجاع ما قبلها أعجز عن ذلك. تفاصيل محدَّدة أعيها جيداً، وبعضها يغدو غامضاً بعض الشيء. فأنا لا أستطيع التواصل بصورة متسلسلة مع مجريات حياتي. آخر حدث أتذكره حينما كنا هناك بين الأحراش، وهي تسانده وتجهش بالبكاء. تسير حائرة نحو مكان معتم وتنتزع شيئاً منه، شيئاً له رفيف جناح طائر. يتأوه فتمنحه ساعدها، توسده وتتركه نهباً للوحوش الضارية، وتمنحه ظهرها ونصف التفاته، فأركض من أمامها هارباً.

كنت أحمل أوراقاً جلس أبي يكتبها أياماً طويلة - بعضها أعطيتك هو والبعض الآخر تلف أو فقدته، لا أعرف بالتحديد - وجدت نفسي هنا، في المدينة، في إحدى حدائق الميناء. تنبَّهت لجسد قُذف كجرو ملَّت من نباحه الطرقات، كائن لا تربطه أي علاقة بهذا المكان. كنت أشبه بطحالب البحر التي تتقاذفها الأمواج، ولا تعرف أيَّ الموانئ عبرت، أو أيَّ الشطآن استقبلها. تنمو وجذورها معلَّقة في الماء. كل يوم لها مكان. أسير بلا ذاكرة أو بذاكرة مبلَّلة بالماء في كل حين. عندما جئت إلى المدينة كانت الأحلام نائمة والضَّياع يزهر في خطواتي... القرية هي الرَّحِم الذي يضمنا وحين تدفع بنا للمدن نكتشف سوءة الدنيا.

فتى تائه في الدنيا، يبحث عن مكان يغرس قامته به. كل المواقع رخوة لا تحتفظ بمن يرتهن إليها. كانت المدينة سافرة والدروب مفتوحة لابتلاع الخطوات. تعثُّري جذبهم. كنت أتسكع كمخمور يتطوح ويهذي بكلمات غير مترابطة. لمحت بزاتهما، وسيلاً من الريبة يسيل من مراقبتهما لخطواتي، أوقفوا سيارتهم بجواري:

- تعال.

ما الذي جاء بأبي إلى هنا؟ ها هو يرتدي بزة أخرى ولهجة أخرى،

ويدعوني للعودة، لجحيم الاحتقار والعبث. كان وجهه مكفهراً، ولذة الانتصار تقوده لجذبي:

- تعال.

هل كنتُ واهماً. للتو تركته يسبح في دمائه، والخنجر المسنون يمزق أحشاءه، وتلك التي لا تشبه النساء تغلغل سنه الحاد بين اللحم والعظم صائحة:

- لينته كل شيء، لينته كل شيء.

رفع قبعته، فظهر جبينه المستوي، وابتسامته العصية:

- تعال.

سيعيدني للسجن. ركضت في منحنيات كثيرة، وبعد جهد وجدت نفسي أجلس بجوار بيت وامرأة تطل عليَّ من خلف النافذة، ندهَتْ عليَّ وقادتني لداخل البيت، نقدتني مبلغاً من المال ودعت لي أن يوفِّق اللَّهُ خطواتي، وودعتني:

- إذا لم تجد بيتاً يؤويك فعد إلى هنا.

همت على وجهي كثيراً، وعدت ليلاً، طرقت الباب، كنت حائراً ما الذي يمكنني قوله، وعندما طفحت حيرتي هممتُ بالمغادرة لكن ذلك الباب انفرج وطل منه شيخ كبير:

- نعم!

ارتبكت كثيراً، وتصنَّعت السؤال عن شخص يدعى صالح التركي، نظر في وجهي:

- ألم تكن هنا صباح اليوم؟

- بلى.

ونزل صمت ثقيل. كنت أسحب لساني سحباً:

- أنا غريب ولا أعرف أحداً هنا، دلني يا عم ماذا أصنع؟

جذبني من يدي وأدخلني. ربما لمحتها، كانت فائرة كما رأيتها هناك وهي منكفئة على المطحنة تطحن قدحاً من الذرة:

- ما الذي أتي بها إلى هنا؟

إن تداخل الأحداث في زمن واحد لا تجد له من تفسير سوى الحلم، وأيقنت أنني أحلم. هذا اليقين دوماً يتلاشىٰ، فأنا أعيش في اليقظة، أعيش في دوامة حياة اختل توازنُها ولم تمنحني تفسيراً لذلك الاختلال.

كنتُ أسير خلفه مرتبكاً خَجِلاً. أدخلني في غرفة بائسة:

- تستطيع أن تنام هنا ريثما نتدبر الأمر.

ترددت كثيراً. جذبني بيده، وفرش فراشاً رثّاً غطاه بغطاء مشجَّر الألوان:

- نم هنا. هل تريد أن تأكل؟

- . . .

- نم، في الصباح يفعل اللّه ما يريد.

في الصباح الباكر قادني مع شاب - عرَّفني إليه على أنه ابن الجيران - وتركنا في إدارة تضج بالعسكر، وهناك أُلبسنا بدلتين زيتيتين، وتحركت بنا السيارة كجنديين مستجدّين عليهما أن يخبآ الصبر في أوردتهما كثيراً كي يخترقا الدورة التدريبية.

وجدت نفسي أدخل ثكنة عسكرية مليئة بالبشر. لم يكن الحديث هناك منفلتاً. كل كلمة مقننة وعليك أن تزنها قبل أن تتلقى عقاباً يُقعدك منبطحاً تزحف في مضمار لا ينتهي.

- ما الذي جاء بي إلى هنا؟ وماذا يعني أن تعيش بهذه الصورة؟ أن

تعيش كما وجدت نفسك، تعيش عيشة حجر قُذف من مكان ما، واختبأ قاذفه.

جُمعنا ككومة خرز، ونثرونا في العنابر، وعلقوا على مسامعنا الأوامر. كان آخر تلك الأوامر النوم المبكر. كنت أحس بتقلب تلك الأجساد في مراقدها، وفساد صبرها بالآهات المتسللة من غياهب الصدور القابضة على ضجرها. حين نكون في مكان موحش نستلهم حياتنا القديمة بشيء من اللوعة. هم الآن يفتحون الجراح العتيقة ويتلذذون بالوخز الذي أبكاهم ذات يوم. نحن كالعلب المفتوحة نحنُّ للأغطية التي فقدناها في عجلة من أمرنا!!

لم أفلح في اصطياد طائر النوم. كان يرف على أجفاني وقبل أن يحط يقفز في شرفة الأمس، لألمح عينيها الغارقتين بالكحل وانكسار أهدابها وتسلُّل مياه الأنثى من بين حدقتيها، وركضي للوصول إلى قمتين تعالتا بجبروت وعنفوان محاولتين تمزيق فستان كبح اندفاعهما. كلما عدت لهذا الفراش الرث نبتت في لحده، وتمددت كليالي الحقول المشتهاة. أطفأت مصابيح الدار وهلَّ الظلام. فاحت رائحة جسدها، فنهضت محموماً، مشيت على أطراف أصابعي، لمحتها متكورة، وعجزاها يعبثان بمخيلتي. أحستْ بمقدمي، تلفلفت، ونهضت:

- ما الذي جاء بكِ إلى هنا يا زينب؟

اكتفت بأن فتحت عينيها بدهشة ونده منها استنكار صغير:

- أنت!!

ثمة جزء معطوب من ذاكرتي، لا يمكِّنني من الوصول إلى أحداث تربط ما بين تواجدي بالقرية وهنا. وجدتها أمامي، ووجدت نفسي متعلقاً بها، وسوف أسرد لك حكايات مفكَّكة لا أعرف ما هو الرابط بينها وكيف حدثت، وسأمنحك رسائل متبادلة بيني وبينها، علك تصل إلى تلك

السلسلة المفقودة بين الماضي والحاضر، بين جسد ينمو كالطود ونفس تشعر بأنها لا تزال تتسكع في أودية الطفولة. يبدو أني صورة فقدت الظل، وعندما يتوزع هذا الظل يقال إنها صورة محكمة، وصوركم محكمة بين الضوء والظل بينما أتواجد معكم باهتزاز الظل والضوء. أنا ضائع وسط هذا الركام من الأحداث؛ ضائع تماماً.

***

وقفَتْ على سرير أمها فَزِعة، دلقت عليها سؤالاً بارداً من حنفية نعاسها الثقيل:

- ماذا بك؟
- الغريب!
- أي غريب تتحدثين عنه؟
- ذاك الفتى الذي منحته وجبة حين كان مقذوفاً في الشارع!
- ماذا به، لقد رحل؟
- لا لم يرحل، عاد إلينا مرة أخرى.
- هل أنت واثقة؟
- نعم...

رفعت جذعها الأعلى بصعوبة، ماسحة عينيها بخلف كفها:

- ومن أدخله.
- لا أعرف، ربما أبي.
- هل قال لك شيئا؟
- جاء إلى غرفتي، كانت عيناه تسيلان بأمر مريب.
- هل فعل شيئاً سبّب لك أذى؟
- وقف أمامي كمن يعرفني، وسألني: ما الذي جاء بك إلى هنا يا زينب؟

- أظنك تتوهمين، أو تحلمين كعادتك!

- لا، لم أكن أحلم أو أتوهم.

نهضت أمها من الفراش عَجِلة، تمسك بيديها خصلات شعرها الساقطة على جبينها، وتحركت خلفها زينب متوجسة:

- أين هو الآن؟

- في غرفة الضيوف.

ارتدت أمها عباءتها، وتنقبت، دافعة باب غرفة الضيوف، ودارت بعينيها في كل محتويات الغرفة، أبدت عبوساً وضجراً قذفت بهما زينب:

- أيقظتِني من عز النوم، لا أحد هنا.

اتسعت عينا زينب مقسمة:

- واللّهِ، كان في غرفتي، ربما ذهب للحمام!

- عودي للنوم، وأقْلِعي عن أحلامك، وتخيلاتك.

وتحركت إلى غرفتها موصية إياها:

- لو بقيت مستيقظة أيقظيني مع مقدم أبيك.

اليوم وبعد أن استوطنت هذه الغرفة الضيقة، كنتُ حائراً وأنا أخطو مرة أخرى لغرفة زينب:

- ربما يصيبها الفزع هذه المرة!

***

- أحبك

- بك شيء يشي بأنك ميت.

- كيف هذا؟

- لا أعرف. فقط أشعر بك طيفاً، أما روحك فربما فقدتها في مكان ما.

- لم أفهم.

- ليست بك حرارة الحياة والتشوق لمباهجها. أنت تنعى نفسك في كل حين، ولربما تكون طائراً لروح حائرة بين السماء والأرض، تهبط ليلياً لتبكي تلك الروح التي يتصعد بها. لقد قرأت في الديانات القديمة أن أجساداً يصيبها العطب وتخرج منها الروح ولا تجد مكانا تستقر به فتظل في خرابة وتبحث ما تبقَّى لها من سعة في الوقت عن بدن صحيح لتعيش فيه.

- وهل أحتاج إلى بدن أصح من هذا؟!

***

- أنت تذكِّرني بأسطورة عشتُ جزءاً من تفاصيلها في مدينتي البعيدة.

- ما هي تلك الأسطورة؟

- في ليلة مظلمة استيقظ الناس على صوت أنين مكتوب، وأخذوا يبحثون عن مصدره، وكلما اتجهوا صوب الصوت انتقل إلى مكان آخر، وظلوا على هذا الحال طوال الليل، ومع الغلس اختفى الصوت كأن لم يكن.

وجزم أهل المدينة أن أحد ظرفائها أراد ممازحتهم بهذا المزاح الثقيل، فنسوا الأمر وبقوا طوال اليوم يغالبون نعاساً يتردد على أهدابهم فيهشونه بقضاء أعمالهم اليومية، وعندما حل الليل سارع الكثير منهم إلى مخادعهم مسلِّمين أجساداً منهَكة ممنّين أنفسهم بارتواء نوم صاف. ومع انتصاف الليل، ظهر الصوت باكياً - هذه المرة - فنفضوا أهدابهم، وخرجوا لرؤية ما يحدث خارج بيوتهم. أشعلوا المصابيح، وحملوا عصيهم، وجابوا الشوارع والأزقة. توزَّعوا في كل مكان فلم يعثروا على صاحب البكاء. كان نحيباً عالياً يتصاعد بتلون متناغم فيثير في النفس

الشفقة، ويحثها على نجدة صاحبها، وهمد الصوت في اللحظة نفسها التي نضب بها في الليلة السابقة.

وعاد في الليلة التالية ضاحكاً، ضحكاً نزقاً يثير الاشمئزاز. وبات كلَّ ليلة يظهر بصوت مغاير: مرة باكياً، ومرة ضاحكاً، ومرة مُنذراً، وأخرى محرِّضاً، فاحتار أهل المدينة في أمر الصوت الليلي الذي يقف على رؤوسهم، ويسلب الرقاد من مخادعهم، وجلبوا شيخاً يقرأ القرآن في شوارع المدينة، فلم يغب الصوت. وأوصى الشيخ بأن يمسك كل واحد بمصحفه ويتلو سُوَراً من القرآن، فكان الليل له دويّ كدويّ النحل، وبين كل وقفة يسمعون ذلك الصوت متأجِّجاً وكأنه يُسمعهم صوته بعد أن سمع أصواتهم. يئس الشيخ وغاب عن مدينتنا.

وجاؤوا بشيخ آخر فقال لهم:

- مات بالمدينة رجل مظلوم.

ساعتَها، تذكروا ذلك العاشق الذي أُطلق عليه الرصاصُ وهو يتغنى بمحبوبته. كان عاشقاً عفيفاً رغب في الوصول إلى معشوقته لكن أهل المدينة تقوَّلوا أقاويل كثيرة، فامتنع أبوها عن تزويجه. وفي ذات ليلة كان العاشق بالقرب من بيت معشوقته يتغنى لها بقصائد الشوق، فخرج أبوها وأطلق عليه النار، فذبل في مكانه، ولم يخرج لمواراة جثته أحد من أهل المدينة. يقال إن عشيقته هي التي وارت جثمانه، وشقت صدره واحتفظت بقلبه، وفي الليل تطلقه طائراً يرف في المدينة ليعكر حياتهم كما أفسدوا عليه حياته.

وأخالك عاشقاً شُقَّ صدرك وبقي قلبك هائماً يغني عشقاً مبرحاً!!

* * *

كالهواء عابر ومقيم.

منذ أن ارتديت هذه البزة العسكرية حرصت على ألاّ أثير شهية

رؤسائي برؤيتي منبطحاً لأداء عقاب انبثّ من بين شدقي أحد الغاضبين في هذه الثكنة المرمية في هذا الخلاء.

لم يكن يُرعبني شيء بمقدار أن أتخيل أنني أثرت حنق أحدهم ليتولى مهمة إيصالي للبوابة الخارجية بعد أن يوصي بأنني لا أنفع لأن أكون جندياً بالجيش.

على طاولة طويلة ممتدة اجتمعنا لتناول وجبة العشاء. الضحكات مبتسرة تقف عند حد الابتسام في أحيان كثيرة. يجاورني فتى دقيق الملامح بعينين غارقتين في شرودهما وأنف التوى وواصل تثنياته عند مصب شنب هزيل انقطع بشج غائر من الجهة اليمنى. كان يجلس عن يميني يقضم عيشاً يابساً قَضْمَ المتأفف. عرفتُ أنه من قرية الخضراء؛ تلك القرية التي طالما ذهبت إليها جامعاً حباتِ النبق وتجميعها بين شدقيَّ في عَجَلة لإسكات نداء الجوع. دس فمه بأذني فجفلت ونهضت في حركة لاإرادية لأسمع صوت العريف يجلجل:

- انضبط يا عسكري.

عدت لمقعدي متحاشياً النظرَ لعينيه، وتحولت تلك الطاولة الممتدة إلى صحراء ماحقة وأنا أسير بها تائهاً عطشاً، أعاد فمه لأذني:

- إذ لم توافقني فاكتم أمري.

في الليل حملت حقيبتي الصغيرة، وتسللت من العنبر متجهاً إلى نقطة الالتقاء. كان الرعب أكبر مما تخيلت. رأيت شبحاً ناحلاً يسير حثيثاً صوب الفناء الخارجي ويتريث متلفتاً باتجاهي. كان الخوف أكبر مما تخيلت، فظللت أراقب تحركات ذلك الشبح الذي أشعله الخوف فازدادت التفاتاته، وبين الحين والآخر يتطلع لساعته بضجر...

- لو صحبته فماذا سيحدث؟ سأفقد سريراً وأكلاً جاهزاً. في أحيان يكون عذاب أخفَّ من عذاب.

عندما رآني أقف على مقربة منه، استحثني عَجِلاً:

- هل تظننا ذاهبين لنزهة؟ أَسْرِعْ.

كان يحاول جاهداً كتمَ غيظه لكي تخرج كلماته واهنة. خطواتي لم تكن مشجعة فجذبني إليه:

- أسرعْ قبل أن تفيق عيون الحراس.

-لن أستطيع مرافقتك.

- ماذا؟

- كما سمعت. سوف أساعدك للصعود وأقذف لك حقيبتك.

- هل جُننت؟

- أنت ذاهب لأهلك، أماّ أناً فليس لي أحد هناك.

- ألم تقل إن لك أماً وأباً وعشيرة؟

- لا تضيّع على نفسك فرصة الهرب.

صعد على عَجَل، وقذفت له حقيبته. سمعت ارتطاماً وصرخة مباغتة، فركضت عائداً إلى العنبر وقدماي ترتعشان.

رأيته تحت بسطار العريف يتلوى وقد خلع عن جسده سترته الغامقة ونزَّ دم رقيق على جوانب مرفقيه.

- لماذا يغدو ضارياً هكذا؟

أمضيت سنين طوالاً أنقّب في تجاويف سيرته علّي أقف على تفسير مقنع لتحولاته المفاجئة. ثمة أمر يدعو للريبة: له وجوه عديدة، وكل وجه كآنية فخارية تصدَّعت ولم تعد صالحة لحمل أي سائل يغيث أي لاهث من شدة العطش.

جاورت كلاباً فاقها مجتمعة في سعاره. كبارود يشتعل على الدوام. أهل القرية اصطلحوا على تسميتي:

- ابن الكلبة.

هذه ليست شتيمة بل شفقة. فقد عشت مع كلبة قمت بتربيتها

لتحميني حين يهدُّني التعب ويسرقني النوم في البراري. فعندما لم تعد استغاثة أمي مجدية، ولم تعد الجارات راغبات في الوقوف أمام عريه وهو يجلدني، هربت إلى الخلاء، وجدتها تُرضع خمسة جراء، خطفت واحداً منها. كنت ظانّاً أنني اختطفت كلباً وحين وجدتها كلبة لم أبتئس كثيراً فقد تعهدت بتربيتها وعشنا معاً، فحين أُطرَد أجدها هناك تحميني من الباحثين عني، وحين أعود إلى بيتنا أجدها تحوم حول البيت بنباح متعال.

كانت دائماً ما تُشعرني بأني كلبها الذي تنتظره، وهذه لها حكاية ربما استطعت أن أرويها لك في يوم من الأيام.

- لماذا لا تكمل قصة صديقك؟

- أشعر بأنها غير مفيدة، وغير مجدية.

***

مع نهاية كل أسبوع أعود مع جارنا، وأدلف إلى ذلك البيت الذي استقبلني كغريب حنَّت عليه صاحبة ذلك الدار.

طارق يعرف أنني أحد أقارب ذلك الرجل المسن الذي قادنا إلى هذا العمل، فيعود بي في ليالي الإجازات متوسلاً بي لدخول دارها. كان يسخّر كل وقتي لأكتب له رسائل الغزل التي يدلقها على مسامعها، وكلما حاولت أن أقترب منها، نفرت كفرس جموح.

ما الذي يحملني على سفك كل هذه الأقاويل؟

يداها الطريتان المتلفعتان بطرف العباءة ذات اللون الفضي والمرتويتان بالحياة، جاهدت مراراً كي ألمسهما. أظافرها الطويلة التي تحسن تقليمها كي تبدو متناسقة بذاك المنكير القاني، تتحول إلى مخالب تجترح أعماقي. شذاها يهرب من جسدها فوحاً عميقاً وهادئاً. نهدان جبليان تطوف بهما الرغبات والأمنيات فيزهوان بكبرياء حيث تتوتر حلمتاها مخترقتين أعتى الملبوسات سماكة، يرتعشان مع حركاتها في ارتجاج تهتز له أرتاج الأبواب الموصدة.

- من يقطف هاتين الثمرتين الطافحتين بالاستواء؟

كنت أتعجب من صغر مساحة صدرها. كيف استطاعت هذه المساحة الضيقة تحمُّل نهوض جبلين شامخين.

كلما رأيتها خالسني هذا السؤال الشهواني، فأتملص منه صوب عينيها الممتلئتين بالحيرة والذهول. ملولة وشهية، مقبلة ومدبرة، قاسية ولينة، معصورة بماء الاشتهاء والإباء، وكلما دنوت نأت.

يا اللّه، كم تعذبني هذه المرأة!

* * *

ما الذي دعاني لحرث هذه الذاكرة والوقوف عند تلك التفاصيل... كانت تقف بيني وبين نفسي وتسرد تفاصيل الهيام به:

- أحبك.

ظننت أنها تسمعني وأن صمتها استحثاث للمواصلة. وبعد أن سكبتُ كل لوعتي سمعتها تصرخ متضجرة:

- أنا لا أشعر بك. أنت طيف تأتي فقط كوميض نراه ولا يُسعفنا لأن نحدق به، فسرعان ما تتلاشى في البصر أو يتلاشى فيك البصر. لا تمنحنا لذة أن نحدق في توهجك، أو نمسك سيرة لعبورك... ظهورك موت لك.

أنت كالألغاز القديمة المهجورة، ذكرك يستدرج مئات من الأزمنة البالية المغبرة التي سرعان ما يصيبنا الملل من استعادتها.

* * *

أشعر بلوعة لكل أنثى، كل واحدة لها طعم وذوق ورائحة في أول الأمر.

فللجنس علاقة مباشرة بالحياة والموت، لا أعرف بالتحديد كيف

أشرح لك هذه العلاقة، ولكنني ميقن من أن الجنس والدم صورتان مناقضتان للموت. فكلما مارست الجنس هربت من الموت على هيئة مغايرة للمحسوس، لهذا تجدني شغوفاً بالنساء، أحبهن حباً جماً.

أتربص بهن، أسرق مفاتنهم المخبَّأة. ليست هناك امرأة بعيدة عن نزواتي. ليلياً أبات في حضن إحداهن، أتمرغ بجسدها، أستنشق عبيرها، أتلذذ بمفاتنها... كلهن سخيات يهبنني زخماً من حياة، معهن أدخل عالماً خدِراً متأرجحاً بعيداً عن سأم الواقع الرتيب.

حين تتلظى حمم جسدي يلتهب الخيال، فيتراصصن أمامي. أتفحَّصهن واحدة واحدة. أهيئ الظروف، وغزل حكاية تنتهي بامتطاء المهرة المختارة، فتجمح بي وتركض في براري الحمى، أوكزها وكزاً فتراخى له في أحد المنعطفات، تتقاعس وتلهث، فتتدفق فوهة البركان بماء يسيل على الأرض الجدباء يوزع الطمي لتنبت كل الأحلام التي وأدها الزمن.

لكل نبتة مذاق خاص وملمس متفرد. هذا ما تم ترسيخه في مخيلتنا عبر حقب من الأزمان. تسقط هذه الحقيقة بمجرد أن تتجاوز البلعوم أو بين فكي شخص فقد حاسة الشم، فالمُر كالحلو، الحاذق كالسمج، الشهد كالقاذورات. إننا نصنع أوهامنا التي تزين الحياة في مخيلتنا!! ولو فقدنا تلك الحواس فسنجد أن الأشياء تتشابه.

النساء الممشوقات، الفارعات، القصيرات، الممتلئات، الهزيلات، الجميلات، الدميمات، اللدنات، الساقطات، المحتشمات: كلهن لهن مذاق واحد حينما تصل معهن للذروة، مذاق أشبه بملامسة اللسان لعسل حاذق يحرق فوهة حنجرتك، وبعد أن يغرق فمك في العسل تتجرعه من غير أن تصاحبك اللذة الأولى، الاحتراق الأول والشهوة الأولى.

زنوبيا، سجاح، ولادة، هند رستم، صوفيا لورين، نبيلة عبيد، مارلين مونرو، نادية الجندي، ليلى علوي، أرسولا أندرس، كلوديا

كردنالي، بريجيت باردو، فرح فاوست، فرح ديبا، نتالي رزق، كريس كيري، جاراتي: نساء لا حصر لهن يقفن خاضعات لتلبية رغباتي ويمضين حين أملَّ منهن.

ثمة نساء يعبرنني في الشارع غير مكترثات بعينيَّ المسمَّرتين على نهودهن وأردافهن، فأبيّت النية لاصطيادهن وإرغامهن على الاعتذار حينما أُشبعهن وكزاً. الوحيدة التي لا تعتذر ولا أمل من التمرغ بين نهديها نبيلة «ع.»، فبمجرد أن أحصل على مغفرتها أرتكب نقيصة أخرى كي تمعن في إذلالي لأبحث عنها في ليلة أخرى. وعندما تتمنع أو ترتبك ظروفها أستعيض في البال بمن تنافسها في استقبال حممي.

لقد أغدقت ماء مخيلتي على كل النساء ولم يثمر من ذلك سوى ملايين الأطفال الذين يتعلقون في شرشف نومي ويمضون للعدم.

أربع وعشرون ساعة يعيشونها بحثاً عن رَحِم يؤويهم، وحينما لا يجدون سوى شرشف يُلَفُّ بعناية يتلحدون خيوطه وينتهي الأمر.

لكنني كنت أتساءل:

- هؤلاء الأطفال لم تُكتب لهم الحياة التي نعيشها فكيف يموتون، هم موجودون في مكان آخر. كيف تستقبل هذه الحياة ملايين الأطفال في قذفة واحدة ولا تسمح إلا لواحد منهم بتمثيلهم في هذا الوجود. أليس في هذه الانتقائية وأد لملايين البشر؟

إننا نتخلى عن مليارات من النسخ الشبيهة بنا من غير أن نذرف دمعة واحدة، وحين يموت لنا طفل واحد نذرف كل الحسرات على رحيله. أليس في رحيل هذه النسخة عبرة تذكّرنا بأطفالنا الملايين الذين نتخلى عنهم يومياً من غير أن نذرف دمعة واحدة على رحيلهم؟

* * *

هناك أمور أشك في وقوعها، لكنها تلازمني كأمر حدث.

اصطففنا في مكان واحد بعد أن ارتدينا كل ملابسنا وتسلّحنا بأدواتنا

التي نحتاج إليها في الخنادق، أو أثناء الحرب.

كانت النفوس هَلِعة، والأسئلة تمخر عباب الألسن، وتستكين على شواطئ المخيلة:

- كيف يمكن أن تكون الحرب.

لم أكن أشعر بأنني مُقْدِم على شيء. أمنية وحيدة كنت أتمناها أن تحدث: أن تصيبه شظية تفتت عظامه، لأعود خياراً محبَّباً لها.

في خندق بائس، هطل في داخلي وجهُ أمي وهي تذرف الكلمات العَجْلى:

- أكره الحرب، تركني كعذق عافته النفس قبل أن تقطفه، وعاد في الليل وسرق رغبته لتتكور في بطني كحجر ثقيل.

قوات متعددة الجنسيات تسعى بيننا، لغات مختلفة، وأشكال متباينة، وشيء غامض يجرى في تلك الصحراء الممتدة، وحرائق تشب في مكان واحد، ومؤامرة دنيئة تحاك في الخفاء، ورجل واحد يُحرق العالم، وتهديد ووعيد، وحزن كبير يتمدد بجوار قلبي النابض بالحياة.

الحياة كلها لا تحتاج لإبرة تشك إصبع أي منّا، هذا إذا كان يقين المتحاربين أن هناك موتاً حقيقياً.

ولأنهم يحملون فكرة غامضة في دواخلهم، كما أحملها، يحوّلون الحياة إلى ركام من الرماد، ويسعون لإحراق ما لم يحترق!

كان يجاورني في خندق واحد، كجرذ تهيَّب مدَّ رقبته للخارج. وفي الليل يتحول الى جثة تصفرُ بشخير يشبه صفارات الإنذار. كل ليلة كنت أهمُّ بإلقاء كعب بندقيتي على جبهته، وأسرقها من أحلامه.

وعندما عدنا، كان يضحك مزهوّاً بأنه ساهم في حرب لم يكن، سوى أمثاله، جديراً بخوضها.

***

كان أفّاقاً.

وبسبب رسائل الغرام الملتهبة التي كنت أكتبها، تغلغل لشغاف قلبها، استعمره، وبقى الآمر الناهي على قلبها، يأمر فيُطاع. جلبها بصنارة كلمات العشق المكتوبة، وحين استوى على هضبتيها، وغرز رايته، هبَّ من استرخائه باحثاً عن أراضٍ جديدة تحقق له نصراً وهمياً يواصل به متعة حياة مكرَّرة.

جئتها في الليل. كانت كالبيت الذي رحل عنه ساكنوه، وعندما أمطرتها بماء القلب، جهشت بالبكاء، وتمنت لو أنني أستطيع أن أعمر البيت الخرب كي لا تقف أمام أبيها ويرى سوءة البيوت الخربة. تمنت مرة أخرى:

- لو لم تكن شبيهاً بالطيف لأخرجتَني من هذا العري.

قفزت أمي في مخيلتي، وذلك الباحثُ عن أمجاد لا تنبت إلا في مخيلته حين ترك بطنها متكوّراً بحجر ثقيل وغاب خلف أدخنة البارود، وحين كان يعود يدس عظامه بين أعطافها ويسرق رغباته ويعاود الهرب خلف أدخنة البارود الفاسدة.

***

وقفتُ على بابها. لم أشاهد أي زينة تشي بالفرح. كنت قد أصلحت قيافتي كما يليق بعريس يدخل عالم البهجة من أوسع الأبواب، لكنه صدمني بعنف:

- لا بد من أنك مخطئ.

- لقد تحدد اليوم للزواج.

- أي زواج؟

- زواجي!!

أغلق الباب وعضلات وجهه تكتم غيظاً طافحاً.

- أنت تتوهم!

هذه الجملة تصادفني كلما أقدمت على ما أشعر به أنه حياة(*).

(*) أجدني مضطراً للتنبيه - أيضاً - إلى أن ما يحملني على كل هذا العنت في متابعة هذه الحالة وتحمُّل مشاق السفر لتلك القرية المغلقة أهدابها عن الكون وما يدور به بحثاً عن حكاية شاردة هنا أو هناك، وتمحيص الكتب، والإصغاء لكل ما يقول مريضي او يقال عنه لسنوات طويلة، لم يكن رغبة في مساعدته؛ كل ما أفعله تلبية لنداء داخلي ما فتئ يلح في خاطري:

- أنت المريض وليس هو، فابحث عن علاجك.

وكل يوم أكتب شيئاً من هذه الحكاية تُفتح عليَّ أبوابُ جهنم، أجدْ أن الحالة تتسع وتبتلعني، وتقودني إلى مزالق خطرة، ودروب موحشة لم يطأها عقل كائن قط. فألوذ بربي مناجياً إياه أن يمدني بعونه. وكلما فكرت بالنكوص، قدح في همتي نداء:

- أنت تقف على باب جديد، وليس مطلوباً منك فتحه. كل ما عليك أن تشير إليه، هناك من سيعالج أقفاله ويمكّن البشرية من أن تدلف إلى الكون من أبواب أكثر اتساعاً.

هذا القول ليس هو المقصود به التنبيه (الثاني). فبعد أن بلغت هذا الحد من جمع حكايات مريضي، ولم يعد هناك شيء من الأحداث الحياتية التي ذكرها ما يستحق مواصلة هذا السرد، توقفتُ عن مواصلة حماقة الحكي، والتفتُّ لأمر آخر، أجلَّ وأعظم (وإن كان من وجهة بعض من استشرتهم مدعاة للسخرية)، فلم يعد مريضي مهماً لتحفيزي على مواصلة الاستقصاء والاستنباط من حياته التي سردها، وجمعتها من أفواه عديدة. لم يعد السرد كافياً، فبمهارة فائقة نقل إليَّ عدوَّ هواجسه لأصبح أنا المريض. فمن أراد مواصلة متابعة حكاية هذا المريض - فأُعلمه بكل دم بارد - أنها انتهت، فلا تثريب على من أراد الوقوف هنا. ومن أراد اكتشاف الدمار الذي ورّثني مريضي فسيجده في الصفحات المتبقية.

لقد غدوتُ أنا المريض، ولن أجد شبيهاً لي يصدق ما وهبته لمريضي من إيمان مطلق بما يقول.

الدكتور حسين مشرف

ملاحق

مستخلصات لكلمات أرعبَتْني

أنا لا أنام.

في الليل أظل فاتح العينين أصل إلى كل الأماكن وأتبادل الحوار مع كل الأشياء.

أتحاور مع الجمادات، الحيوانات، الكواكب، أتحاور مع كل شيء.

هذا الحوار يبدو للوهلة الأولى وكأنني أهذي، لكنني أنا الوحيد الذي أتلقى الإجابة، إجابة تلقى في روعي، ويتسلسل الحوار بيني وبين كل ما في هذا الكون من غير شطط!!

جملة قالها مريضي حينما كان يروي تواجده داخل المدينة.

تاريخ الجلسة ٢٢-٦-١٩٩٦

عندما نقول إن الرجل يبحث عن نصفه الآخر لينصهر به ويصبح واحداً، هذا يعني اتصال النصف بالنصف من أجل الفناء كي لا يصلا للواحد، فبلوغ الواحد بلوغ درجة الكمال.

لذلك نظل مشطورين، لا نجتمع. هذا ما أفسّر به عدم التقائي بمن أحب.

جملة لمريضي قالها عندما قلت له:

- أنت تبحث عن امرأة تحبك

فقال ضاحكا:

- لا يمكن لأي إنسان أن يكون المطلَق، فالمطلق قيمة كاملة ونحن قيم ناقصة. نحن نتف ضئيلة من ذلك الكمال.

وسرد جملته السابقة.

بتاريخ ١-٢-١٩٩٨

الذي أرعبني أن الشيوخ يقولون: إن اللّه ينفخ في الروح بعد تمام ٨١ يوماً، وعلماء البيولوجيا يقولون: إن الحيوان المَنَوِيّ كائن حي منذ البدء، فما هو البعد بين الحياتين: حياة ما بعد النفخ وحياة ما قبل النفخ!!

جملة لمريضي أخذ يهذي بها حين كان يتحدث عن عشقه للجنس.

بتاريخ ٩-٥-١٩٩٩

جبال الكحل تفنيها المراود.

كان باستطاعة الإنسان أن يصل للواحد لكنه يتناقص بما يستمنيه. ملايين النسخ تخرج منه في عملية القذف الواحدة، هذا التناقص يؤدي للنهاية. توصلت لهذا حينما سمعته يقول: تأخذ من التل يختل. نعم، هذا هو التفسير لوصول الإنسان للنهاية.

هذه القناعة فسدت. كنت راغباً في أن أنتهي، ويومياً كنت أستمني، وكلما استمنيت، عدت فتياً، عدت قادراً على العودة المتكررة.

جملة قالها مريضي حينما كان يتحدث عن مسعدة، لكنه، لم يوضح من هو المقصود بقوله (سمعته يقول...) ولم يكترث بالإجابة عن سؤالي:

- من هو ذا الذي سمعته يقول. . .

تاريخ الجلسة ٢-٤-١٩٩٤

مضت عليَّ سنوات طوال لم أذق فيها النوم. تظل عينايَ مبحلقتين أناء الليل وأطراف النهار، فهل هذا يعني أنني خارج زمانكم، ولا أخضع للنواميس التي تُسيّر حياتكم؟

ألقى مريضي هذا السؤال عندما طلبت منه الاسترخاء والابتعاد عن التفكير. في حالته حدث ذلك في بداية الجلسات التي خصصتها له ولم أهتم حينها بتسجيل التاريخ.

لست واثقاً مما يحدث، لكنْ ينتابني شعور طاغ بأنني لست معهم، أو بمعنى أصح لا يحسون بوجودي. يتعاملون معي كما يتعاملون مع وسواس عبر مخيلتهم، فعقب انتهاء أي حديث بيني وبين أي شخص يردف على عجل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. . . ميقن من أنني مت من زمن بعيد وما يحدث هو استرجاع لأحداث حدثت في أزمان مختلفة. . . أزمان هنا وهناك. . . غارت في الذاكرة الأولى وأنا أسترجعها - في كل حين - بصورة ليس لها تحليل منطقي يقودني لتفسير ما يحدث. أشعر ببلبلة متداخلة لم أعد قادراً على جزمها أو نفيها.

كلمات لمريضي قالها حينما كان يتحدث عن تواجده داخل الحقول مغروساً بين الزرع.

بتاريخ ١٣-٤-١٩٩٦

كم من البشر تواجدوا على هذه الأرض وتدثَّروا بالتراب كأن لم يوجدوا. تلك القامات التي ركضت في كل الاتجاهات خلف أحلامها وجشعها تحولت إلى تراب نطأها ونذروها للرياح. . . بل نتمادى في

إهانتها بتغوُّطنا عليها. هل نعرف - في وقتنا الحالي - أن شخصاً سوف يأتي - في زمن ما - ليتبوّل علينا من غير أن يرف له جفن خجلاً مما يفعل؟

ربما يسجّلون أسماء كل من يفعل ذلك، وفي الدورة القادمة يقتصون منهم: هذا تفسيري لجبروت وقسوة الناس على بعضهم!! وأنا أنتظر دوري لأُفسد حياة من أفسد حياتي!

قال هذه الجملة وهو يتحدث عن الآخرين الذين يُفسدون حياته.

بتاريخ ٨-٢- ١٩٨٩

من يلجم طائر الخيال، هذا الذي يرف في كل الكون، يترك جسدك جانباً ويحلق في كل الأمكنة. يصل إلى ما خلف الكون، يقف في كل المدن، يحولك إلى كائن خرافي، يخلق في مخيلتك عالماً يضج بالحياة والناس، ويحقق كل ما تعجز عن فعله. يفعل كل ذلك تاركا جسدَك كقبر مفتوح ينتظر عودة ذلك الطائر ليعيده مع الموتى.

كارثتنا أن علماء الأخلاق قاموا بتدريبنا على ترويض طائر الخيال. حوّلوه إلى طائر سجين للواقع، درّبونا على أن نكون كائنات مستأنسة تسير في خط واحد، وتصور واحد، وواقع واحد، هذه هي الكارثة!!

تم تسجيل هذا القول حينما اتهمت مريضي بأنه رجل خيالي، فقال:
- الخيال هو الدليل الوحيد على صدق ما أقول.

بتاريخ ٦-٣- ١٩٩١

المدينة مخبأ للجرذان والمعتوهين والمنبوذين وعابري السبيل.

هناك يمكن أن ألتحم بالناس من غير أن أحتاج لسرد المبررات أو

الأعذار لهذه الهيئة الشاذة، وللوجود العدم.

كلمات لمريضي قالها أثناء هروبه من العسكر
الذين طاردوه داخل المدينة (هذه الجملة فيها
تناقض مع سَير الأحداث حيث نص في ما
بعد أنه تم تجنيده في الحرب الأخيرة!).
بتاريخ ١-٤-١٩٩١

. . إننا موتى بلا شك، فنحن نعيش حياة داخل موت.

فما نظنه حياة هو دهليز من دهاليز الموت.

ولو لم يكن كذلك، فكيف لنا أن ننسلخ لحالات متعددة!!

جملة لمريضي قالها حينما كان يتحدث عن
يقين أنه مات وعاد، ولا أعرف ماذا يقصد
بكلمة ننسلخ. . . وكنت أظن انه يؤمن بفكرة
التناسخ، أو الحلول، وعندما أخذت أشرح
تناقض فكرة التناسخ، قال:
- أنا من جهة أخرى تماماً، من هذه الفكرة.
قال هذا بتاريخ ٢١-٢-١٩٩١.

ليل بائس كوجه عجوز تجعَّد ونفرت عروقه. ليل صيفي يوزع رطوبته وكآبته بنشاط، وأنا أجلس بين أربعة جدران أمضغ الوساوس برتابة.

غرفة ضيقة متواضعة الأثاث استأجرتها - حرصت على أن تطل على نافذتها - وظللتُ متعلقاً بأوهام كنت أنسّقها بالبال. وكلما مضت الأيام نَمَتْ في مخيلتي، واستطالت وارتضيتُ بها، تقف هناك هياكل طموح ضارٍ. إننا نسمم حياتنا بأوهامنا.

ماذا تقول الجدران وهي تحمل هذا السقف الذي يحجب عنها الفضاء؛ ذلك الفضاء الذي تتشوق لأن تعانقه. ألم تملَّ من حمل هذا

السقف كل هذا الوقت؟ نحن والجدران نتبادل الوقوف وكل منّا مكلّف بحمل شيء ما، وكل منا ضَجِر بما يحمل. هل تنتظر هذه الجدران مرور الزمن لتنعتق من دور وجدت نفسها تقوم به ببلادة واستسلام، ومن غير اختيار منها؟

هل نحن كائنات متخيَّلة، تعيش في الخيال وليس هناك واقع البتة؟

لا أعاني خرفاً وإنما حيرة تبسط أطنابها في هذه المخيلة المتسارعة لنقض كل شيء. وهناك عقول تعمد لتركنا معلّقين في وساوسنا مشنوقين بها، تتدلى أعناقنا من تلك المشانق من غير أن ننعم بالموت أو أن نتخلص من هذه اللحظة الدائمة المعبَّأة بالفزع. لو آمنا بهذا فنحن غير موجودين. عندها فقط سنشعر بسخف كل الأشياء التي نتحارب للوصول إليها أو لها.

جملة طويلة لمريضي قالها أثناء حديثه عما فعلت أمه. فجأة بتر الحديث عن قريته وحبّذ الحديث عن تلك الفتاة التي أحرقت فؤاده.
وهنا عليَّ أن أسجل دهشتي، فهو عاشق لكل النساء.
وهذا النوع من الرجال لا تعذبه امرأة إلا إذا كانت عصية على رغباته، أو أنه لم يكوّن علاقة عاطفية سليمة معها، وظلت جميع علاقاته تتحرك في مخيلته من غير أن يكون لها وجود واقعي.
تم تسجيل تلك الفقرة بتاريخ ٥- ٩-١٩٩٨.

جبال الكحل تفنيها المراود.

الإنسان واحد يتناقص بما يستمنيه. ملايين النسخ تخرج منه. هذا التناقص يؤدي للنهاية. توصلت لهذا حينما سمعته يقول: تأخذ من التل

يختل. نعم هذا هو التفسير لوصول الإنسان للنهاية الجسدية، فهو يسفح ملايين من ذاته، وكل نسخة منه هي تعدُّد لأشكال الوجود، لكن الذي يبقى نسخة واحدة تذوق العنت والمرارة من خلال ما نطلق عليه الحياة.

الذي يحيرني في هذه القناعة أولئك المصابون بالعجز الجنسي، فهم لا يسفحون من ذواتهم شيئاً فكيف يصلون لفناء الجسد. طرأت بالبال فكرة أن هذه الحيوانات المَنَويّة تتحول إلى قنابل داخلية تنفجر لتفني ذلك الجسد... هل أطمئن لهذا الخاطر.

لتكن هذه القناعة مبدئية علّي أصل إلى جواب في ما بعد، أو تساعدني للوصول إليه!

جملة قالها حينما كان يتحدث عن أُسرته وكيف أن هذه الأُسرة لا تلد إلا واحداً يواصل نموَّ شجرة العائلة.
وقد كرر مثل هذه المقولة في جلسة سابقة.
والملاحَظ هنا أنه استعاد الجزء الأول من مقولته من غير تحريف بالرغم من الفترة الزمنية المتباعدة بين الجلستين.

١٩٩٧-٦-٤

أنا أؤمن بأن كل ما في هذا الكون: حي ميت!

الأخشاب ميتة في وجودنا لكنها في الحقيقة تحيا حياة خاصة بها.

الجبال ميتة حية. الإلكترونات حية ميتة.

هل قرأت في سيرة المصطفى: وهل تتذكر الجذع الذي أنّ، وذراع الشاه التي أخبرته بأنها مسمومة، وحديثه مع جبل أُحد.

هذه إشارات مبكرة لأن هناك حياة للأشياء الجامدة لم نتنبه لها، وظللنا نبحث في جذور اللغة ولم نلتفت لعمق الكون من خلال آيات القرآن والأحاديث.

كل شيء حي في محيطه وميت في المحيط الآخر. ثمة حيوات لا حصر لها تحيط بنا إلا أننا نهملها ونتمادى في يقيننا بأنها جامدة ميتة. وكما نلغي هذه الحياة للكائنات الأخرى ونثبت حياتنا، يمكن لنا أن نلغي فكرة الحياة الدائرية!!

جملة قالها مريضي حينما شككتُ في عودته للحياة، فأخذ يتحدث بما كنت قد بدأت الاعتقاد به بإمكانية تأسيس فكرة دائرية الحياة، وقد أدهشني ولم أتمكّن من لجم دهشتي.
تم تسجيل هذه الجلسة بتاريخ ٩-٩-١٩٩٦.

أنا كائن أعيش بصورة استثنائية: موجود وغير موجود.

كان من الممكن أن أُجَنّ، أو على أبعد تقدير أن أدَّعي أنني تآخيت مع جني وأُنهي كلَّ هذه الصراعات التي بداخلي، لكنني فضَّلت أن أستند إلى تحليل علمي يُبقي على توازني ويحفظني من أن أسلّم نفسي للدراويش والأفّاقين.

كارثتي الآن هذا الشعور الطاغي بأنني أعيش حياة مزدوجة؛ حياة تتأرجح بين موت حدث وعودة أحياها في أماكن متعددة، وأراك متشككاً في كل ما أقول، ولم تحاول إيجاد تفسير علمي لحالتي.

قال مريضي هذه الجملة عندما سألته:
ـ لماذا لم تذهب للشيوخ؟
بتاريخ ١٢-٤-١٩٩٣

أذكر أنني مت...
الآن أذكر هذا جيداً...
لستُ واهماً البتة.

هذا ليس ادّعاءً. شيء ما حدث وغيّبني لحظات غدوت فيها روحاً محضة؛ روحاً تحلق في الفضاء وتنظر من عل لجِيَف لم يفتك بها العطب بعد. كنت كالغمامة أرتفع رويداً رويداً وأحس بأنني أتحرر من ذلك الدنس الخفي الذي يربطني بجسدي، وأرى شكلاً فاتناً لهذا المخلوق الذي يرف بلا أجنحة. شيء ناصع خالص من كل الشوائب، وارتفع عمودياً فوق جسدي المسجّى. لم ينتبني جزع على ذرف الدموع التي سكبتها أمي، ويترجرج ذلك الجسد الذي تنوشه بيديها، يترجرج كسائل لزج لا يبتعد عن مركزه.

لم أنعم كثيراً بتلك الروح المحضة، الخفيفة، الطاهرة، النقية – لا توجد كلمة يمكن أن تصف ذلك الشيء –. فجأة، سقطتُ من علٍ. هويت كحجر ثقيل، وأخذت أستنشق رائحة جسدها الشهواني، وألتصق بنهديها العاجيين، وأنزلق لأحشائها، وأجد خشمي مغروساً بين فخذيها تدفعه هناك لتعود أنفاسي مجهدة تحاول الابتعاد من ذلك الالتصاق العفن.

ساعتها فقط، سحبتني وألقت بي في حجر أمي وهي تزغرد:

– ألم أقل لكم إن سر الحياة يبدأ من الفجوة التي أخرجتنا لهذه الدنيا.

جملة لمريضي حينما كان يتحدث عما فعلت معه مسعدة.
وفي جلسة تالية فسَّر علاقته الدنسة بمسعدة قائلاً:
ـ الدنس له جاذبية تقودنا للالتصاق به.
قالها بتاريخ ٣-٧-١٩٩٠.

لو لم أكن في حالتي هذه، لكنت محلَّ مراقبة دائمة. لقد أتى أبي شيئاً مُنكَراً فلماذا لا يتم القبض عليَّ. فأنا ابنه، ألا يحق لي أن أرثه في

ماله، وديونه، وجرائمه أيضا؟

لا أحد يلمحني. أنا هكذا طيف، هائم من غير أن يكترث به أحد.

جملة لمريضي حينما عرف أن عُمَراً غدا أميراً
على قرى الوادي بواسطة مخطط أبيه.
تم تسجيل هذه الجلسة بتاريخ ٢١-١-
١٩٩٧.

أشياء كثيرة أجهلها، وبمجرد الحديث عنها، تُلقى بروعي سلسلة من الكلمات التي أتفوه بها من غير دراية، تجعل الآخرين يتوهمون معرفتي بكل شيء.

أستطيع الحديث معك عن أمور علمية دقيقة. بمجرد أن تبدأ أنت بالحديث ينتقل كل ما بداخلك على لساني فأهذي به. لديَّ كمٌّ هائل من الكلمات التي لا أعرف معناها ولا أستطيع معرفة دلالاتها!

تم تسجيل هذه الجلسة بتاريخ
٣-٥- ١٩٩٨.

حين ألتفُّ بالليل تبدأ هواجسي، تتناثر حكاياتٍ حميمةً تُغرقني بداخلها فأتشبث بالماضي، أسعى إليه حثيثاً وتبدأ خطوات خلفية. حياتنا تسير بعكس اتجاه عقارب الساعة. يومياً أتخلى عن هذه الحياة وأنكص. هل يمكن أن أقول أرتكس (وفق المفردات اللغوية التي ضيّعتنا لعبتها ودلالاتها).

أنزل درجات الأيام سريعاً، وبذلك القبو البعيد أتقرفص، أعيد تفاصيل وجهها... ضحكة أمي... طفولتي بين منحنيات القرية، أترابي الذين أحبهم وأكرههم. لماذا كل هذا الهرب؟ لماذا نأكل حياتنا بالانتظار كي نصل لنقطة ما رسمناها حينما كنا أطفالاً أو شباناً، وعندما بلغناها بدأنا نتضجر وبحثنا عن سبل وهمية للعودة لتلك الطفولة.

جملة قالها حينما طالبته بأن يحدثني عن
طفولته، وما هي الأشياء التي يحبها
ويكرهها.

بتاريخ ١٩٨٧

إننا نحمل جثثنا ونحنُّ لاستنشاق روائحها... ثلاثون جثة أحملها بكل تفاصيلها، وكلما حاولت المضي في أيامي سحبتني إليها وأجلستني بجوارها. كيف يمكن لنا أن ننسى هذه الجثث التي قبرناها في أعماقنا، بعضها تم قبره لأنه مات وبعضها نقبره وهو لا يزال حياً. إن أسماءها تعيدنا إليها، ولو لم يكن هناك أسماء لغارت تلك الجثث في علبة الذاكرة الرخوة ولاختلطت بمسميات عديدة. إنها تلتهمنا يومياً، لكنها لو كانت بلا أسماء فربما تظل كل جثة باقية في مخيلتك تشير لصاحبها بعينه لكنك لن تستطيع تبادل ذكرياتها مع المقرَّبين حولك. سيمضي وقت طويل وأنتم تحاولون تثبيت الجثة التي تودون الحديث عنها:

- لا، لا أقصد تلك الجثة.

- أيُّ منها؟

- تلك التي عندما كنا أطفالاً ركضتِ خلفنا لتُخرجنا من باطن الحقول.

- هناك مئات الجثث أخرجتنا من الحقول، أيها تقصد؟

- تلك التي عندما ذهبنا إلى الآبار تعثَّرتْ ووقعتْ داخل بئر خربة.

- ربما أتذكرها، ولكن في مخيلتي ثلاث جثث وقعت في البئر فأيها تقصد؟

سنظل نجترُّ حوادث كثيرة قبل أن نصل لأي من الجثث التي نتحدث عنها.

لذلك لو أننا بلا أسماء فلربما نجونا من تصدُّعات عديدة.

الاسم هو عنواننا الذي تصل إليه كل الكوارث وكذلك الأفراح. تحوّلنا أسماؤنا إلى صناديق بريد. نستقبل أقدارنا وننفّذ ما بداخل تلك الرسائل حرفياً لكننا لا نستطيع أن نقوم بالدور الطبيعي لعملية الإرسال والاستقبال، كأن نرد على تلك الرسائل بأننا مللنا!!

هناك أناس يريدون الهروب من أقدارهم فيستبدلون أسماءهم، إلا أن شيفرتهم القدرية تظل محفوظة. هي أشبه برأس صاروخ مُبرمَج للوصول لهدف بعينه وتصل إليهم رسائلهم من دون سواهم.

ليس هناك مفر!!

نحن أشبه بأشرطة ممغنطة وُضعت بها الصفات التي عليها أن تنقلها إلى المستقبل. هل نحن سفينة نوح؟

إن الكوارث العظيمة لا تُذهب صفاتنا المبتذلة. لقد تم ترحيل الخسة والدناءة والغدر والفسق والجحود وكذلك النبل والإيثار والكرم: جميع الصفات تم ترحيلها عبر الزمن، ونحن السفينة التي تقلُّها. نحن نُسَخ من سفينة نوح نقوم بنقل ما تحتاج إليه من صفات مبتذَلة ونبيلة لكي تدور بنا بحور الكون من غير أن ترسو وتعلن نهاية الكارثة الإنسانية.

أيٌّ منا يرغب في أن يتصف بالجبن، أو الخرق، أو الخرف، أو الجنون؟

إن هذا أنموذج فقط. كلنا يسعى إلى أخلاقيات وهمية تم الاتفاق عليها من الأزل بينما حقيقتنا أننا كائنات لامنطقية، فقط نرتدي تلك الأسمال لكي نكون الحياةَ الاجتماعية بينما تنز حيوانيتنا من تحت جلودنا... نتحين الفرصة للغدر أو السطو أو الفتك... ليس بصورة رياضية وإنما بأحاسيس متناقضة. فلو بُعثر ما بدواخلنا فسنجد أننا توليفات مجدولة بإتقان، نجدل كل صفتين متناقضتين في شعيرة رقيقة، ونتظاهر بتغلب الصفات التي تحبذها الجماعة. قلة منا تصاب بالملل؛ ملل اللعبة المكرَّرة، فتخرج على هذا التجمع المتواطئ على ممارسة اللعبة المكرَّرة

لتعترف بأنها منافقة أو خسيسة أو حاقدة!

هل تحبذ أن أستمر في كشف ألاعيب هذا التواطؤ الذي تسمونه حياة...

حديث طويل لمريضي، قاله في بدء الجلسات التي خصصتها له، ونص عقب هذا على أنه يجد الكلمات تقف على طرف لسانه من غير ترتيب أو معرفة مسبقة بالقول الذي أفرغه على مسامعي!

بتاريخ ٢٨-١٢-١٩٨٩

شخصيتان سائدتان في الحياة: متسلط وخاضع.

هذه الثنائية هي التي قامت عليها الحياة، وهي التي صنعت هذا الكمّ المهوّل من أحداث التاريخ. ولكي تهرب المجتمعات من أن توصَم بإحدى هاتين الصفتين، فإنها تخلق ثنائيات أخرى لكي تستجير بواحدة من دون الأخرى حين يتأزم الوضع.

بالنسبة إلي، أشعر بأنني أخبّئ رجلاً متسلطاً، بينما شخصيتي التي أسير بها بين الناس تبدو متسامحة حدَّ السذاجة. فمن منها الحي ومن منها الميت؟!

جملة قالها مريضي وصُعِقتُ لترديدها بهذه الكيفية.

وعندما صارحته بذهولي ضحك قائلاً:

- هذه التقطتها منك. كنتَ تفكر في أن تقولها. أليس كذلك.

وبالفعل، كانت هند تعبر مخيلتي وأنا أعاتبها في مخيلتي كالعادة، وأُبرِّر لها عدم إقدامي على المحاربة للوصول إليها.

وفي بقية جلساتي معه، كنت أجاهد ألاّ تقف

هند في مخيلتي، لكنه في إحدى الجلسات قال:
- لماذا تُتعب نفسك بإبعادها كلما جالستَني!!
حدث هذا في إحدى الجلسات المدوَّنة بتاريخ ٦-٨-١٩٩٤.

لست واثقاً من رؤيتها في الواقع. ربما كان حلماً، لكنها تملأ وجودي، وكلَّ يوم ألتقي بها، وفي أحيان تضيع كل الملامح التي أستدل بها على مكانها. ربما كانت تأتي في الحلم أو عشتُ معها في زمن من الأزمان، وحكايتنا كلَّ يوم لها بداية وتتفرَّع الحكايات... تلك الحكايات التي تقع لعاشقين: عشق ولوعة وحرمان وخيانة وزواج من آخر. مرة أجد نفسي عارفاً بكل شيء وأستطيع أن أحدِّثك عن أدق التفاصيل العلمية، ومرة أغدو قروياً لا أفهم من الدنيا سوى ذكريات بالية تُقلقني في كل حين... كأنني رأيتها أول مرة. هي تشبه جارتنا التي مارستُ معها الجنس في غفلة عنها واكتشاف أبي لهذه الممارسة السرية. فهل المرأة التي نمارس معها اللذةَ الأولى تعود تطاردنا مرة أخرى؛ تعود لتكشف لنا بواطن اللذة المفقودة في حياتنا. هذه المرأة أشبه ما تكون بمسعدة العارفة ببواطن الكشف عن الرغبة، والعارفة بأنها تبحث عن ميسم لا يذهب أثره من جسد دابتها!!

جملة لمريضي حينما كان يتحدث عن معشوقته في المدينة، حيث يشعر بخلط بينها وبين زينب ومسعدة.
فمرة يقول هي مسعدة بعينها، ومرة يصر على أنها زينب! وثالثة يقول هي أخت صديق له تجمع الشبه بمسعدة وزينب.
بتاريخ ٢١-٦-١٩٩٥

أشعر بأن ثمة تقاطعات حادة بين هاتين الشخصيتين، تتجاذبان وتتنافران، وأنا المشدود بينهما كدمية لا تستطيع أن تسترجع ثيابها التي انتزعتها منها طفلتان مشاغبتان.

يروق لبعض الكتّاب أن يصمنا بأننا دمى في أيدي الآخرين، وإذا كان هذا صحيحاً فإلى أي حدّ يمكننا استرجاع ذواتنا حين ينتهي الآخرون من اللعب بنا؟

هذا السؤال الفجّ، كان يعترك داخلي فلا أجد له جواباً. وفي محاولة لمعرفة إلى أي حد كان أجدادنا لعباً في أيدي الآخرين، قرأت كتباً في التاريخ والسير، فصُدمت وتراجعت على الفور عن مواصلة ذلك البحث العقيم، وأيقنت أن التاريخ صياغة مقلوبة للحاضر. هو قطعة القماش التي تخاط من الأمام، ولكي يبقى مُحكَماً عليك أن تخيطه من الخلف... نعم هو رتق إبرة تدخل من جهة وتخرج من جهة أخرى. فكل العصور هي صُوَر مكرَّرة لبداية ظهور النزعات البشرية الحقيقية؛ تلك النزعات التي لا تقف عند حد معين. ففي سبيل تحقيق مصالحها يمكنها أن تدوس على كل شيء وتمضي لغايتها.

في بداية مهاتفاتنا حين كنت شغوفاً بسماع صوتها المبتهج والذي يحمل رايات الحبور على مشارف كلماتها الأولى، وبرغم هذا الحبور، فإنها لم تكن تثق بمن تتحدث معه، وأشارت الى أن الشرّ نزعة أصيلة في تصرفاتنا، وأن كلاًّ منّا يتحين الفرص لكي يظهر على حقيقته. وأنهت مكالمتها بجملة باترة:

- أنت شرير، عليك أن تعرف هذا.

وأخذتُ أبحث عن الشر في داخلي، إلا أنني كنت ميقنا أن حقيقتي لم تتعرف إليها البتة.

جُمَل لمريضي قالها حينما كان يتحدث عن
تشتُّته بين يقينه وواقعه.

بتاريخ ٩-٥-١٩٩٠

الموت حلّ مؤقت كي لا تنفجر الحياة فجأة، لذلك أوجدَت الحياةُ طريقةً للتقليل من التواجد الذي تفرُخه عملية التكاثر.

وإن كنت أرى - في أحيان - أن الحياة عثرت على مطبعة لاستنساخ كائناتها، وبالتالي واصلت هذا التكاثر مقابل موت مؤقت أو تهريب الكائنات الميتة الى جهة أخرى تمنحهم فيها كل مميزاتهم التي غادروها في كوكبنا الأرضي.

جملة لمريضي قالها حين اشتكى من تداخل معارف شتى في ذهنيته وشعوره، بأنه قالها ذات يوم من غير أن يحدد لمن قالها وفي أي زمن.

بتاريخ ١١-٣-١٩٩٤

تُرعبني فكرة الدائرة. كان هذا عندما علمت أن الدائرة تمثل الشكل الكامل؛ هذا الشكل يتكرر في كل الموجودات. إننا نعيش دورة كاملة. التمثيل الغذائي، التوازن البيئي، الأرض، والكواكب: كلها أشكال تقترب من ذلك النموذج.

عندما بدأتُ القراءة كنت لا أجيد رسم الدائرة حيث يرتكز رأس الفرجال في جهة وسرعان ما تحركه يدي المرتعشة في جهات متعددة، فأعيد المحو بينما كان أستاذي صارماً وهو يردد:

- إذا لم تتقن رسم الدائرة فلن تفهم شيئاً.

من هنا بدأ اهتمامي بالدائرة.

ولم أعد أتقن شيئاً كرسمها. لم أعد أستخدم الفرجال. غدوت بلفة دائرية سريعة خاطفة أكون قد كوَّنت دائرة.

كنت أرى أن كل جيل يمضى بمن معه، يتحاسبون ثم يعودون بعد زمن سحيق بذاكرة ممسوحة ويكررون الحياة بصورة أخرى.

هذا الإيمان كاد يُدخلني مستشفى الأمراض العقلية. فحين كنت أسرد لطبيبي النفسي بعض وساوسي نهض من كرسيه وأدار جهاز التلفون وتمتم بجمل قصيرة مبتورة باللغة الإنكليزية فهمت منها أنه يطلب حجزي وترحيلي لشهار، فلم أُبدِ دراية واستأذنته لدخول الحمام، ومن هناك قفزت للشارع ولم أعد إليه. وعندما أسررت به لأحد الشيوخ ردد:

- عليك بالاستغفار والابتعاد عن وساوس الشيطان.

لا أظن أن أحداً عاش إحساسي، فأنا موجود وغير موجود. موجود بالنسبة لأحاسيسي بينما في حياة الآخرين أنا مجرد جرم يتحرك ولا يشعرون به. يرونه ولكنهم ينعتونه بالغموض والظهور المفاجئ.

أعرف أن الأشباح تُصدر أفعالاً، ولا تُرى. يبقى منها أثر لكنني أظهر وأفعل. الكارثة أن أفعالي وأحاديثي لا تترك أثراً عند من أعيش معهم... هذه الحالة هي الكارثة بالنسبة إلي.

هذا حديث لمريضي نقلتُه كما سرده في إحدى الجلسات ولا أعرف عن أي مدرسة يتحدث.
هل حدث له ذلك في قريته أم في المدينة.
الذي أذكره عندما سألته عن ذلك أنه ردّ قائلاً:
- أنت تقف عند الأسئلة البسيطة.
الجلسة بتاريخ ٤-٧-١٩٩١.

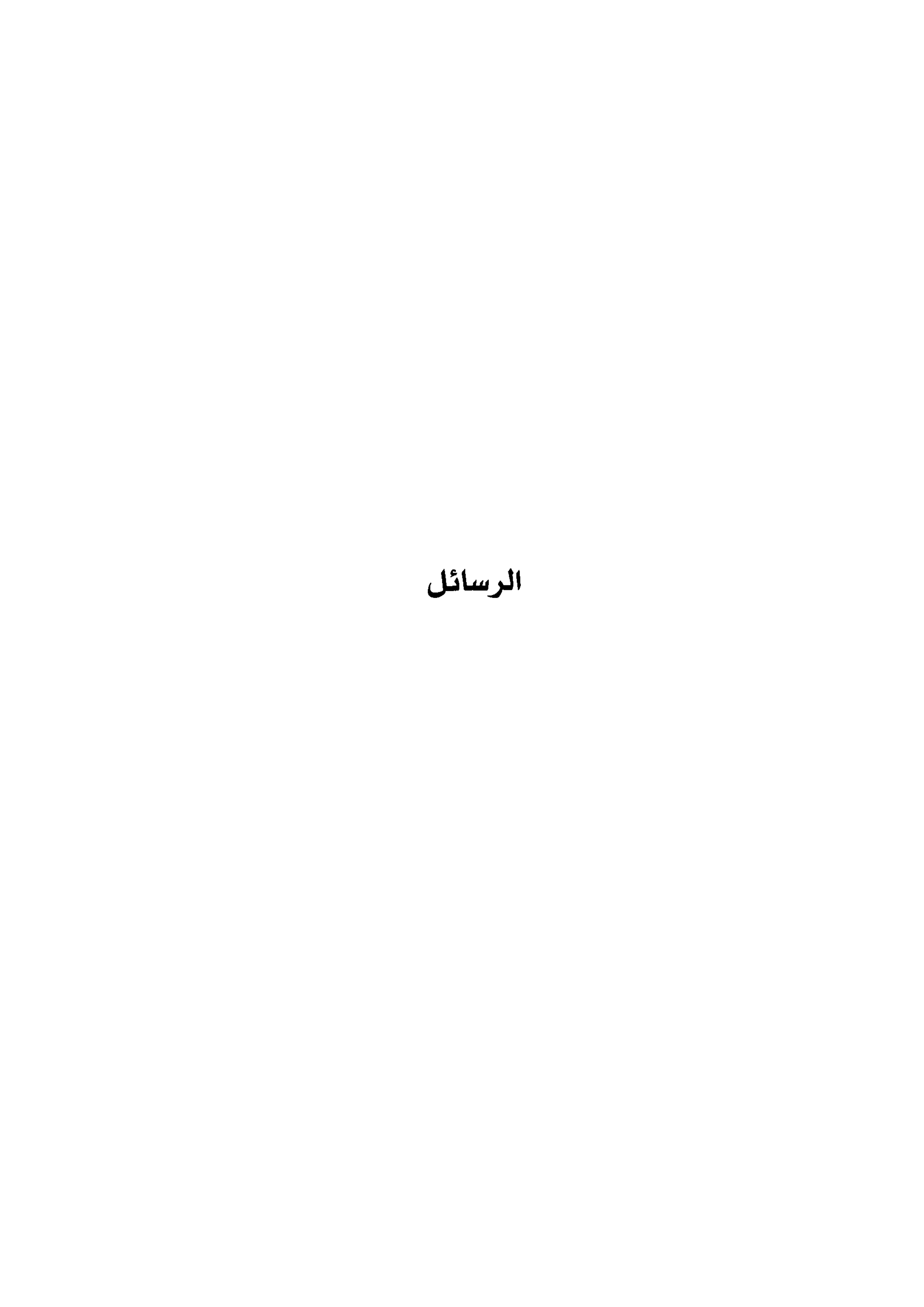
أتريدني أن أُرعبك:

أنا أرى كائنات أخرى، ألمحها، وفي أحيان أتحاور معها ونتحدث، كما أجلس أنا وأنت الآن. هل تصدق هذا؟

جملة لمريضي قالها في الجلسات الأخيرة.
٢-٤-٢٠٠٠

هنا سجلتُ كثيراً من كلمات مريضي التي لم أجد لها مكاناً ملائماً وسط السرد الذي جمعتُه، أو سمعتُه منه ومن غيره من أبناء القرية التي عاش فيها كما زعم. والسبب الرئيسي الذي جعلني ألجأ إلى فصل هذه الجمل عن بقية النص، شعور ما بأن كل جملة - من جمل مريضي - تحتاج إلى تحليل مستقل.

بقي أن أقول إن الجمل التي بدأتُ بها كل فصل - من فصول السرد - هي مقولات لمريضي، كانت تقفز من فمه من غير أن يوصلها بجمل أخرى.



الرسائل

حضرة الأخ العزيز عمر أبو دربين حفظك الله

السلام عليكم ورحمة اللّٰه وبركاته،

الآن استوى لي الأمر، هي أيام ويصلك خطابي بالتوجه إلينا.

هناك أموال طائلة وعدت بها لو نجح مشروعنا، وسيتحقق حلمنا الذي راودنا هناك، فقد اتصلت بهم، وشجّعوني على ما نحن مقدمون عليه. لا تنسَ أن الدور المهم يقع على عاتقك.

انتظر مني رسالة قادمة.

مسودة لرسالة بعث بها صالح التركي لعمر أبو دربين.

بتاريخ ١٢ -٤-١٣٩٩هـ.

حبيبتي.

(. . .)

تجلسين كامبراطورة ملت الحكم، واقتعدت عرشها تنتظر عشيقها المفتون بالحروب وفتح المدن واعتلاء عرش القلوب، وكأنثى ترهن تاجها لمن يعيد ذلك العاشق لبلاطها.

في النهاية، أنت لا تريدين كل هذه المدن، لا تريدين أن تنهضي من

على عرشك لتجدي كل الهامات منحنية. أنت تريدين أن تنحني رقبةٌ واحدة، وقبل أن تمدي خطوتك يكون متأبطاً خصرَك ويراقصك ويهمس لك بكلام مبتذل.

حسبك!

يكفي أنْ منحتُك قليلاً من ماء الخيال أو من أمنيات تجاور دماءك وتستصرخ بك:

- أريده كطفلة تبحث عن لعبة قديمة شاركتها بداية الأحلام الأولى وحضرت معها تفتُّحَ الورود وانسكابَ المطر، وحين ذهب الغمام كانت الطفلة تحلم بأن لعبتها قادرة على أن تصف لها ما حدث بالأمس.

نحن لعب رديئة، نتجاور ونفترق كما لو كنا طيوراً خفقت أجنحتنا في فضاء واحد لكننا مجرد طيور لا تفهم أن الأرض غير قادرة على التصويب لكنها قادرة على حمل صياد يجيد القنص!!

الآن، بالتحديد الآن، أشعر برغبة لأن أضمك وأدسَّ يديّ في شعرك المسترسل كشلالات سُرقت من جبال إفريقيا، وأنتزع ورقة خُبئت بين أشجار تلك الشلالات، أنتزع سحره منك لتعودي طفلة تجاور لعبة قديمة... ساعتئذ - فقط - سأرتب أولويات أحلامك وستكونين المعشوقة التي ضيّعتها في أوهامي وسأكون العاشق الباحث عن فتوحات كبيرة، لا لأصل إلى المدن الصلدة أو المختبئة خلف سحرها وغموضها أو النائمة في أمنها، أو المرحّبة بفاتح غر، ليس كذلك، بل لكي أصل إلى هدبَيْ عينيك أجلس في زواياهما الحائرة ما بين الكحل المجلوب لعينيك من الجبال المنهوبة وما بين لحظك العامر بالقلق، وكلما همّت حدقتاك بالبحث عن عاشقهما ارتقيتُ دمعتك وشربتها وعزفت لك لحناً بدائياً ونحرت لك قبائل الكلمات وطفت بك بين صرعى الهوى ونصّبتك صنماً أتوجه إليه كإحدى إلهات الإغريق وأظل مفتوناً بخضوعي، مفتوناً بهيامي بك، وأطل على وجنتيك، شفتيك، غيمتَيْ صدرك الناضجتين

المهمَلتين، وربما بقيت في نهر صدرك خفقة مرتعشة حائرة تتمنى أن تهدئها أناملك.

ربما كنت أحلم بهذا.. ربما (...).

نحن حين نتصنّم في قالب واحد تألفنا الروائح، تلتصق بنا ونغدو كلَّ البشر، لا يميزنا إلا انتصاب قاماتنا ووهم حقيقي أننا نقف ضد الفناء بينما نحن نقف أمواتاً. نحن نغني في زمن متحرك، نغني للفراشات في زمن الديناصورات. هل تَعِينَ الفرق؟

ماذا يضير لو سرقتُ أناملك وسرت بك كأميرة نائمة أو قروية ساذجة تبحث عن الطريق، فظهر لها عاشق أضاع الدنيا من عينيه، وحين سايرك اكتشف أن كل الطرقات تؤدي إليك، فقطف قبلة عشوائية، وعلَّق مواله بشحمة أذنيك وتركك علَّك تقتفين أثره.

أكان مخطئاً؟ وماذا حدث؟ هل مادت الأرض وذابت الجبال بصخورها الصلدة بين سهوب ومنحدرات السهول المرتوية بأشجارها المخضرة؟ (...).

نحن قوارير ترجّ فيتقلّب الكون، وتغدو أماكن قرع النعل فضاءً، والفضاء بركةَ ماء آسنة!!

ماذا يضير لو أنني وجدتك صدفة في شبابي، وخرجنا في نزهة حب ولم نعد إلا للحودنا، وينتهي الأمر والعمر في نزهة قصيرة ربما كنا خلالها قطفنا العالم ولهونا به قليلاً وعدنا للأرض لنكون سنبلتين متجاورتين. باللّهِ عليك ماذا يضير؟

إن قلوبنا حين نقطفها تغدو صدورنا مظلمة موحشة وفي وحشتنا نتخيل نفقاً صغيراً سوف تصله أقدامنا... ربما نرتكب حماقة عظيمة حين لا نكون مجهَّزين بمعرفة حقيقية قريبة قرب روائحنا منا، تلك الحقيقة أن أقدامنا عمياء لن تصل للنفق.

ومع هذا نعيش بافتراض أن نصل، وقد نصل صدفة.

أحببتك في آخر لقاء...

لتكن هذه الجملة حذرة، أو لتكن كمحاولة طفل يقفز مراراً للوصول إلى تفاحة تدلّت من شجرة الدنيا.

هل هي غواية الأنثى أن تبحث مرة أخرى عن التفاحة؟

ربما أقول لك إنني عشقت مئة امرأة، وكل امرأة أنفر منها وأهرب بحثاً عن عذاب آخر في امرأة أخرى... وكل امرأة أعرّيها وأقطف ثمارها وأتركها مرمية بجوار قلب يقفز كطفل للوصول إلى تفاحة تدلّت من شجرة الدنيا، فجأة يكتشف أنه كان يحلم أو ربما حدث كل ذاك لكن لا يتذكر أين... يتذكر فوران رغبته، وجنونه بثمرتين ناضجتين قضمهما فسالت وديانه وأفاق مبلّلاً، لكن الجسد البض لم يكن بجواره (...).

إن الحلم نعمة عظمى، يمنحنا مقدارُ التلون مقدرةَ أن ننتصب مرة أخرى ونسير مجاورين للأمنيات تظلّلنا في هجير الأيام المتآكلة، وكم هي بعيدة تلك السحب التي نتفيأ تحتها.

لأقف هنا.

أحببتك في آخر لقاء، لكنني جُننت. كان من اللائق أن أسرق أناملك ونسير في منحنيات المدينة وأقبّلك. فربما عدنا للحودنا منتشيَيْن.

كنت راغباً في التوقف هنا، لكن خطر بالبال هاجس:

- هل كنتِ ستتخيلين أن من كان يياسرك هو ذاك العاشق الذي أدمن الحروب في المدن البعيدة.

لا يمل من حروبه الدنكشوتية، فكلما أنجز معركة ذهب لأخرى؛ تلك المعارك والجثث هي نساء طوّح بهن في غرامياته ومضى عنهن ملطّخاً بعواطفهن، وأنتِ العذاب الذي يلاحقه، بقيتِ عالقة في ذوائب سيفه، كلما ناشه أمام امرأة خرجت نائحة فتجفل منه النساء، لكنه يغريهن بأن التي علّقها على سيفه ما هي إلا دمية تجلب له الحظ.

ألا زلتِ تنتظرين عودة فارس لا يعود؟
(. . .)(*)

رسالة من مريضي ادّعى أنه كتبها لحبيبته
بتاريخ ١٤١٩هـ.
(*) ما بين القوسين كلام غير واضح.

حضرة الأخ صالح التركي المحترم
السلام عليكم ورحمة اللّه
. . . كما أن الحياة غدت ضيقة لا تتسع لشيء من ذلك الحبور القديم، كل شيء سقط ولا أعرف كيف أتمكن من استعادته. . .
لم أعد قادراً على العيش، فبعد عودتي من الحرب، وجدت أني عازف عن كل شيء، ورغبت في الرحيل، لكنني تراجعت عن ذلك.
فأنت تعلم أن الرحيل يستوجب. . . وهناك في. . . لا أعرف كيف أستطيع التغلب. . . ومع هذه الضائقة فأنا عازم على فعل أي شيء يبعدني. . .
أتذكر تلك الأيام حين كان المال يجري في يديّ لكن الحرب التي. . .
الحالة ضنك، فإذا كان حالك ميسوراً، فأنا أنتظر شيئاً منك.
لا تتأخر عليَّ بالرد، فسوف أكون. . .

رسالة من عمر أبو دربين لصالح التركي
تلاشى كثير من سطورها،
كُتبت بتاريخ ٣-٥- ١٣٥٥ أو ١٣٩٥هـ.

يا أخي،
حينما تكتب لي رسائل غزل، أتمنى أن تكون الكلمات سهلة، فأنا عندما أقف أمامها تطالبني بإعادة جمل الشوق الشاعرية التي تكتبها.

أنا لا أريد أن أصبح شاعراً عذرياً. أنا أرغب في إنهاء تأجُجي من غير الدخول في كلمات شاعرية.

أخوك طارق الباشا
رسالة من صديق لمريضي
من غير تاريخ.

الأخ صالح التركي

بحثت كثيراً عن المادة التي لم تخبرني باسمها تحديداً لكي أجلبها لك لتسعف محاصيل قراكم، لكنني لم أتعرف إليها، لذلك أرسلت لك مادة لمكافحة الجراد أخبرني بعض الأصدقاء أنها كفيلة بإبادة ما حولك من الجرذان والجراد. هي تبيد كل ما يخطر في بالك، فأبقِها في حوزتك فربما تحتاج إليها لإبادة من تكره.

رسالة من عمر أبو دربين
بتاريخ ٤-٧-١٣٩٠هـ.

الأخ صالح

سأكون بينكم في منتصف رجب، حذارِ ألاّ أجدك.

فهمت كل التفاصيل التي أخبرتني بها، ولو اكتُشف أمرنا، فهل تتوقع أن نجد لنا منفذاً لليمن.

جزء لرسالة من عمر أبو دربين لصالح التركي
من غير تاريخ.

الأخ صالح

وصلتني رسالة من صديقنا أبي محمد؛ ذلك الثائر العنيد، يبدو أنه أناخ بحمله، فرسالته تتحدث عن مشاريع تجارية سوف يقدم عليها من خلال تواجده في القدس. لم يعد يعنيه التحرير، ويقول إن الجهات كلها

سُدَّت عليه ولم يعد أمامه سوى السير مع التيار، . والأغرب من كل هذا أنه مُقْدم على حمل الجنسية الإسرائيلية. تصور، تصور الإسرائيلية!

إن الوجوه تتغير، فكيف يمكن لنا الإيمان بالكلمات التي نتبادلها؟

فهل الكلمات مياه تتشربها الأرض والشمس ولا يبقى منها إلا تذكُر ساعة هطولها؟

ستجدني أقف بعيداً وأحاول البحث عن أداة لقطع لساني حين يستوجب الأمر ذلك. نعم قطع اللسان هو الوسيلة الوحيدة لقطع الماضي عن الحاضر، ساعتها فقط نتحول إلى شهود لا تجدي شهادتنا في إدانة أحد أو نبش ذاكرة لا تمتلك إلا الكلمات التي تتشرَّبها الأرض وأشعة الشمس الباحثة عن مياه تصعد بها للأعلى ومعاودة لعبة الطعن التي نجيدها جميعاً.

عمر أبو دربين
جزء من رسالة طويلة،
بتاريخ ١٣٩٩هـ.

أنا امرأة أرغب في حب رجل أشبه بحائط قلعة قديمة صعدت سلالمَها آلافُ الأقدام. . . أنقاض تلك الأحلام التي خلفتها لم أعد أهتم لتلك الكومات من الرماد، وعندما يشير إليها الناس أعرف أنهم يشيرون إلى أحلامي في الحب. . . إلى كومة الرماد.

رسالة ممزَّق جزء منها، وبقي هذا الجزء،
ادّعى مريضي أنها رسالة موجَّهة إليه.
من غير تاريخ

حبيبتي. . .

اشتهيتك حينما رأيتك.

أعدتني لأول لذة. . . ساعتها اكتشفت أنني عبرت سنوات طويلة من

غير أن تمسَّني تلك النار... النار الأولى... والمغامرة المفجعة المدهشة. أعدتني لنهدين نافرين ومؤخرة كانت تترجرج بتوتر.

حين جلستِ أمامي مباشرة، كانت أصابعكِ الدقيقة الناعمة الملساء والمنتهية بطلاء أحمر كالنار، هي الشرارة التي أحرقت داخلي وأطلقت ذلك الطائر لأن يحلق على هامتك. لم يكن ثمة صوت يشبه انطلاق المقاليع في الحقول الناضجة يقرع في أذني. كانت شفتاك ترتعشان بارتباك وثمة شيطان يجلس بينهما ويغريك بأن تقطفيهما ولتغادرْ بعدها الدنيا أو الآخرة. صدرك الفائر أبان ذلك النهر الذي غرقتُ فيه منذ زمن. وتانك القمتان الشامختان تغريان الطائر بأن يقف على رأسيهما.

كنت حائراً لسؤال عصف بي:

- هل تحب روحها أم جسدها؟

رسالة بخط مريضي مُرسَلة للشخصية نفسها
التي يقول إنها حبيبته بتاريخ ١-٣-١٤٢٠هـ.

أتذكرين آخر حواراتنا، سوف أعيد كتابتها، فالذي تتفوهين به تلتقطه ذاكرتي ولا تنساه أبداً. آخر حوار دار بيننا كان نصه:

- الوهم حربك الدائمة ضد الإهمال.

- لم افهم!

- أنتِ تحبين الوهم ولذلك أعذرك، فالوهم يحقق وجودنا، يتركنا ننعم بقليل من هدوء الأمس ويضع مرهمه السحري على أوجاعنا فتبرد أوجاعنا.

- أنت لا تحبينه... تحبين الرجل الذي يعذب الأنثى بداخلك، يعذب صلفك، صلف أنثى ميقنة أنها مهوى الأفئدة فكيف يأتي هذا الأرعن ويشيح بوجهه عنك. أنت تدافعين عن وجودك.

ولا زلت مصراً على أنك تحبين فيه التضليل، فكلما جزمت أنه يحبك وجدته نائياً عنك...

ولذلك سأظل سنوات واقفاً على بابك حتى تكتشفي وهمك أو أكتشف وهمي!!

رسالة من مريضي للمرأة نفسها
بتاريخ ٨-٦- ١٤١٩هـ.

الأخ صالح،

هذه رسالة وصلتني من قائدنا في معركة «المخطط ٢»، ستجد فيها أن كل الاشياء سقطت.

عمر أبو دربين
بتاريخ ١٣٨٩هـ.

الأخوان عمر وصالح،

السلام عليكما ورحمة اللّه وبركاته،

لا أعرف لماذا تذكرتكما من دون سواكما. هل لا زال صالح يحلم بالرئاسة، لكي يقود جيشاً ويقف به في أرض القدس!!

هذا الحلم الساذج كان لذيذاً في تلك الأيام، أما الآن فغدا مستحيلاً وعبيطاً أيضاً.

تركت الجيش وأعمل الآن مستشاراً في إحدى المؤسسات المعنية بالدراسات الاستراتيجية - كمستشار - وافتتحت لي متجراً لبيع الحمضيات. لو لكما رغبة يمكنني أن أورد لكما هذه البضائع لنكون شراكة تعبر المحيطات، ونغدو تجاراً نقف ببضائعنا في كل الموانئ بدلاً من الوقوف بجيشٍ صالح على أرض القدس. أنتظر ردكما.

يعقوب أبو غريب
قائد مشاة سابق، وبائع حمضيات حالياً.
بتاريخ ١٣٩٠هـ.

منذ أن رأيتكِ، همتُ بكِ، ولم أعد قادراً على نسيانك، فارحمي من هم في الأرض يرحمْك من هو في السماء.

رسالة من مريضي كُتبت على جلد غزال ويدّعي أنه لا يعرف تحديداً متى كتبها، ولمن.

لا أستطيع أن أنساق لرغباتك باستمرار. حاول أن تكبح رغباتك، فأنا لست فِراشاً فقط، بل أظنني حبيبة أيضاً، أو أنك لا تتذكر إلا جسدي!!

رسالة كُتبت على منديل ورقي يزعم مريضي أنه تلقاها من إحدى حبيباته.

الغزاة على مقربة من الوادي، فخذوا حذركم.

وُجدت هذه الكتابة على لوح عظم قدَّمها مريضي على أنها إحدى رسائله، لكنه لا يعرف متى وصلت إليه، وفي أي زمن.

أحبك!

كلمة كُتبت على شريط لمحمد عبد الوهاب سُجل على وجهَيْ الشريط أغنية «هان الود عليه»، يقول مريضي إنه تلقاه من حبيبة لا يذكر اسمها.

لا أعرف كيف تجيز لنفسك الركض خلفي. أنت رجل مصاب بلوثة، فلا أحد يقوم بما تقوم به إلا المجانين.

هل رأيتَ رجلاً يقابل امرأة في الشارع فيحاول تمهيد الطريق بينهما بالتعري... يا لقبحك!

قال الميمون أبو عبد اللّه:

المستغيث بعرش الرحمن، الباحث عن مغفرة الغفور، السادل عينيه عن المعاصي، واللاهج بذكر ربّ الكون، القاطع حاجته من كلِّ الخلق، والطالب كلَّ شيء من واهب كل الخلق.

أما بعد،

فأني أنبهك لأمر، غفلتَ وتغافلتَ عنه، مُدَّ يدك للمساكين، فلن يجديك عزٌّ بائد، ولا مالٌ فانٍ. اهرب من الدنيا بإعطاء الآخرة حقها.

أسلِمْ تسلمْ.

رسالة يعود تاريخها إلى زمن موغل في القدم، ادّعى مريضي أنها موجَّهة إليه.
يعود تاريخ الرسالة إلى بداية العهد الأموي!!

لي علم بما سوف يأتي، ونصيحتي لك ألاّ تسلّم رأسك للسيف لمجرد مبدأ زائل. عليك أن تستدير حتى تتمكن من خصمك.

والاستدارة هنا مبايعته والنكث بها حين تتغير الظروف.

يدّعي مريضي أنه كتب هذه الرسالة لأحد القادة العرب إبان مبايعة الخليفة العباسي المأمون (لغة الرسالة لا تستقيم مع التعبيرات السائدة في ذلك العصر. وقد كُتبت على جلد غزال).

حصلت معه على جملة من النقوش، والخطوط الأشبه بالخط المسماري، دفعت بها لصديقي إبراهيم مكي ليحللها ويفك ألغازها ويعطيني نتائجها.

د. حسين مشرف

ردود

الدكتور حسين،

الحقيقة أن حالة هذا الرجل تُعتبر من الحالات النادرة برغم أنها من الواضح جداً لا تُعتبر حالة ذهانية. بالطبع هذه الحالة تحتاج الى دراسة مستفيضة، ولعل التحليل النفسي للحالة يُعتبر أحسن وسيلة علاجية وذلك بالرجوع لمرحلة الطفولة ومعرفة الصراعات والأحداث المؤلمة التي حدثت في تلك المرحلة والتي كُبتت في اللاشعور. هناك بعض الافتراضات التشخيصية للحالة والتي لا بد من التأكد من هذه الافتراضات.

إن الحالة تعاني ازدواج الشخصية multiple personality disorder.

بالطبع ازدواج الشخصية مرض عصابي نادر جداً، وهذا المرض ذو طابع درامي، ولقد كُتبت بعض الكتب والقصص عن أفراد لهم أكثر من شخصية، وهناك بعض الأفلام لبعض هذه الشخصيات. الفرد المريض بهذا المرض تكون له أكثر من شخصية تتصرف كل منها بطريقة مستقلة عن الأخرى، وقد تختلف كل منها تماماً عن الأخرى، فقد تكون إحداها ماجنة والأخرى متديّنة. والفرد في انتقاله من شخصية لأخرى لا يتذكر شيئاً عن الشخصية السابقة، وفي بعض الحالات يكون الانتقال من

شخصية لأخرى يتم في أيام معدودة وأحياناً يأخذ وقتاً طويلاً، وهذا هو الغالب، لذا نفترض أن هذا الرجل مصاب بحالة تعدد وازدواج الشخصية، ولكن بالطبع نحتاج إلى أن نسمع رأي المقرَّبين منه مثل زوجته أو من يعيش معه لنعرف إن كان هذا الشخص لديه شخصية أو شخصيات أخرى لا يشعر فيها بأنه قد مات. فقد تكون الشخصية المطروحة أمامنا هي شخصية الشخص الذي مات وعاد مرة أخرى للحياة، أو قد يعاني الشخص حالةَ قريبة من تعدُّد الشخصية (ازدواج الشخصية) وهي ما تسمى «فقدان الشعور بالشخصية»، أو خبرة ما خارج الذات depersonalization. وهذا المرض من مجموعة أمراض ازدواج الشخصية أو ما يسمى تفكك وانحلال الشخصية dissociative disorders أو مرض الانفصال في الغالب وحسب تشخيص الدليل التشخيصي الـ D.S.M.M.D. Diagnostic and Statistical Manual Of Mental Disoders الذي تصدره رابطة علماء النفس الأميركية. فإن هذا المرض أو هذه الحالة تصيب في الغالب الأفراد في مرحلة المراهقة والشباب ونادراً ما تصيب الشخص فوق سن الأربعين.

وهذا المرض يؤثر في الإدراك والشعور وفيه ينفصل الشخص عن ذاته ويصبح، كملاحظ خارجي، كالحلم أو كشخص يتصرف بطريقة آلية. وفي هذه الحالة يشعر الفرد بفقدانه للشعور بالذات أو أنه قد خرج عن حدود ذاته وجسمه مثل شعور الإنسان بأنه زار كوكبا آخر، أو كما هو الحال في اعتقاد مريضك الذي يدّعي أنه قد مات. ويصاحب هذه الحالة قلق شديد مزمن واكتئاب، وهذا يبدو واضحاً من وصفك - يا دكتور حسين - للحالة التي تعالجها حيث ذكرت لي أنه في كل مرة يكرر:

«أذكر أنني مت

أذكر هذا جيداً. . .

لست واهماً البتة».

هذا اليقين أنه مات وعاد مرة أخرى للحياة، فالمريض في كل مرة يعيد فيها قصة موته حيث تعتري الفجيعة ملامحه وترتبك شفتاه وتتسع حدقتا عينيه. من أهم أسباب هذه الحالة التسمم او الإصابة في الحوادث أو وجود أحداث مؤلمة في حياته. لذلك أجد نفسي أقف على عدة أسباب قد توصلك لشيء، وبعضها - أو جميعها - لا تخفى عليك، ولكنني أجدني ملزمة بتقديم الرأي كما طلبت، وهذه الحالات هي:

- قد تكون حالة مريضك لديها عُصاب الوسواس القهري Neurosis Obsessive-Compulsive. والمقصود به تسلُّط فكرة غير منطقية على الفرد، يشعر معها بالقلق والتوتر إذا ما قاوم هذه الفكرة خاصة أن من حيل الدفاع النفسي التي تلازم الوسواس حيلة «التكوين النفسي»، حيث يهتم الفرد بموضوع يهمله لاشعورياً. ولعل الحالة التي - أمامك يا دكتور حسين - تهمل موضوع الموت وتتحاشاه، وبالتالي ردة الفعل العكسية هنا هي الاهتمام المبالَغ فيه بهذا الموضوع بطريقة وسواسية يعتريها القلق والخوف، وهذا له ارتباط بالتفسير الذي سيأتي ذكره عن عقدة الخوف من الموت.

وهناك بعض التفسيرات الأخرى لحالة مريضك منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً، أن يكون هو شخصياً قد أصيب بغيبوبة لفترة طويلة أوجدت لديه بعض الفجوات في حياته، فظن أنه مات وعاد مرة أخرى للحياة، وهذا يدعم تفسيرنا بأن الإصابات والحوادث قد تسبب مثل هذه الحالة خاصة إذا كانت قد أثّرت على المخ. وهناك بعض المصطلحات تداولتها بعض وسائل الإعلام الغربية لفترة طويلة وهي «خبرة ما قبل الموت» أو «خبرة قرب الموت» Near Death Experience، وقد تحدث عنها بعض الأشخاص بأنهم فعلاً قد مروا بها إثر تعرضهم لحالة غيبوبة لفترة طويلة أو محاولتهم الانتحار أو وقوع حوادث لهم من تلك التي يشعر فيها

الإنسان بأنه قاب قوسين أو أدنى من الموت.

بالطبع، لا نستطيع أن نقول إن خبرة الموت أو الشعور به، خبرة منفصلة عن الحياة تماماً. فعلى الأقل فإن النوم هو انفصال للشخص عن الحياة. يقول اللّه عز وجل ﴿اللّهُ يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويُرسل الأخرى إلى أجَل مسمًّى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ («سورة الزمل»، آية ٤٢)، ومن هذه الآية ندرك أن الموت والحياة حلقة واحدة لا تنفصل.

ثانياً، من ناحية أخرى، قد يعاني مريضك حالة خوف من الموت، وهذا ما يسمى قلقَ الانفصال (الانفصال عن الحياة) Life Separation Anxietv أو «عقدة الخوف من الموت»، وكلنا نعاني هذا القلق بدرجات متفاوتة، بدليل أننا نكره الموت والبعض قد يخافه. لذا، فإنه قد وجد وبطريقة لاشعورية أن أفضل طريقة للتغلب على هذا القلق هو أن يشعر ويتبنى فكرة أنه قد مات وعاد مرة أخرى للحياة، وبذلك يكون قد تخطّى هذه العقدة، والمشكلة التي قد تسبب له القلق المستمر... الموت ذلك الرعب البعبع المنتظر القاهر. إن الخوف من الموت في حياة هذا الفرد عملية مستمرة قد تكون لها أسبابها، منها بالطبع موت شخص عزيز عليه بالذات في مرحلة الطفولة. ولعل الشخص هنا بطريقة لاشعورية يريد أن يثبت انتصاره على ذلك السلطان القوي (سلطان الموت)، وذلك بأن يؤمن ويعتقد لاشعورياً بأنه قد مات فعلاً وعاد مرة أخرى، وكأن لسان حاله يقول: انظروا، لقد تمكنت من السيطرة عليه. لقد ذقته وعدت مرة أخرى، والآن لم يعد ذلك البعبع المخيف. ولكن تظل حيرتي ومخاوفي من تلك الحالة التي وصفته بها - يا دكتور -؛ تلك الحالة التي تظهر عليه في كل مرة يتحدث فيها عن الموت مما ينقلنا لتفسير آخر.

ونفترض هنا أن هذا الشخص ذاته تعرَّض بالذات في طفولته لموت شخص عزيز عليه، وتحديداً أحدَ الوالدين، والأم بالذات. لعل الألم

والفقدان وعدمَ قدرته على تفسير الأحداث من حوله وحبِّه العميق لذلك الشخص، جعلته مجتمعة، يتحد معه لاشعورياً ويشعر بانه فعلاً مات ليكون على صلة قريبة منه، خاصة إذا عاش هذا الشخص مرض ذلك الإنسان العزيز وعرف أنه سيموت بالذات في الأشخاص الذين يصابون بأمراض مزمنة كالسرطان - كفانا اللّهُ شره -. فنحن نعيش مع ذلك الشخص خبرةَ الموت التدريجي خاصة إذا كان شخصاً عزيزاً وقريباً للنفس.

نحن نعرف أن كل يوم يمر علينا وعلى ذلك الشخص هو خطوة نحو الموت، وقد نعتقد لاشعورياً أننا في الحالات التي تطول فيها معاناة ذلك الفرد.

بالنسبة للخطة العلاجية التي أنصحك باتّباعها - ولكل شيخ طريقة - مع التأكيد أن هذه الخطة تُتّبع لمعالجة مثل هذه الحالة مهما اختلفت الأسباب السابقة الذكر:

١- لعل أفضل طريقة هي، كما سبق الذكر، طريقة التحليل النفسي القائمة على الاهتمام بدراسة خبرات مرحلة الطفولة والمواد والخبرات المكبوتة في اللاشعور والتي قد تظهر في صُوَر رموز مع التركيز على الأحلام وتحليلها.

٢- التخفيف من حدة القلق التي يعانيها المريض وقد نستخدم العلاج الديني.

٣- بالطبع لكل ذلك، نحتاج إلى معرفة شاملة لحياة المريض، وقد نحتاج إلى لقاء بعض أفراد أسرته.

الدكتورة حنان عطا الله

أستاذة مساعدة في «جامعة الملك سعود»، كلية التربية

دكتوراه في الإرشاد النفسي من «جامعة سان فرانسيسكو»

١٣ حزيران/ يونيو ٢٠٠١

الدكتور حسين،

تمثل خلفياتنا الثقافية والاجتماعية وتجاربنا الشخصية والسياقات الاجتماعية ما يمكن أن نسميه واقعَنا الاجتماعي الذي نعيش فيه ونعيش نتائج تصوراتنا له. ونظراً لأن هذا الواقع قد يأخذ أكثر من خلفية ويكون محصلة أكثر من تجربة وسياق، فإن الفرد قد يعيش أكثر من واقع، لكن من المؤكد أنه في حالة تداخل الخلفيات والتجارب والسياقات، فإن قيام أكثر من واقع بين الناس أمر محتمل جداً.

والسؤال الذي يطرح نفسه بحدة: هل بإمكان من يعيشون واقعاً مختلفاً عن واقع غيرهم أن يتواصلوا مع بعضهم البعض نظراً لأن الواقع الذي نعيش - كما يقول بعض علماء الاجتماع - هو نتاج تاريخنا الذي تشكله سِيَرُنا الذاتية في تعامله مع المحيط الاجتماعي والثقافي. فإن عملية الاتصال والتواصل لا يمكن أن تتم سوى عن طريق بذل جهد كبير من أجل رؤية وتصور ذلك الواقع انطلاقاً من الموقع والرؤية نفسيهما.

لنضرب مثلاً يقرّب الأمر: لو أن شخصاً في نيويورك من الطبقة الوسطى يعاني بعض الوساوس النفسية والاضطرابات ويؤمن بعملية مهمة التحليل النفسي، فإنه سيجد علاجه سريعاً ومقبولاً من خلال عدة جلسات، سيتصور فيها إمكانية تجسد «العقد» كعقدة أوديب أو خلافه في حياته، ومن ثم الإيمان بأنها السبب المباشر لسلوكه المَرضي. وربما كان إحساسه بهذه العُقَد النفسية يصل لدرجة اليقين واقتناعه بها كاقتناع من «يلمس» أو «يقبض» شيئاً محسوساً. لكن لو اقتُرح على مثل هذا المريض علاجٌ سحري إفريقي لساحر من جزر الكاريبي - وليكن معروفاً في نيويورك - لَسخر من الأرواح التي يرى أنها أحبته وينبغي أن يتخلص منها.

بل إن سخريته ستصل إلى مداها متحدياً تلك الأرواح وما يمكن أن تُلحقه من أذى أو أضرار به. فعالمه وخلفيته من حيث التنشئة والثقافة

يجعلانه يؤمن بالتحاليل النفسية لعلميتها ونجاعتها. وعلى العكس تماماً، فشخص يمتلك تنشئة مغايرة. . . تنشئة أسطورية تجعله لا يؤمن بالتحليل النفسي، لا يرى جدوى أو أهمية علاجية يمكن أن تنجم عن مثل هذا العلاج.

عزيزي الدكتور حسين مشرف،

يظهر أن العكس صحيح. لو أن شخصاً من المؤمنين بالأرواح والسحر فإنه في الغالب سوف «يحس» و«يؤمن» بتأثير هذه الآراء على حياته وتصرفاته، وهي من غير شك ستصبح «محسوسة» ملموسة في حياته، وبالتالي تؤثر فعلاً فيه، وهو لن يستمع ولن يأخذ مأخذ الجِد ما يمكن أن يقول به الطبيب النفسي الذي يستخدم تصورات ومفاهيم تمثل تصورات لواقع لا يراه.

إن مريضك يا سيدي ضحية لعبة تعدد الواقع، بشكل فظيع. فهو ابن واقع آخر، دعنا نُسمِّه العالم الأسطوري أو عالماً سحرياً يمكن للمرء فيه أن يموت ويعود للحياة، ويعيش مع أرواح الأسلاف يحدّثهم ويحدّثونه. وهو عالم يجعله يعتقد أن هناك أرواحاً ومردة يسكنون معه جسده ومن ثم يوجّهون سلوكه. وفي هذا العالم يتصرف الفرد انطلاقاً من تفاعله وتعايشه المباشرين مع هذه الكائنات، وبشكل مباشر.

أما أنت يا سعادة الدكتور، فمن الواضح أنك تنتمي لعالم واقع الطب الحديث، ولقد سعيتَ لرؤية واقع مريضك من خلال رؤية واقعك. وهما - كما ترى - عالمان مختلفان لا يلتقيان. لكن ما أخذت تنزع نحو رؤية واقع مريضك من بؤرة رؤيته وزاويتها، حتى بدت لك الأمور مختلفة. ونرى أنك لو تعمَّقت فستتمكن بعد جهد ومحاولات جادة أن ترى عالمه كما يراه، عندها ستفهم أنك لم تؤمن لماذا وكيف يرى حالته، ولماذا يؤمن بالتشخيص الذي يؤمن به.

إن جهد التواصل القائم على التمكُّن من تقمص رؤية الآخر بكل تفاصيله، أمر في غاية الصعوبة والتعقيد، ولا يمكن أن يستند إلى مدى القبول والرفض من الجماعة المرجعية التي تنتمي إليها وتشكل لها الرؤية المهنية والجماعية، بل إنه في الغالب يتطلب قدراً كبيراً من جدية القدرة على ما يمكن أن يسمى قطعيةً معرفيةً حادةً مع الرؤية النمطية للواقع، بحسب ما تعودت، وتدريب الذات بشكل صارم، سواء بتسليم واعتقاد وإيمان أم من أجل فهم وإدراك ما يراه الآخر المرغوب بدراسته. وعند النجاح الموضوعي المتجرد، عندها فقط، ستعتقد برؤية الواقع الذي يعيشه مريضك، وذلك الواقع قد يتعارض كلياً مع التصور الذي يقدمه الطب النفسي.

عند هذه النقطة تقوم إمكانية الانتقال من واقع لواقع، أو أحيانا ترجمة تفاصيل واقع إلى واقع آخر بالمسميات المختلفة المتفَق عليها في كل واقع. ولكن لأن لكل واقع حدوده وخصائصه، ربما كانت عملية الانتقال والترجمة مستحيلة أو في غاية التعقيد بحيث يصبح فيها التواصل إما مستحيلاً أو بحاجة إلى معجم جديد ليس بمعجم واقع المريض ولا واقع الطبيب في هذه الحالة.

هكذا إذاً، تدور الدورة، يا سيدي الدكتور حسين مشرف، وتتحول حالة «مريضك» من مجرد حالة تتعارض فيها آليات الطب الحديث بمفعوله القوي المجرَّب، مع آليات وعوالم الطب القديم السحري بفاعليته وتأثيراته المجرَّبة أيضاً. إن مريضك فريسة الواقع بين العالمين، فهو ـ كما تذكر ـ لا يفتأ من ذكر جملة «أذكر أنني مت... الآن أذكر هذا جيداً... لست واهماً البتة»، لكنه ينتقل إلى عالم ينفي ما يذكر.

ربما كان مريضك - يا دكتور حسين - فيلسوفاً من المجتمعات التقليدية فشل في أن يكون إنساناً حديثاً، أُجبر على تقبُّل كل الأساطير وما يدّعيه العصر الحديث، لكنَّ تناقضات العصر وقهره جعلته بشكل لاواعٍ

يرتدّ إلى مأمن حياته في مجتمعه التقليدي القديم؛ إلى ذلك الواقع الأكثر أمناً ومعقولية بالنسبة إليه.

فهو ميت في واقع، حي يُرزق في واقع آخر، لكنه بسبب مروره بذلك الواقع الجديد الخادع، فإن واقعه القديم يحاسبه ويعاقبه، بل ربما «يطهّره» لميلاد جديد. إن الحالات الوسواسية والاضطرابات النفسية التي يعانيها مريضك هي عناء أعراض الانتقال من واقع لواقع. إن معضلة مفكري عالمنا التقليدي هي عدم قبولنا كما نحن. إن الحالة النادرة التي ترغب في تعريف من حولها بعالمها، في ظل عالم تسوده نزعة غاشمة تصر على تفردها وهيمنتها ومن ثم حقها في أن تكون «الواقع» و«التصور» الأوحدين، هي التي أحالت «مريضك» «إلى» من وجد نفسه داخل ذلك النفق وأراد أن يوصل الآخرين إليه، لكنهم سخروا منه وألبسوه رداء الجنون، «أو» إذا تسامحوا معه تركوه يعيش على «الهامش» ممتنّاً لهم. هذه الأريحية هي أزمة مريضك. وهو مريض لا يشكل حالة استثنائية ـ كما تزعم ـ وإنما للأسف يمثل الحالة الممثِّلة لمعظم أبناء عالمنا لأن «مسخاً» كبيراً قد وقع، ووهماً عظيماً قد تحقق، فأصبح الواقع المعيش غير الواقع «المتصوَّر»!

قد يدهشك ما أقول، لكنك - يا سيدي الدكتور - تعيش هذا التناقض وتمثّله بدرجة عالية من المعيارية. أنت لم تعد الحقيقة تهمك، وإنما ما يهمك ماذا سيحدث عند انهيار النظريات والمفاهيم التي تعلّمتها؟ وهل ستكون ضحية سخرية الأكاديميات والمعاهد العلمية «المفروضة» عليك بوصفها «الواقع» = الحقيقة. أما حالة مريضك وتشخيصها، وهما حالة عصية تخرج على كل ما تقدّمه النظريات وتقول به الأكاديميات، فذاك أمر آخر لا يستحق عفا المسألة من طرقة والاعتراف بالعجز أمامه.

أليس هذا «واقعنا» اليوم خارج علم «الرجل الأبيض» الذي أصبح واقعه هو الواقع المفروض. قد تقول: لكن الأمر أسهل مما ذهبت إليه.

قد يكون الأمر كذلك، لكن مريضك - كما تقول - يشكل حالة تستحق التحليل والتبصُّر والعلاج. لكن على ما يظهر نظراً لتجسداته المعقّدة والدفينة في عوالم واقع العديد من المجتمعات والثقافات الإنسانية، إنما يشكل الحياة الكابوسية التي على ما يظهر أنك تعانيها أكثر مما يعانيها مريضك. إنها كذلك لأنها لا يمكن أن تكون «الواقع» الأوحد أو على الأقل «الواقع الأمثل».

أرجو لك ولمريضك وافر الصحة، ودمتم.

عالم الاجتماع

د. أبو بكر أحمد باقادر

٤ تموز/يوليو ٢٠٠١

الدكتور حسين،

أراك تجدّف في مياه ضحلة، وأنصحك بالإقلاع، فأنت تضفي على حوادث عادية تماماً أبعاداً وافتراضات مجنونة ستقودك لوساوس أنت في غنى عنها، كما أننا في غنى عن دعوة جديدة لتخريب عقول الشباب والشابات.

يكفي ما نحن فيه من بلاء.

الشيخ محمود عبد الله

رجل دعوة

٢٠-٢-١٤٢١هـ.

الدكتور حسين،

عـنـد الـنـقـا ويـلاه   ضـيـعـت أنـا عـمـري

يـا أهـل الـحـرم لـلـه   ردوا عـلـي روحـي

يا أهل الشيم والكار | جيت احتكم ليكم
ليش الهوى الغدار | ساكن اراضيكم
ولا نصفتوني ولا رحمتوني | يا أهل الحرم لله
ياهل النقا مسكين | في حيّكم قلبي
روحوا لنور العين | واحكوا عليه غلبي
يا عزوتي في الود | قولولوا يكفي الصد

ياهل الحرم لله

لو كان حبيبي يفوت | مرة على أعياني
من بعد أنا ما أموت | أحيا وأعود ثاني

* * *

وأحلف برب البيت | ما أحب ولا حبيت
غيره ولا أنساه | غيره ولا أنساه
عند النقا ويلاه | ضعيت أنا روحي
يا أهل الحرم لله | ردوا علي روحي

(غناء طلال مداح)

تعرف افتتاني بالمطرب طلال مداح رحمه الله. لقد كنت أتابع حفل أبها من مسرح المفتاحة عبر التلفزيون ورأيته عندما سقط، رأيته يسلم الروح بهدوء وهو يشدو «الله يرد خطاك لدروب خلانك». . . هذه الأغنية التي تعيد سنوات طويلة من اللوعة والحب والشباب الناظر. . . أتذكرها يا دكتور حسين، حينما كنا خفيفي الأرواح ننطلق في أحياء جدة بلوعة الشباب وحبوره. أتذكر حارة المظلوم، وحارة الشام، والكندرة عاصمة جدة. أتذكر هنداً؛ تلك التي تركتك تسفح دموعك حينما اقترنت بابن عمها، وتركتك تكابد لوعتك وحرمتك لذة أن تعرف معنى الحياة الأُسرية: زوجة وأولاد. أتذكر ترديدك الدائم: «الله يرد خطاك لدروب

خلانك». . . هذه هي الحياة - يا حسين - وليس مريضك الذي يعيش خارج عقله. . . أظن أنك وجدت فيه مادة تبحر بها نحو المستحيل لكي تنسى هجران الحبيب وصرف الأيام في انتظاره.

وصلتني حيرة مريضك أو حيرتك، فالأمر سيان، وكنت أستمع لأشرطة قديمة لهذا الفنان العظيم، ومن تلك الأغاني الأغنية التي روَّست بها ردي، وقد وضعت لك خطاً تحت معضلة الإنسان ويقين البعض أنه سيعود، ولن أجد أبلغ من هذا الرد. ربما يزيدك حيرة على حيرتك، ولكن لا يمكن الاستهانة بعقلية الفنان البتة. إن نظرته التجريدية للكون هي كسر للحجب التي نتدثَّر بها، ونرى الكون من خلال تلك الخجب.

آه يا حسين. . . لقد مضى بنا العمر طويلاً: «الله يرد خطاك لدروب خلانك».

ملاحظة:

ربما تتساءل بينك وبين نفسك:

ما الذي يجعل إبراهيم مغلَقاً في رده؟ وربما تقفز ببالك تلك الكلمات العرجاء التي كنتُ أهذي بها في المجالس عن أن الأرض منفى لكائنات أخرى.

أيها العزيز،

إذا غاب يقين من حولك ففي مقدرتك أن تصبح كبحّار يجدّف في رمال متحركة.

لقد ارتضيتُ أن أكون مشاركاً لهؤلاء الساخرين. أن تضحك مع المجموعة على شخص ما خير من أن تكون الشخص المستهدَف بذلك الضحك.

عذراً يا حسين، لقد غدوت مثقلاً بالأطفال، وهم يريدون حياة تليق بهذا الزمن. والوساوس التي في مخيِّلتي ربما تقودني إلى ما يكرهون وأكره.

أشعر بخجل عميق وأنا أكتب لك هذا.

صديقك إبراهيم مكي
دكتوراه في علم التاريخ وباحث في الحضارات القديمة
١ نيسان/ ابريل ٢٠٠٠

الدكتور حسين،

ما كتبتَه لي يصيب الإنسان بالحيرة، ولا أريد استباق بحثك. وكما تعلم، فإن العلم أداة لثقب صخور الأيام لترينا العجب العجاب لمقدرة الرحمن في الكون، فإنني لن أتسرع باتهامك بما لا يليق لعالِم أن يلقيه في طرقات الباحثين عن المعجزات الكونية... لذلك سأنتظر آخر المعلومات التي تصل إليها، وقبل ذلك أريد تذكيرك بحديث نبوي مفاده:

«الناس نيام متى ما ماتوا تنبّهوا».

وأتصور أن في هذا الحديث قلباً لمفهومنا للحياة، فنحن نيام، ومع الموت يبدأ الاستيقاظ والانتباه. وهاتان المفردتان هما من مفردات الحياة وليستا من مفردات الموت.

ولربما يكون هذا الحديث باباً آخر تلج منه لما تود الوصول إليه.

كما أن هناك آية نصها ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

وفّقك اللّه لما يحب ويرضى.

الشيخ محمد بركات
١١-٧-١٤٢١هـ.

الدكتور حسين،

لا أملك علماً عما سألتني فيه، ولكنني أزودك بهذه الآيات علها

تكون لك معيناً في حيرتك.

﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنَّى يحيي هذه اللَّه بعد موتها فأماته اللَّه مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلنك آية للناس وانظر إلى العظام كيف نُنشِزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن اللَّه على كل شيء قدير﴾ («سورة البقرة»، آية ٢٥٩).

عبد اللَّه يوسف
إمام وخطيب «جامع النور»
٤-٨-١٤٢٠هـ.

الدكتور حسين،

يقول اللَّه عز وجل في كتابه الكريم:

﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ («سورة غافر»، آية ١٠).

قدم الشراح والدارسون تفسيرات لا حصر لها حول هذه الآية، وينتابني تفسير كنت أخشى البوح به، وربما يتطابق مع ظنونك: اقرأ القرآن كثيراً فسيكشف لك الحجب كلَّها.

وأريد أن أذكّرك بأن القرآن يروي لنا قصصاً لموتى عادوا للحياة. أتذكر: أهل الكهف، الرجل الذي ضربه سيدنا موسى بلحم البقرة فاقعة الصفرة، إحياء الموتى على يد سيدنا عيسى. هم كُثُر من عادوا إلى الحياة بعد الموت في قصص القرآن الكريم، وإذا أثبت اللَّه هذه الحالات فلا شك في أن لنا عودة للحياة في صور لا يعلمها إلا هو، وإن كان يراودني يقين بأن هناك عودة لحياتنا الأساسية كما حدث مع كل أولئك الذين ذكرهم اللَّه في القرآن الكريم.

هذا ما أستطيع مساعدتك به، وفقك الله، ووقاك شر المرجفين.

صالح بن عبد اللَّه المحمد

مجتهد في الفقه والسُّنة

٣-٥-١٤١٩هـ.

الدكتور حسين،

تأمَّلْ هذه الآيات من «سورة الكهف»، فستجد فيها بغيتك لو عكفت على دراستها بصورة عميقة. يقول اللَّه عز وجل:

﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه، ذلك من آيات اللَّه من يهد اللَّه فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾.

تزاور الناس: زار بعضهم بعضاً وعنه مال وانحرف. وفي التنزيل ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم﴾.

زاور عنه: مال وانحرف. وقرئ: «تزاور عن كهفهم» وأصله تزاور.

القاموس المحيط

تقرضهم؛ قال أبو عبيد: القرض في أشياء: فمنها القطع، ومنها قرض الفأر لأنه قطْع، وكذلك السير في البلاد إذا قطعتها، ومنه قوله: إلى ظعن تقرض أجواز مشرف.

ومنه قوله تعالى ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال...﴾.

ثم قال ابن منظور: وقرض في سيره تقرض قرضاً: عدل يمنة ويسرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال...﴾. قال أبو عبيدة: أي تخلفهم شمالاً وتجاوزهم وتقطعهم وتتركهم عن شمالها.

ويقول الرجل لصاحبه: هل مررت بمكان كذا وكذا؟ فيقول المسؤول: قرضته ذات اليمين ليلاً.

وقرض المكان يقرضه قرضاً: عدل عنه وتنكّبه.

قال ذو الرمة:

إلى ظعن تقرض أجواز مشرف   شمالاً وعن يمانهن الفوارس.

قال الفراء: العرب تقول قرضته ذات اليمين وقرضته ذات الشمال وقبلاً ودُبراً، أي كنت بحذائه من كل ناحية، وقرضت مثل حذوت سواء.

لسان العرب، ج ٧، ص: ٢١٨-٢١٩ تحت «مادة قرض»، طبعة «دار صادر» بيروت، الطبعة الثالثة.

خالد بن بكر الحاج
٢-٥-١٤٢٠هـ.

الدكتور حسين،

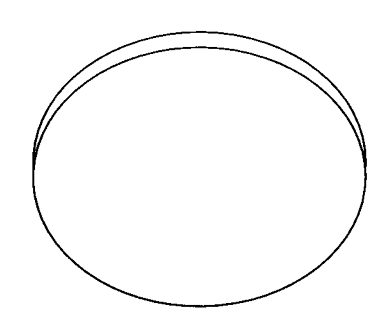
لم يقف أحد منا على الرسالة الموجهة من أهل الكهف. لو استطعت الوقوف على معرفة حركة الشمس لربما وقفت على بعض السر، فحركة الشمس هي حركة تتبع نظامنا الشمسي، فزمنها مقترن بزمننا.

وأنصحك بالبحث عن موقع أهل الكهف وإجراء تجربة تحاول فيها إثبات انحراف أشعة الشمس عن الكهف، لربما استطعت الوصول الى فكرة أكثر عمقاً مما تبحث عنه، كأن تثبت أن النظام الشمسي في تلك الفترة انحرف عن مساره، وتغيرت طبيعة الدوران الشمسي، ساعتها يمكنك إثبات أن هناك كائنات أخرى خارج نظامنا الشمسي يمكن لها أن تعيش لأمد من الزمن، وحين تعود دورة الشمس لموقعها الطبيعي تُدخلها في الحياة مرة أخرى.

مع معرفة حركة الشمس عليك أن تضع افتراضاً: لو أننا وضعنا شخصاً في مكان لا تصل إليه الشمس، فهل يمكن أن يعبره الزمن من غير أن يصله تغير.

تخيَّلْ دورة النظام الشمسي وفق نظام دائري بينما أهل الكهف خارج هذا النظام فربما تصل إلى فكرتك بشكل أيسر.

شبيه بهذا الشكل:



مع افتراض أن الدائرة الداخلية هي دورة الزمن الحقيقي بينما الدائرة الخارجية هي دورة الزمن بالنسبة لأهل الكهف، وبالتالي خروجهم من دائرية الزمن المعيش إلى دائرية زمن أوسع، تتحول فيه مئات السنوات إلى يوم أو بضعة يوم.

أو بافتراضية أخرى أن دوران الشمس (على نفس الشكل) تزور (تميل وتنحرف) عن أهل الكهف، وبالتالي لا يدخلون في الزمن نفسه.

عبد اللّه اليوسف
صديق شخصي مهتم بدراسة حركة الكواكب
وكان بحاراً قديماً جاب مواقع مختلفة من الكرة الارضية.
٦-١١-١٤٢١هـ.

دكتور حسين،

هل تجد في هذه الآية ما يفيدك. يقول اللّه عز وجلّ:

﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾ («سورة المعارج»، آية ٤٠).

أجزم أن بها السرَّ العظيم الذي تبحث عنه.

بكري عبد الرحمن
١-٢-١٤٢١هـ.

دكتور حسين،

أنا ما لي وما للأبحاث. أنا رجل أشتغل في الطب الشعبي، وصاحبك اللي تقول عليه مش راضي يسمع كلامي، ومش راضي

يستخدم الأعشاب، كيف أعالجه بالله؟

تسجيل خفي لأحد الأطباء الشعبيين عندما عرضتُ عليه حالة مريضي.

اسمع يا دكتور،
صحيح أنا أُخرج الجن، لكني لا أعرف في السحر.
والسحر كفر، وأنا راجل أخاف الله.
لو أحضرته فسوف أخرج منه أعتى جني حتى ولو كانوا مئة جني.

تسجيل خفي لأحد الذين يدّعون إخراج الجن قمت بزيارة له.

صاحبك يا دكتور داخَلَه مارد كبير، من مردة البحار السبعة الذين لا يموتون، وسكن جسم صاحبك ولعب بعقله حتى خلّاه يمشي ويقول إنه ما مات.

تسجيل خفي لأحد الممتهنين بمهنة إخراج الجن من أجساد مرضاهم.

يا أخ حسين،
معرفتي بالسحر عمرها طويل، وأنا واثق مما أقوله لك، فقد استحضرت كثيراً من المردة لمعالجة صاحبك، وكل واحد منهم يقول إنه لا يعرفه.

خذ هذه القراءات واحرقها في مكان طاهر وبخّره بها، وهذا الزيت مرّخه به، وسيعود في حالة جيدة.

تسجيل خفي لأحد المدعين أنه ساحر من إحدى الدول الإفريقية المشهورة بالتعامل مع المسحورين.

صاحبك يا حسين، معمول له عمل من عهد سيدنا سليمان، والمارد الذي يسكن روحه عصى النبي سليمان وهرب في جسد رجل كان مسافراً في البحر، وعندما بعث سيدنا سليمان الريح لتبحث عنه، كان الرجل الذي يحمله نائماً، فالتبس على الريح ذلك، واستطاع ذلك المارد الهرب، وهو من ذلك اليوم يخرج من جسد ليحل بجسد، فكلما ماتت روح دخل في روح!

خلاصة حديث مسجَّل لأحد المدَّعين علمهم بالسحر، لم يردّ على سؤالي بأن مريضي يقول إنه مات، فكيف لا يزال يسكن جسده.

اسمع يا حسين،

صاحبك هذا هرّبه جني من الماضي، وهو يسير به الآن في حياتنا، وحين يتركه يتذكر أنه مات، ولن يستطيع العودة إلى قبره إلا حين يموت ذلك الجني الذي خطفه.

ونصيحتي أن تتركه يعيش وفق ما اتفق.

خلاصة حديث لساحر تمت زيارته وتسجيل رأيه.

الدكتور حسين،

هذا كفر بيِّن، وبحث في ما لا طائل من ورائه. إن مثل هذه الأفكار تقود الدهماء للشك وتخلق في داخلهم مفاسد لا يمكن التنبؤ بآثارها المضلِّلة والى أي غواية توصلهم. الزم حدودك، وإن شاغلتك الأفكار فاستعذ بالله، وانصرف إلى عمل ذي جدوى للعالمين.

وما رأيتك إلا منحرفاً أو ضالاً، فحذارِ مواصلة هذه الزندقة.

الشيخ عبد اللّه الغامدي

الأخ حسين،

كان باستطاعتي أن أرفع سماعة الهاتف وأهاتفك، ولكنني فضّلت أن أرسل لك هذه الرسالة لأستعيد جزءاً من أيامنا الخوالي والتي كانت الرسالة فيها فرحة تدغدغ مشاعرنا الصافية. هذا أولاً.

ثانياً: لم أظنّ أنك مهتم بمثل هذه الأمور. أذكر أن لك رغباتٍ سحيقةً - حينما كنا طلاباً بالمرحلة التوجيهية - في الوقوف على أطلال الماضي، ولكنني أعلم أن هذه الرغبات اندثرت مع كثير من الأمور التي اندثرت في حياتنا. وعلى سيرة اندثار حياتنا، سوف أزفّ لك خبراً ربما يطير له فؤادك:

أنت تعلم أن هنداً لم تُرزق بالأبناء، وإنما كان نصيبها ثلاث فتيات، تعلم أو لا تعلم أن ابنتها الكبرى أنجبت مولوداً، وقد أصرت هند على تسميته «حسين»!!

هل يسعدك هذا الخبر... أجزم أنه سيخلق في داخلك فرح الدنيا.

«يا طير ماذا الصياح ذكرتني بالحبايب».

أنا ذلك الطائر أصيح بك في كل حين لأذكّرك: إن هنداً لم تكن لتتركك لولا تلك الظروف التي عبرتكما.

نعود لحكاية الأوراق والرقاع، والمخطوطات والعظام المتكلِّسة التي طلبت مني معرفة عهدها ومضامينها. يا أخي، من أين جئت بها، فهي أشبه بحجر رشيد تحتاج لدراسات مستفيضة. ولا أخفيك فهي تمثل كنزاً عظيماً، سوف أتفرغ لها، فلدي سنة تفرغ سأقضيها في أميركا بولاية فيرجينيا، وهناك سأجد الوقت الكافي للتباحث مع أستاذي الخبير بآثار الشرق الأوسط، لكن الأمر يحتاج لسنتين إن لم تزيدا، فسوف أترك له كل ما حمّلتني به وسأكون على تواصل لمعرفة أخبارها، هذا إذا لم نستطع معرفتها خلال سنة التفرغ. فصبراً، ويقول مجتمعنا «العجلة من الشيطان».

كل ما أخشاه أن يتم اكتشافها أثناء عبوري للمطارات، ساعتها سأُتَّهم بتهريب الآثار، عندها ستجد نفسك تجاورني الزنزانة نفسها وسنستعيد كثيراً من ذكريات مراحل الدراسة حين كنا نُعاقَب معاً من قبل مدرِّسينا.

لا تنسَ أن تفرح، فهند سمت حفيدها باسمك.

تحياتي وإلى لقاء قريب

أخوك إبراهيم مكي

هل أحتاج إلى أن أذكر لقبي الأكاديمي هنا أيضا!! لا أظن!!

١٢ آب/اغسطس ٢٠٠١

الرسالة مُرسلة عبر الفاكس

الدكتور حسين،

نحن أشبه بمسافرَين نعرف إلى أين نتجه ولكننا لا نعرف ما سوف يصادفنا في طريقنا، وفي مسيرتنا نتّبع دليلاً شحيحاً علينا بما يعرف، وتصبح كل مقولاتنا توقُّعات لما سوف يحدث.

ومريضك الذي حدثتني عنه يدَّعي أنه يعرف جزءاً من تفاصيل الرحلة فلا تكذِّبه، سرْ معه فربما يحمل جزءاً من الخارطة التي أرهَقْنا أنفسنا في التعرف إلى تفاصيلها.

أنا أؤمن بأن كلاً منا يحمل سراً عن هذه الرحلة لكنه يخشى البوح به.

ومن الأشياء التي أؤمن بها وأخشى البوح بها: أن ليس هناك ميت في هذا الوجود، كل شيء يعيش حياته حتى الجماد؛ يعيش حياة لا نفقهها. ألم تقرأ قول اللّه تعالى:

﴿وترى الجبالَ وتحسبُها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾.

هل فكرت في هذا المرور. إنها تمر بنا كمر السحاب!!

هناك حكاية لا نعرفها بصورة جيدة أو لم نفكر فيها ملياً لنقف على هذا الوجود المخاتل، وحين أرادت الأسطورة أن تحل معضلة الوجود تم تكبيلها وتحويلها إلى حكاية خرافية لا يرتهن لها العقل ففقدت جزءاً كبيراً من حقيقتها، بينما هي - الأسطورة - الحقيقة الوحيدة القادرة على خرق القواعد التي تم إرساؤها لإيهامنا بالصرح الذي أقامه العلم - ما تعلمه الإنسان من قواعد تثبت استقراره النفسي - بينما الحقيقة تمتلكها المخيِّلة السارحة في هذا الكون.

كما لا يفوتني أن أؤكد لك أن الأسطورة هي الحقيقة التي تم تهريبها من علوم قديمة أكثر رقياً مما نحن فيه، الكارثة أنها وصلت إلينا محمَّلة بشوائب لا يمكننا تصفيتها تماماً لنقف على السر الذي بلغه أصحابها وقشعوا الحجب التي قادتهم للزوال. أنا أؤمن أن الزوال لا يحدث، والحياة تتشكل بصور عديدة لكنني لا أعرف إلا هذه الحياة.

أنتظر نتيجة بحثك متمنياً أن تقف بنا على عتبة جديدة لمعرفة جزء من تلك الأسرار الكثيفة التي نتغطى بها من غير أن نزيحها من على عقولنا.

تقبَّلْ تحياتي وأشواقي.

جمال العسكري
باحث في الأسطورة

الدكتور حسين مشرف،

أنا أشك في الحكاية برمتها، ولعل هذا الشك ناتج من أن ألفاظ الرواية متَّسقة تسير بنَفَس واحد- على مستوى الأفكار والألفاظ -، وكل أبطالك فلاسفة ومفكرون وعلماء اجتماع ومنظرون، وهذا على ما أعتقد، غير ممكن. من هنا، تغلغل الشك إلى خاطري في أن الحكاية ما هي إلا

صياغة لأفكارك. فثمة شيء آخر يعزز ظني في صدق مقولاتك، وهو أنك قمت بصياغة كل الحكاية بأسلوبك الخاص أو عهدت بها لأديب ليقوم بكتابتها بعد أن زودته بكل التفاصيل، إلا أن هذه الصياغة أضعفت فكرتك من حيث لا تعلم، ولكي تصل إلى الحقائق العلمية كان الأجدر بك الابتعاد عن لغة الأدب العالية، فلغة الأدب كما قلت - أو قال أحد شخوص هذه الرواية - لغة مجاز، تنحرف كثيراً عن الواقع.

ويمكنك الالتفات إلى النقاط التالية - إن أحببت -:

١- الرجل العائد من الموت ذاكرته تفيض بيوميات الماضي: القرية، عاداتها، أخبارها، أحداثها.

هل يعني هذا أن الموت وجه من وجوه الابتعاد عن هذا الماضي ـ المكان؟

٢- جميع الشخصيات تمتلك لغة غنية وتشبيهات متميزة. ألا يُعَدُّ ذلك هفوة في الرواية. بمعنى، هل يُعقَل أن يتكلم الجميع بالمستوى نفسه؟

٣- هناك أحداث تكررها، ولم تتنبه لإشارتي السابقة عن هذا التكرار، هل تتعمد إعادة سرد بعض المقاطع؟

٤- البدء بالليلة الخامسة ثم الرابعة... علما بأن الأحداث في خط تصاعدي ولا تعود للوراء. ماذا تقصد بهذا؟

٥- هناك مقاطع لا داعي لها، وكان الأفضل أن تقوم بحذفها.

٦- لم أجد رابطاً مقنعاً بين علاقة بطلك الخرافي وذكرياته، إن كانت في القرية أم في الوقت الراهن أم في المستقبل؟

وحقيقة، أشعر بأنني تورَّطت في فهم الرواية!!

٧- الجلسات التي سجلتها مع مريضك مملة... فهل بالفعل استطعت أن تستمر في هذه الجلسات لأكثر من عشر سنوات.

٨- ما علاقة مسودة التقرير بلغة طبيب نفساني؟

ألا تلاحظ معي أنه كلام خارج العلم وقريب من التفلسف.

عذراً على صراحتي، ولكن هذا الرأي جاء كنصيحة بعد أن أوكلت إليَّ مهمة تنقيحها وتصحيحها.

أخيراً، يقول صديقنا المشترك هاشم الجحدلي:

إنك تكتب كمن سيموت بعد قليل.

وأنا أرى أنك تقترب من الموت بسرعة مذهلة!!

كامل فرحان صالح

شاعر وروائي

١٥-٢-٢٠٠٢

﴿ألم ترَ إلى ربّك كيف مد الظل ولو شاء
لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾

«سورة الفرقان»، آية ٤٥


مفكرة

كثير من الوساوس والهواجس انتابني وأنا أتتبع حالة مريضي،
فلا بأس من عرض مفكرتي الخاصة عليكم، فأنا دخلت معه في
وجعه. وإذا لم نجد من يسعفنا: فستجدونني أقتعد مقعداً في مصحة
الحالات النفسية(*).

د. حسين مشرف

ليس من الممكن أن يسير المرء أبعد من ذاكرته، فالمرء حبيس تلك البئر التي تسمّى الماضي.

ولكي تصل للمستقبل عليك أن تعرف كيف تفتق السر الأول داخل تلك البئر.

* * *

أؤمن بأن أرقى الأشكال هي الدائرة، وكل الموجودات تسير في هذا الفلك دورة المطر... دورة الغذاء... الدورة الدموية... تعاقب الفصول... دورة الأرض ودوران الفلك.

دوائر تضيق وتتسع والحياة دائرة تكتمل لنا ظاهرياً بالموت، لكنها تكمل دورانها بعد اكتمال حلقتها.

(*) هذه المفكرة أُرسلت لبعض الأصدقاء.

فهل نعود نحن بذاكرة من مات ونستأنف حياة قديمة نجددها بوجود مستحدَث حتى إذا عبرتنا حادثة في حاضرنا وقد وقعت في ماضينا الأول، نهتف:

- لقد مرَّ عليَّ هذا الحدث في زمن لا أذكره.

أم أننا نعود بذاكرة ممسوحة تماماً ونعاود كتابة وجودنا بصورة مغايرة للماضي الذي عشناه منذ آلاف السنين أو منذ سنوات قليلة؟

هناك من يفسر استلهامنا لحادث عَبَرَنا وجزمنا أننا عشناه في وقت من الأوقات، يفسِّر ذلك بخلل في الإرسال. فالذي يحدث أن الحادثة حين يتم نقلها للمخ يتأخر في إرسال وقعها في أنفسنا - لأجزاء ضئيلة من الزمن - وبذلك نتوهم أنها عبرتنا في زمن من الأزمان أو أننا عشناها بكل تفاصيلها.

هذا التبرير ربما أوجده العلماء لحالة أرهقتهم واطمأنوا لهذا التفسير وأُدخل ضمن الصرامة العلمية كي لا يفتح أحد الباب على طمأنينة النفس ويزعجها بما هو مقلق. فالبحث عن الحياة في مكان آخر سيقلب كل الأدوات العلمية التي تم رصها على المنضدة ومكنت العلماء من إقامة واقع وهمي... هكذا أظن.

***

نحن نقدم على النوم متلذذين، والنوم كما يقول اللّه عز وجل هو موت ﴿اللّه يتوفى الأنفس في منامها﴾... وداخل هذا الموت (النوم) نحن نعيش من خلال حياة مختلفة نستشعرها من خلال الأحلام: هذا الاستشعار هو الدليل الوحيد الذي خرجنا به من كارثة اسمها الموت.

إذاً، هناك وجود بعد الموت الذي نعرفه، وجود متواصل لا فناء فيه... وتصبح الصورة مقلوبة لفهمنا للحياة؛ فهمنا الذي ينص على أن الحياة تسير لنهاية ثم تتوقف بالموت. فهمي لا يقف هنا بل أرى أن الحياة دائرية، أي أن الحياة تتقطع بعدة ميتات وتعاود استمراريتها كما

يحدث عند النوم. نذهب للاسترخاء والراحة ثم نعاود مسيرة حياتنا، والحياة كذلك تنقطع للاسترخاء ثم تواصل مسيرتها. وزمن استرخاء هذه الحياة ربما يكون ملايين من السنين لكنها تعود لمواصلة مسيرتها.

***

يتحدث علماء الفيزياء أننا أجسام تُرى بسبب انعكاس الضوء على أجسادنا، وأننا نحاط بهالة حرارية من أثر ذلك الضوء المنعكس على أجسادنا.

هذه الحقيقة الفيزيائية تؤكد أننا أشبه بالأجرام السماوية التي تقوم بعكس أشعة الضوء لتحوله إلى توهج حراري أو ضوئي، وبالتالي نحن عواكس تتشكل ملامحنا وأحجامنا وفق تلك الانعكاسات.

إذاً، في غياب الضوء لن نظهر، أو أننا لو سرنا بسرعة الضوء فلن نظهر، ولو سرنا بهذه السرعة فلن يكون لنا ظل البتة.

فهل يمتلك مريضي خاصية سرعة الضوء؟

ليكن هذا مبحث آخر...

***

العلم ضد الحرية المتخيَّلة (ضد الخيال)، فالحرية ليس لها حدود بينما العلم لا يرتهن لما ليس له حدود. هو يسير وفق معطيات ونظريات، ويظل انطلاق العقل المطلق خاضعاً لفرضيات ما لم تتحق فإنه لن يلتفت إليها ويُدخلها ضمن شطحات العقل المتخيِّل، بينما حرية المتخيل لا ترتهن لفرضية وإنما تتحرر من كل ما هو ممكن إلى ما هو غير ممكن. ومن هنا، يكون العلم ضد الحرية، الحرية بمفهومها المطلق.

ولا يمكن إدخال حالة مريضي ضمن وصايا العلماء الذين يجهلون ما هو خلف النظرية، خلف معطيات مادية ملموسة.

***

كل شيء يمكن حدوثه. ففي عصر العلم تغدو الأمور خارج العقل ما لم يتمكن من السيطرة عليها وإثباتها. كدت أستعجل التوقيع على أوراقه بـ «الجنون» حالما وقف أمامي، وكالعادة يتم تحويل عشرات المرضى النفسانيين، وكل واحد منهم له حكاية وعقدة أدتا الى اختلال أعصابه وأسلمتاه للمزاوجة ما بين الواقع وذلك العالم المجهول الذي لا نعرفه إلا من خلال كلماتهم (المرضى) المفكَّكة وغير المنطقية وفق قواعدنا التي ارتضيناها لكي تسند عقولنا من الهاوية: شاب يتربع على الخامسة والثلاثين تزيد بضعة أشهر كان حديثه متزناً في كل شيء باستثناء ادعاء أصر عليه من غير أن يرتاب في أن يقوده ذلك القول إلى عاقبة وخيمة، جملته تلك التي طالما سمعتها منه:

«للتو عدت من الموت...

أذكر هذا جيداً...

لست واهماً البتة».

هذه المقولة كان بالإمكان أن تسرع في تثبيت تهمة الجنون وإنهاء أوراقه وتسليمه لعسكري ليقتاده مخفوراً ويُقعده بأحد عنابر مستشفى شهار... ولحسن حظه كنت معنياً بتتبع تلك الأحداث الغرائبية التي تتشابه مع هذه الحالة فوجدتها فرصة لأن أقف على حالته وتشخيصها وتدعيم ما قرأت بحالة طازجة.

حالته جعلتني في سباق محموم بين الواقع وما خلف الواقع... وهذان المصطلحان غير دقيقين، ولا تعنيني دقة المصطلح أكثر من الوصول إلى الهدف الذي سيقلب الكون لو أننا تماسسنا مع غير الواقعي... فحياتنا التي نعيشها نطلق عليها واقعاً بما تحمله من قوانين وأنظمه محدودة. وإذا حدث حادث خارج ما يمكن أن يستوعبه عقلنا المقنن سارعنا إلى نفيه وإدخاله مدخل اللامعقول. وبحثي في ما وراء

الواقع أو في اللامعقول ظللتُ لزمن طويل أحلم بإمكانية فهم نظرية آينشتاين علها تساعدني في حل أمور يصعب علي فهمها فعجزت وأقلعت عن مواصلة الفهم.

بدأ اهتمامي باللامعقول من تلك السخرية العلمية حيث سخر السفسطائيون من القوانين الرياضية الوصفية في القياس واعتبارهم أن كل شيء غير موجود بالتعريف القياسي متخذين مثالاً من قولهم إن الجدار غير موجود حسب القياس الرياضي، فالجدار كثافة والكثافة كتلة، والكتلة مجموعة سطوح، والسطوح مجموعة من الخطوط، والخط مجموعة من النقاط، والنقطة بالتعريف الرياضي هي شيء وهمي. إذاً، فهذا الجدار مؤسَّس في الأصل على وحدة وهمية، وبالتالي فالجدار غير موجود.

هذه السخرية قادتني إلى يقين ألاّ أسخر من أي شطحة، فربما يجلس تحتها الكون مجتمعاً.

فهل يقودني هذا اليقين إلى سخرية ثقيلة بطلها مريضي هذا؟

* * *

العالم كله مجاز لشيء آخر.

فهل تستطيع الوصول إلى الحقيقة عن طريق اللغة، أم تصلها من ناحية المعنى والمعقول.

اللغة تتدثَّر بالمجاز وتحجب خلف حروفها حقيقة المعنى، وتمنح كل فرد معنى غير متطابق مع الفرد الذي يعيش معه في الظرف الزماني والمكاني نفسه، حيث تُحدث دلالاتها عمقاً متفاوتاً في نفوس متلقيها، والوصول من نفق المعنى وصول قاصر لكون المعنى حكراً على عقول لا تلتزم بالثابت وتتحرك وفق افتراضيات لا تتحقق في العمر القصير لمنتهج هذا النهج.

* * *

يقول اللّه عز وجل: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

فهل يغور فينا الماء فنموت.

عليّ أن أبحث في نسبة الماء في جسد المتوفّى، وهل يؤدي الموت الى نقصان كمية الماء في أجساد الموتى.

***

الهندسة القيمية ترفض النقد رفضاً قاطعاً لأن النقد يقتل الفكرة، حتى وإن كان النقد صحيحاً فلا بدّ من أن تأتي مرحلة التقييم.

فالهندسة القيمية - بتعبير يقترب من الأذهان - هي التخلص من الشحوم من غير الوصول إلى العظام والأعصاب.

فهل كان الفكر الإنساني برمته كارهاً للهندسة القيمية خشية على نواة الفكر الإنساني الذي بنى عليها مفهوم الوجود ذلك البنيان الذي حدد طرق وأنفاق التفكير في مسالة الوجود الانساني؟

وهل باستطاعتنا الآن، إحداث انفجار في تلك النواه ليتشظى الإنسان ويبدأ مرحلة جديدة للبحث عن الوجود المرتبط بنقد وتهشيم الفكرة الأولى لهذا الوجود.

***

الدوران هو سر هذه الحياة. كل الأشياء تدور من اليسار الى اليمين. البويضة تدور في رَحِم المرأة من اليسار إلى اليمين، الأرض، الكون، الشمس، الذرّة في مدارها.

هذا الدوران أُهمل في زمن سحيق، وجرى الإنسان مع الدوران الذي يحقق له الاطمئنان النفسي والسير التصاعدي (من اليمين لليسار) بداية ونهاية. هذا التبسيط لارتقاء الزمن أوهمنا بأن الحياة تسير من اليمين إلى اليسار.

لماذا لا تسير الحياة وفق النظام الكوني، أي أنها تسير من اليسار

لليمين، أي أنها تعود للنقطة التي غادرتها؟

***

الماء حين ينساب في الأرض يغور لباطنها، يمكث هناك، وحين نقب عنه نجده في الطبقات السفلى من الأرض. لا شيء يتلاشى بتاتاً، ثمة مكان آخر تنتقل إليه الأشياء، وحين نجدها نعاود استخدامها كالماء الذي نجلبه من الآبار ونسكبه مرة أخرى فيصعد للسماء ويعود للأرض... لا شيء يغيب بتاتاً.

إذاً، أين تذهب أيامنا الماضيات، وما هي قصة بئر الماضي؟

هل نستطيع أن نعيد برح تلك الأيام وسكبها مرة أخرى وإعادة قصة الماء؟

***

التاريخ لا تصنعه الحوادث الدموية بل تصنعه الكذبة العظيمة!!

***

البحث والتعمق لإجابة عما يلي:

- الأمراض النفسية والجن.

- العلل النفسية تلف في أنسجة الدماغ.

- ﴿كل في فلك يسبحون﴾.

- القرآن فيه شفاء للناس، فالإنسان عندما يسمعه يتأثر به. وثبت علمياً أن سماع القرآن يعزز جهاز المناعة.

- الاستنساخ، فهل نعتبر أن خلق حواء من ضلع آدم هو استنساخ نفس من نفس؟

- الإدارة الهرمية: إن إدارة الأشياء تقوم على الشكل الهرمي، مسيطِر ومنفِّذين ومعارضين.

الأنا العليا والأنا السفلى. . . كيف يمكن أن أثبت أن الحياة تقوم، في انبعاثها، على الشكل الهرمي الموزَّع على كل الكائنات في إدارتها لشؤون حياتها؟

- علمياً، تقوم الحياة على المتناقضات ﴿ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾، أي وجود قوى عكس بعضها؛ قوة سالبة تقابلها قوة إيجابية: العقل والعاطفة، الغريزة و الخيال.

حيث تغدو صناعة التاريخ قائمة على هذا الصراع وليس على الصراع الطبقي، كما ذهب ماركس، أو كما فسرها ديكارت. ولأن الحياة تدخل ضمن المفردات فهي قائمة على الصراع مع الموت لكي تتجدد في زمن آخر.

أي أنها، ككتلة كاملة، عليها أن تنفذ لجهة أخرى بكل عناصرها، بمعنى أن تتمثَّل شكلَ الكواكب، وتدور في فلك يتجاور مع فلك آخر.

* * *

في حاضرنا، نحن نعيش الماضي. فإذا كان الفلكيون يؤكدون أننا نشاهد نجماً انفجر منذ ملايين السنين، وأننا نرى الماضي في مستقبلنا، فلماذا لا نكون نحن أيضاً ماضياً موازياً لهذا النجم بشكل أو بآخر.

* * *

كلما زادت السرعة قلَّ الزمن، وإذا وصلت السرعة إلى ما لا نهاية أصبح الزمن صفراً.

ففي هذه السرعة نحن لا شيء: مجرد غبار عالق في اللامنتهى.

* * *

ونحن في لحظة النشوة نذوب ونتلاشى ويصبح زمننا صفراً. . . نحن غير موجودين لحظةَ القذف كوعي بما يدور في تلك اللحظة الزمنية القصيرة.

غياب الوعي في هذه اللحظة ألا يُعَد موتاً.

وفي لحظات النوم، نحن لا نعي وجوداً صارماً كما نعيشه في اليقظة.

هذا الوجود ولا وجود هو المعنى.

فكيف لنا شرح المعنى بأدوات لا تصل إلى المعنى؟

* * *

لو عدنا إلى السرعة المتناهية، التي يصل قياس الزمن فيها للصفر، لو افترضنا ازدياد السرعة وغدا قياس الزمن بالسالب، فهل هذا يعني العودة للماضي؟

عودة الحياة كلها، أي أننا في لحظة استثنائية يمكن أن تنعكس الدورة ويبدأ الدوران من جديد، وفي هذه اللحظة الاستثنائية يمكن أن يخرج أشخاص منها فيجدون أنفسهم في زمن غير زمنهم؟!!

أرى أنه ممكن حدوث ذلك.

* * *

ألا تعجب من نفسك؟ أعيد السؤال بصيغة الجمع وأغيّر الخطاب: ألا نعجب من أنفسنا؟ تأملوا، عند أي كارثة تحدث لنا أو لمن هم حولنا ينتابنا جزء من فرح غامض وسرعان ما ندفنه خلف تلك المشاعر المعروفة في مناسبات الكوارث. في لحظة حداد، كل منا يذرف الدمع بينما يمور داخله بفرح طفولي لخاطر يحرك أشجار الفرح ويغدق على الغد أمنيات عذاب. إننا نهرب إلى المستقبل حتى ونحن نوسد الميت لحده، تجدنا نقدح الزناد ونشرع في رسم التفاصيل وطرق إنجازها وننهي كثيراً من مخططاتنا ونحن بين شدقي قبر رطب. فهل نحن كائنات مستقبلية؟ وإذا كنا كذلك، فكيف لنا أن نرفع الساق لعبور أخدود عميق ومتسع، مع علمنا بأنه سيلتهمنا في إحدى محاولاتنا للقفز إلى المستقبل؟

* * *

في أحيان، يتحدث مريضي وكأنه عالِم بكل تفاصيل هذا الكون، وأحياناً يبدي من السذاجة المتناهية حتى تظن أنه رجل بدائي لم يقف على شيء من المعرفة.

***

أتصور أنه ليس هناك كتلة. فالجسم الذي يشغل الفراغ وندون كتلته وفق مقاييس أوجدناها لكي نعطي قيمة لتلك الكتل المرئية بينما فرَّطنا في احتساب قيمة كتل غير مرئية مع أنها تحتل حيزاً من الفراغ. ولأننا لا نرى تلك الكتل فهي غائبة كقيمة. هل قام أحد باحتساب كتلة الجن أو الملائكة؟ أو حساب كتلة الإلكترونات أو الموجات. ربما تكون هناك تقديرات لتلك الكتل المتناهية الصغر (كأجزاء الذرّة)، أو متناهية الكبر (كأحجام الملائكة). وأجزم أن القيم التي مُنحت لأي كتلة لا تتطابق مع حقيقتها. فالقيمة التي تعطى لمكونات الذرَّة - على سبيل المثال - هي قيم افتراضية، لكن هناك كتل لم تدخل بتاتاً ضمن القيمة كاحتساب كتلة الجن أو الملائكة. هي أشياء أخرى تحتل موقعاً في الفراغ نغيِّبها وهي موجودة. هذا التغييب هو تغييب لما هو خارج حساباتنا، ومن مدلولاته أيضاً أن هناك موجودات نُدخلها في باب العدم وافتراض العدم لموجود يمكن عكسه بحيث يكون العدم موجوداً في جهة أخرى، ويحكم بالغياب على وجودنا في وجوده.

نحن سرعة تتباطأ فتجمد فتظهر على شكل كتلة، بينما هناك أشكال تمتلك سرعة مهوّلة فتختفي في وجودنا بينما هي موجودة في المحيط المكاني الذي نعيش فيه. الشيء الميقن منه أن سرعتها المهوّلة أو البطيئة تجعل زمنها غير زمننا.

***

الغريب أن كل الحكايات التي جمعتها كانت حول الحديث عن أبي مريضي، بينما لم يذكر أحد من الذين جلست معهم وحدثوني شيئاً عن

المريض. فقط كان مريضي يروي عن نفسه وأنه كان موجوداً هناك، والأغرب تطابُق كل الحكايات مع ما ذكره المريض!!

***

تفسير التقائنا بالموتى في الأحلام يتم من خلال تباطؤ سرعة الميت، فيعود للوجود ويحدث الاتصال. وإن كنتُ ميالاً الى أننا نحن الأحياء الذين تتسارع سرعتنا بسرعة تمكّننا من اختراق الوجود المعيش إلى عالم الموتى ونتعايش معهم في لحظات زمنية تطول أو تقصر وبهذا يكون هناك معنى، فلن ترى نفسك في النوم أنك استطعت أن تقطع مسافة شاسعة في لحظة قصيرة أو أن تنجز عملاً خارقاً في زمن قياسي. وتفسير بقاء جسدك للناظرين كون سرعتك المهولة تبقيك في عالمين بحيث يكون التردد السريع موهماً البصر بهذا الجسد النائم، بينما أنت خارج المكان، أنت هناك في مكان آخر له خصوصيته وظروفه التي تسيطر على وجودك فيه وفق مقتضياته وحين تخلّ بتلك المقتضيات كأن تتباطأ سرعتك ويتم لفظك وإعادتك لمحيطك. إنها عملية طرد وجذب.

***

ما الذي يمنع أن تكون الأرض مدافن لحضارة بعيدة تنظر علينا من علُ. الأقوياء وحدهم الذين يسيّرون الحياة وفق ما يرغبون. انظر للدول القوية الآن لا تحفل بأية أخلاقيات. تستغل احتياجات الدول الفقيرة وتحولها إلى مدافن نووية، وكوكبنا مقبرة لكائنات أخرى.

الجملة السابقة لصديقي... كيف لو كان بالفعل أننا، نحن الكائنات البشرية، نفايات أمم أخرى أكثر تطوراً ومقدرة على التعامل مع الكون.

ألم يكن هناك ملائكة وجن، وجئنا نحن ككائنات بدلاً منهم، إلا أننا أقل تطوراً في قدراتنا عنهم!!

***

إن اللَّهَ عندما خلق الكون لم يترك فهمه مقتصراً على اللغويين. ولأن الإسلام ليس كهنوتاً بل دين فتح الأبواب لكل مسلم ليقدّم دليلاً على عظمة اللَّه في كونه، فكيف لنا أن ننام عن تلك الآيات العظيمة التي ذُكرت في القرآن من غير أن تجد من يقف عليها عملياً بدلاً من تلاوتها والغوص في جذور نباتات اللغة الكثيفة.

* * *

الضوء يصل إلينا منحنياً، وعندما يرى الرائي ذلك النجم فهو ينظر إلى موقع وهمي لذلك النجم، بينما يكون النجم في موقع آخر.

فهل تشع أجسادُنا أضواءَ منحنيةً تشير إلى مواقعنا الوهمية في الحياة، بينما نحن خارجها أو في مكان آخر منها؟!

* * *

نيتشه حينما مجّد القوة، كان يبحث عمن يزيل عنه وصمة الانكسار؛ وصمة المرأة: هذا الكائن الضعيف الذي يرفضه بعبقريته. لم يستوطن قلب المرأة التي تحب القوة في وقت محدَّد عندما تسيل رغبتها، وبعد أن تنتزعها من تلك القوة تبحث عن غصن رطيب يتمايل بها.

القوة تعني فناءً أو تغييباً، والتغييب يُبعد لذة المُفني، فهو كره مبطَّن لتلك القوة الكاسحة التي لا تُبقي لك لحظة في الاستئناس بضعفك.

* * *

المكان الوحيد الذي نجد أنفسنا فيه هو التاريخ الميت. هنا تقبع الشخصيات الهامشية فنتقمصها. لا يحملك المسؤولية ولا تتحمل ثقلها التاريخي. هل سأل أحدكم نفسه لماذا يعشق أن يكون حاتم الطائي أو عنترة أو سيف بن ذي يزن؛ شخصيات كل من جاء زاد بها من دون عقوبة. تظل الشخصيات المبجَّلة في التاريخ هي شخصيات ذوات سيادة لا تستطيع أن تتقمصها وربما ساهمتَ في تضخيمها. إننا نعشق أن نبني

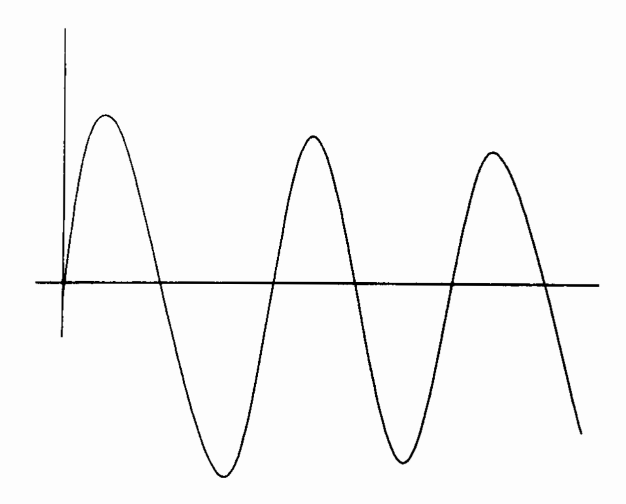
على ما شيّده الآخرون حتى وإن كان الأساس أساساً واهياً. لذلك، لم أعد أبتئس مما أنا فيه. ربما أكون شخصية كتلك الشخصيات المباح هتكها وتغيير ملامحها متى شئت.

***

أنا مؤمن بأن لا نهاية هناك، فكلما توهمنا نهاية ما كانت هي البداية لمنعطف آخر. إننا نضع النهايات حتى نشعر بأن حدثاً مضى وانتهى بينما الأحداث لا تنتهي. هي تواصل استمراريتها. هي أشبه بالموجّه، ووضْعُنا لنهايات هو محاولة للتأكيد أننا نسير بشكل تصاعدي. فالإنسان مُغرَم بالانتصارات الوهمية، والسَّيْر بصورة تصاعدية يمنحه لذة التجاوز، لذة أنه استطاع أن يحقق شيئاً ما. والوصول للرغبة أو الحلم يقتضي الشعور بالسير والوصول. كيف لو استبطنّا شعوراً بأننا نسير بشكل دائري. إن مثل هذا الشعور سيقضي علينا حتماً، سيذكّرنا بأننا جمالاً نسير مُغمَضي العيون في دائرة، وأن ممشانا ما هو إلا دوران طويل تتطابق فيه الخطوات مراراً وعلى أزمان متباعدة، أو أن هذه المعرفة ستُقعدنا عن مواصلة الحياة وتجعلنا نقدم على نبذ أحلامنا ورغباتنا، وتدفعنا للتقاعس وتكفّ طموحاتنا عن المثابرة والوصول إلى بغيتنا لأننا نعلم أن ما فات سيمر بنا مرة أخرى في زمان آخر ولن نشعر بالاطمئنان. ساعتها، سنشعر بوطأة الحياة وأننا نسير ولن نقطع طريقاً جديداً بل سنعيد الخطوة التي بدأناها قبل ملايين السنين.

مكّنَنا العلم من القول بأن الطاقة لا تفنى ولا تُستحدث، وتظل تسير إلى ما لانهاية.

ووفق قوانين كروية الأرض، فإن الموجة لا تسير في خط منبسط بل تلتف على نفسها مكوّنة في سيرها دائرةً لا تتطابق مع دائرية كل الأشياء.



لو أن هذا «الكيرف» ظل في تموُّجه الى ما لا نهاية وفق أن الطاقة لا تنتهي ولا تُستحدث، فمن هنا يمكن الاستنتاج أن السَّيْر إلى ما لا نهاية لا يمكن تحققه إلا في الشكل الدائري، وبالتالي فإن الحياة لا تنفد ولا تُستحدَث، بل تسير بشكل دائري.

* * *

هل هناك جسم ثابت وآخر متحرك؟

كل شيء يسير وفق سرعة خاصة به، وليس هناك جسم ثابت أو جماد كما تعلّمنا في مراحل التعليم أن مكونات الحياة إنسان وحيوان وجماد وشيء آخر.

فالأشياء الجامدة حكمنا عليها من زاوية ضيقة جداً، فكل الأجسام متحركة تتحرك بسرعات مختلفة، ولا يمكن قياس حركة جسم في ظل عدم وجود جسم ثابت، فكيف يغدو جسم الميت ثابتاً وهو متحرك في الوقت نفسه، هو متحرك في زمن آخر ومكان آخر.

وعندما نتكلم عن الموت أو العدم، وهو مجاز، فكيف يكون عدماً ووجوداً في مكان آخر. كيف يكون سكوناً والسكون ضد الحركة. وإذا

قبلنا بالسكون في مكان ما فهذا قبول بتوقف الزمن، والزمن لا يقف.

***

المكان الحقيقي هو مقدار متغير يدل على وضع جسم بالنسبة للآخر. ولأن الأجسام كلها متحركة فالمكان يصبح مرتبطاً بالزمن بالضرورة.

وفي تحديد وضع جسم يلزم القول إنه موجود في مكان كذا وفي الزمن كذا لأنه في حركة دائبة، ويمكن أخذ الساعة نموذجاً، فالساعة قياس للزمن وفي الوقت نفسه فإن عقاربها هي انتقالات في المكان.

فالساعة مضبوطة على النظام الشمسي، وهذا النظام ليس هو النظام الوحيد في الكون.

نحن أشبه بعقارب الساعة نتواجد داخل تلك الدائرة في أزمان مختلفة.

***

سرعة الضوء ثابتة، فكيف نقيس متحركاً بثابت؟

***

التجريد منحة إلهية لكي نطلق العنان للعقل وألا نقف عند حد معين. فعدم الوقوف يوصل إلى المطلَق، بينما التجسيد والتثبيت والتشخيص تُبقيك داخل الشك الذي يحرقك ولا يوصلك إلا إلى التآكل.

***

الزمن في حياتنا يخضع لفلسفات نظرية تواطأنا على تثبيتها كي نقف على أرضية قاسية تحمل عقولنا المتأرجحة وتثبتها في منطقة تمكّنها من السير للأمام وفق تلك الفلسفة. فهي لا تستطيع أن تتصور السير للخلف. هي تجزم بالسير للأمام، لذلك تم تقسيم الزمن الى زمنين: زمن خارجي، وزمن داخلي.

الزمن الوجودي كما تخيَّله سارتر، والزمن الخارجي كما تصوره آينشتاين واشتغل عليه.

وكل من الزمنين يتحرك للأمام. ولم تجرؤ أي ذاكرة منهجية أو علمية على السير للخلف كي لا تُتهَم بالاختلال، أو بعبارة أدق بالجنون والإلغاء. جزء من الفلاسفة يخافون أن يتم ترحيلهم من زمنهم بمثل هذه التهم!!

ولأن الذاكرة الأولى لم تكن مرتهنة للتقييم ولا تخشى مثل هذا التقييم، تجاسرت وسارت - الذاكرة البدائية - للخلف، وأمعنت في ذلك السير. فهل كانت تستعير علماً زمنياً متقدماً؟

***

إذا تخيلنا جسماً يسير بسرعة الضوء في مكان مشمس، فهل تنعكس صورته على هيئة ظل مقابل لهذا الجسم؟

بالتأكيد لن يكون لذلك الجسم ظل منعكس.

وإذا تخيلنا جسماً يسير بسرعة تفوق سرعة الضوء، فهل يمكن لهذا الجسم أن يكون متواجداً في زمنين ومكانين مختلفين.

نعم، يمكن أن يحدث ذلك.

***

عندما نقول إن سرعة جسم تساوي صفراً، فهذا لا يعني العدم، لأنه لا يصل تردد موجة أي كائن إلى الصفر إلاّ من الجانب الافتراضي فقط. ووفق هذا الافتراض، هل يجوز لنا قلب هذه السرعة بافتراض تحويلها إلى سرعة سالبة تبدأ من - ١ إلى ما لا نهاية. وبالتالي، انقلاب مفهوم الحياة وفق السرعة المتناهية في الصغر.

وهذا يجعلني أتساءل:

لماذا ينعطف الضوء حول شعرة رقيقة فلا يبدو لها ظل.

فهل مريضيَ شبيه بتلك الشعرة حيث ينعطف عليه الضوء فلا يظهر ظله؟

وثمة احتمال أن يكون مريضي يسير بسرعة الضوء، وإذا وصل إلى هذه السرعة فلن يكون له ظل.

يا اللَّه، أنا قريب جداً من حقيقة غير معروفة. أعِنّي يا الله!

* * *

نحن نؤمن بأن الحياة فكّ وتركيب وتحليل وإنشاء مواد كيماوية يأخذها الكائن الحي من بيئته ويعيد تخليقها. فلماذا لا نؤمن بأن الحياة بمجملها تعيد تخليق كائناتها في أزمان مختلفة... تعيد الصورة نفسها التي عبرتها من ملايين السنين؟

لنأخذ مثلاً:

تلك الجراثيم التي وُجدت في الجليد منذ مليون سنة يتم تنشيطها وإعادتها للحياة.

إن إعادتها للحياة هي إعادة كائن عاش منذ ملايين السنين؛ عاد ليعيش في زمن مستقبلي بالنسبة إليه مع تفريغ الصورة من المشاهد الخلفية التي عاشها منذ مليون عام واستبدالها بخلفية جديدة مستقبلية تمثّل اللحظة التي عاد فيها للحياة.

إن الحياة تحاول استنساخ نفسها كما يحدث للشجرة، أو الاسفنج، أو دودة القز...

هي عملية تركيب مستمر في محاولة للانتصار على العدم.

الحياة منظومة فيها القدرة على تكرار نفسها.

* * *

هل نستطيع ملاحظة التكوين في بعض الكائنات. فذبابة مايو تستغرق أطوارُ نموها سنواتٍ حتى تصل الحشرة إلى طور البلوغ. ولا تكاد تبلغ

قمة تطورها كحشرة حتى تموت بعد يوم واحد من بلوغها ميتةً درامية.
فحين تتهيأ لليلة زفافها وبمجرد أن يتم تلقيحها تموت!

تلك الحياة السابقة للوجود، حياة العدم، التي تواصلها من أجل أن تظهر في حياة الوجود، تمضي سنوات لكي تصل إلى حياة اليوم الواحد.

فهل يمكن ما قبلها أن يكون موتاً؟

***

هناك من يقول إن الحياة نشاط كيماوي، ويفسر الموت بأن ذلك النشاط الكيماوي انتهى فانتهت معه الحياة.

هذا القول لا يمكن الارتهان إليه لكون الموت نشاطاً كيماوياً أيضاً. فحين يتحلل هو يتحلل في نشاط كيماوي، والتراب يحتوي على عناصر كيماوية تتفاعل في عمليات كيماوية لا تنتهي.

***

أثبت العلم أن للخلية مقدرة مذهلة على التخلُّق والاسترشاد بالقادم. فالخلية لديها ما يشبه الكمبيوتر يرشدها إلى ما يجب أن تعمله، فإذا قابلت الموت فهي قادرة على افتعال حياة أخرى.

***

هناك وهنا قريباً منا، كانت الميكروبات تسرد السر، تهذي به يومياً، من غير أن يسمعها أحد. ولا زالت تعيد كشف سر الحياة من الأزل ولم نتنبّه لهذا السر العميق.

إن الخلية حين وُجدت لم تكن لتموت وإنما تكبر لتعود صغيرة، فتنقسم إلى قسمين، كل منهما في مهده ليواصل حياة أخرى: كبراً وطفولة. وليس هناك أثر للموت بل انقسام في متوالية هندسية بلا موت أو فَقْد، وهذا هو حال الميكروبات منذ الأزل إلى الآن.

فهل تنبّهنا لهذه الوشاية؛ وشاية الميكروبات التي تفضح السر

المكنون، كسرّ الساحرة التي تتلفظ يومياً بالترياق الذي يجعل الأميرة النائمة تفيق من رقدتها الأبدية.

إن الحياة تكشف لنا عن أرديتها يومياً، ونحن مغمضو الأعين عن سرها؟

***

الحياة التي نعيشها ليست حقيقة، وإنما هي عالم اصطلاحي بحيث نعيش فيه متعلّقين في الرموز التي يخلقها عقلنا ليدلنا على الأشياء التي لا يعرف لها ماهية أو كنهاً.

إن النفي والإثبات نمارسهما لكي نُثبت خارطتنا العقلية، نمارسهما لنقول إن مسارنا شمالاً أو جنوباً كي لا نتيه في الكون العظيم. إلا أن إثباتنا لوجود شيء ليس يقيناً كاملا. كما أن نفينا لشيء ليس يقيناً كاملاً، فلو كانت الحياة حقيقية وفق إثباتنا لوجودها، فهناك حقائق غير موجودة في واقعنا لكنها موجودة، كالأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء. ويمكن إثبات وجودها بوسائط أخرى كاللوح الفوتوغرافي الحساس أو بـ «الترمومتر».

فكيف نلغي وجوداً ونثبت غير الموجود!!

هذه هي الكارثة!

***

النجوم التي نراها تبعد بمقدار ٥٠٠ مليون سنة ضوئية، وإذا أردنا رؤيتها في حاضرها فنحن محتاجون إلى ٥٠٠ مليون سنة ضوئية. إذاً، نحن حين نشاهد نجماً فإننا بذلك نشاهد ماضياً يبعد عنا ٥٠٠ مليون سنة ضوئية. نشاهد هذا الماضي في الحاضر. الماضي يعيش حاضرنا.

أفلا توجد حياة ماضوية تعيش في حاضرنا وتعيش في مستقبلنا، وأن نعيش نحن في ماض سابق ومستقبل قادم.

***

الآن، أنت في بيتك في أقصى شرق الكرة الأرضية، وآخر في أقصى شمال الكرة الأرضية، ونشاهد مباراة تقام في وسط هاتين النقطتين، وستكون الساعة في ملعب كرة القدم تشير إلى الثامنة مساء. فالجالس في الشرق سوف يعيش الماضي بفارق عدد من الساعات، والجالس في الشمال سوف يعيش المستقبل بفارق عدد من الساعات، وكلاهما لا يشعر بهذه الخلخلة الزمنية. كلاهما يعيش اللحظة التي يحسبها الحاضر، بينما تكون تلك اللحظة جمعت ثلاثة أزمنة.

* * *

نحن سجناء تصورات لهذا الكون، بينما هناك حقيقة مختلفة وواقع مختلف، ولا نستطيع أن نتبادل هذه الخبرات.

* * *

لماذا اختار الإنسان الأرقام في تدعيم وجوده. أتصور أن اختيار الأرقام أوجدها ليثبت قناعاته. فالموجات مجموعة أرقام، القياسات أرقام، حياته حوّلها إلى أرقام، أرقام تلفون، وجوده في سجلات الدولة أرقام، عمله أرقام.

الرقم هو فلسفة الخروج من الزعزعة، الرقم ثابت، فنحن نبحث عن الثابت، بينما المتحرك يجرفنا. فالإنسان يبحث عن الثبات ولا يقبل أن يظل في لحظة التأرجح.

* * *

الضوء؛ هذه المعجزة، استطاع أن يكتسب خاصتين فيزيائيتين هما: خاصية التموج وخاصية الذرية.

فلماذا لا يمتلك الإنسان خواصّ فيزيائية يتعامل بها مع الفناء؟ لأنه ليس هناك ماهيات بل كميات.

* * *

لو أن مسافراً لم يتعرف إلى حالة السراب بتاتاً، وكانت سيارته تنطلق في صحراء جرداء، فإن حلمه في هذه اللحظة قطرة ماء. إن مشاهدته للسراب تعزز قناعة كاملة لديه بوجود ماء أمامه وسينهب الأرض لكي يصل إلى السراب.

هناك حقائق شبيهة بالسراب، وعدم معرفتنا بحالتها يجعلنا ميقنين بوجودها.

***

هناك حقائق في حياتنا لا نقبل النقاش فيها. فطعم العسل حلو المذاق، هذا الحلو المذاب في حلوقنا يتحول مذاقه إلى مرارة لا تطاق في فم دودة المش.

وقبل أن نصل إلى حقيقة النور، كان أجدادنا يمنحون النور اللون الأبيض، هذه الحقيقة التي نلمسها بحاسية البصر تسقط في مختبر متواضع: تُسقط حقيقة أن لون الضوء أبيض. فمجرد تمريره من خلال منشور زجاجي سنكتشف أن هذا اللون الأبيض ما هو إلا اتحاد ائتلاف سبعة ألوان هي ألوان الطيف السبعة. ويتجرأ العلم ليسخر منا مرة أخرى ويقول هذه ليست ألواناً، بل هي موجات لا تختلف عن بعضها إلا في ذبذبات الطول والقصر.

وكل ما يحدث أن الخلايا العصبية في قاع العين تتأثر بكل نوع من هذه الذبذبات بطريقة مختلفة، ومراكز البصر في المخ تترجم هذا التأثر العصبي على شكل ألوان. ويفرز المخ لغته الاصطلاحية لكي يميزها عن بعضها ويطلق عليها هذه التعريفات التي هي عبارة عن تصورات.

والشجرة ليست ذات فروع خضراء، فما يحدث أن أوراق النبات تمتص كل أمواج الضوء بكافة أطوالها، ما عدا تلك الموجة ذات الطول المعين التي يترجمها المخ إلى اللون الأخضر.

***

إن ذرّة من عنصر الحديد ننظر إليها على أنها جامدة وهي في حقيقتها متحركة، تتحرك بسرعة مهولة تصيبك بالفزع.

فالذرّة مؤلفة من بروتونات وإلكترونات منفصلة ومتخلخلة ومتباعدة تباعُد الشمس عن كواكبها، ويقيننا بجمودها قادم من حسِّنا البصري غير المكتمل. لذلك لا نستطيع الرؤية الحقيقية، فنرى الجدران صماء وهي ليست كذلك، وغدت كذلك لكون وسائلنا محدودة. والأشعة التي نرى عن طريقها لا تنفذ فيها وإنما تنعكس على سطوحها وتبدو لنا وكأنها سد يقف في طريق رؤيتنا.

إن خروجنا من محدودية القدرة يمكّننا من رؤية الأشياء على حقيقتها ﴿فاليوم بصرك حديد﴾.

***

لو أن مريضي يسير بسرعة الضوء.

هذا يعني أنه يدخل في دائرة أخرى؛ دائرة تمكّنه من الوقوف على عوالم أخرى، كعالم الجن أو الملائكة أو الموتى.

***

أتريدني أن أُرعبك:

أنا أرى كائنات أخرى، ألمحها، وفي أحيان أتجاور معها، ونتحدث كما أجلس أنا وأنت الآن. هل تصدق هذا؟

الجملة السابقة قالها مريضي، ولم أعد مكذِّباً له بتاتاً. لقد ألقى عليَّ بحقيقة لم نفكر فيها بصورة علمية. نحن نؤمن بوجود الجن والملائكة، وربما هناك مئات الكائنات التي تعيش معنا وكل منها في فلكها.

أتذكرون قول اللّه تعالى: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾.

كنت أبحث عن الأرض السابعة، ليس كما فعل مريضي بالحَفر

ليصل إلى قرن الثور. في أغلب آيات القرآن يرد ذكر سبع سماوات وسبع أرضين، فأين هذه الأراضي؟

لن تكون دائرة في تلك الكواكب والأفلاك المقذوفة في السماء المترامية الأطراف. لن تكون هناك، فالأراضي السبع هي أفلاك دائرية حول الأرض (سأبيّن هذه النظرة لاحقاً).

ولنعد إلى الجن والملائكة. هم متواجدون معنا على الأرض ويعيشون معنا، فلماذا لا نلمحهم؟

أرى أن وجودهم ووجود كائنات أخرى يتمان من خلال السرعة، فنحن في سرعة معينة نتواجد، وهم في سرعة أعلى أو أدنى يتواجدون معنا على الأرض نفسها، وكذلك الملائكة يتواجدون في سرعة معينة على هذه الأرض. ولو آمنا بهذه النظرية، فإن هناك حيوات سابقة وتالية لنا على الأرض نفسها وفي الزمن نفسه. كلنا نتواجد معاً، إلا أن سرعتنا تختلف ومداراتنا تختلف، وكل منا يسبح في عالمه ميقنا أنه الوحيد على سطح هذه الكرة الأرضية.

إن الأرض أشبه بشاشة التلفاز، وما يُعرَض عليها ونشاهده هو حياتنا، بينما لو ضغط أحدنا على محطة أخرى فسيرى مشهداً آخر؛ هذا المشهد هو حياة أخرى لقوم آخرين، ولكل محطة سرعة رقمية تبث برامجها أو حياتها وفق تلك السرعة الرقمية.

***

الحب والكره؛ هاتان الميزنان اللتان نقيّم بهما علاقتنا بالآخرين، ظلّتا مثاراً لبحوث على مدار التاريخ، وتمت إعادة الحب والكره مرةً إلى العاطفة، ومرة إلى التوافق، وثالثة إلى النشاط الكيماوي بين المتنافرين أو المتجاذبين. ولا أخال أن أحداً استطاع الوصول إلى السر في هذه العلاقة، وأظن أنني وصلت إلى التفسير العلمي لحدوث الحب والكره بين الأفراد.

ويتمثل ذلك من خلال سرعة الأرواح. فإذا تساوت سرعة روح مع روح أخرى، فإنهما تلتقيان ويحدث بينهما التجاذب، بينما لو اختلفت سرعة الروحين فهما لا تلتقيان، وبهذا يحدث التنافر.

وبهذه النظرية للسرعة يمكن تفسير الأحلام والانتقال من زمن لزمن وتبادل الخواطر والتوقع لما سوف يحدث... سوف أجد فرصة لبيان هذا الأمر حينما أكتب التقرير النهائي.

تقرير
مسودة أولى

أذكر أنني مت. . .

الآن أذكر هذا جيداً. . .

لستُ واهماً البتة.

مثلَ الحكايات النائمة في ذاكرة الأطفال، ننتزعها في كهولتنا بعسر مضن، وحين نتعب من استحضارها طازجة كما كانت، نضفي عليها وهماً قديماً من الحبور والسعادة، وربما نستدعيها بكثير من التبجيل والحلل الفاخرة التي لا تتناسب مع قاماتنا المنحنية آنذاك. . . إننا مصابون بشبق تأليه الذات.

ليس هناك من هو جازم أنه صادف في حياته غولاً أو مارداً تآخى معه أو التقيا في لحظة رعب سكبت عليها الذاكرة ماء الخوف فعاد يسرد تلك اللحظة كدهر يتمدد ويفيض بالأساطير أو كخيط مطاطي يتمدد وفق حقيقته الفيزيائية التي استعرنا لها مصطلح المرونة، بينما هذا التمدد خارج عن الحقيقة. فكل حقيقة لها خارج يشي بماهيتها ولا يفصح لمداركنا عنه. فالأمر يحتاج لأن تتطور حواسنا لنصل إليه، ومن غير ذلك التطور سنظل حبيسي العادة والمألوف. فحقيقة ذلك الخيط المطاطي أوجدناها وفق منطق اللحظة لتبرير حادثة نقلت المادة من شكل إلى شكل ومن واقع إلى واقع آخر. فالماء أوجدنا له ثلاث صور بينما كل صورة رحلت من

موقعها إلى موقع آخر، وهي صور ثبّتناها بمداركنا الآنية والعاجزة. ذلك التثبيت قمنا به من أجل أن نثبت وجودنا الزائف ونقيم نقطة توازن كي لا تميد بنا حقائق تذهب بذلك التوازن. إننا نخشى أن نكتشف فجأة أننا فلك يدور في الفراغ ولا يمتلك مجالاً للجذب.

إن الإنسان الأول انبهر بالكائنات التي تفوقه حجماً فعبدها خشيةً منها، وعندما اكتشف سطوتها عليه، ذهب يبحث عمن يخيفه، عمن يُشعره بضعفه. إن الخطأ يُفرز كارثة حينما يكون أساساً للبناء. فالحضارة التي نعيشها الآن هي بناء على أساس وهمي، ففي كل مغامرة للعقل يجد نفسه منتصراً، بينما أعماقنا تضج بخوف طاغ. إننا نكتشف - في كل لحظة - عجزنا عن اختراق حجب مُسدَلة كالليل المظلم. وبين نشوة الانتصار وهزيمة الأعماق نتمزق، ونبحث عما يُطمئننا إلى مضني مقدرتنا المهولة في هزيمة ذلك الخوف. نحمل في حقائبنا إجابات محتملة، لكنها لا تحمل اليقين الصارخ.

إن كل إجابة ثابتة هي جريمة تخبئ خلفها كوارث يستعصي علينا إطفاء حرائقها التي نمسك لهبها بأطراف عقولنا وتقودنا إلى التزييف والتضليل اللذين لا ينتهيان.

والموت هو حقيقة عجزنا إلى الآن عن الوصول إلى تشكلاته، فهو واقع بصور متعددة لا نعرف منها إلا النوم أو حوادث غريبة لم نعترف بها إلى الآن.

إن اختلاط الزمن في ذاكرتنا كاختلاط مياه عذبة وأخرى مالحة، لا تستطيع تقدير نسبة امتزاجهما لمجرد تذوق ذلك الخليط. أنت تذكر التقاءهما فقط، التقاءً بين حلم وواقع... كذلك التقاء الماضي باللحظة الراهنة... أجزاء ضئيلة من زمن مفقود لا تستطيع الإمساك به يعبرك أو تعبره. وهنا علينا أن نقف قبل أن تنسل الكلمات بما هو عادي وغير لافت (هل نحن الذين نعبر الزمن أو هو الذي يعبرنا). إذا كان هو الذي

يعبرنا فنحن موتى منذ زمن طويل مقارنة بسرعته المهولة، وإذا كنا نعبره فنحن لم نأت بعد، ونغدو كخطوة سلحفاة أمام صاروخ انطلق قبل صفارة البداية بملايين السنين. نحن، بهذا، نكون مشروعاً لوسوسة زمنية ربما حدثت وربما لم تحدث بعد. فهل قمنا بتثبيت الزمن وفق صوره الثلاث (الماضي، الحاضر، والمستقبل) لكي نركن لجاذبية تقينا من جحيم الإجابات المفترَضة الأخرى؟

مفهومنا الساذج للزمن يُوقِعنا في تفكير بدائي، كأن تستعيض بفحم حجري لتكتب رسالة على صخرة يحملها بعير مجهَد لصديق يبعد عنك عدة آلاف مِن الأميال في زمن الإنترنت. هذا الاحتجاب المكاني الضئيل نحيله إلى مسافات تعجز خطواتنا عن ابتلاعها بوسيلة أحدث. وبمفهومنا المتردي للزمن نصنع أوهاماً إضافية توقعنا في فخاخ البدائية. هذا المفهوم الزمني يسقط عندما نتعرف إلى إجابات الفلكيين.

أُصاب بالرعب حينما أقرأ عن الزمن، ويتوالد هذا الرعب من هذا الكون الشاسع ومن تلك الكواكب المقذوفة في الفضاء البعيد... تلك الأماكن التي يتناقص فيها الزمن أو يتمدد إلى ما لا نهاية، ويغدو اليوم سنة أو ملايين السنين غير المعروفة تحديداً. ذلك الكون الذي يخلط الزمن فينا. إن النجوم التي تنظر إليها إنما تنظر لماضيها السحيق، فهي قد تلاشت منذ ملايين السنين، وما هذه اللحظة إلا التقاء الماضي بالمستقبل. هذا الوجود النجمي الحاضر قد انتهى منذ ملايين السنين ولا زال يبثُّ حياته التي نظن أنه يحياها بينما هي غدت رميماً فضائياً. أليست هذه هي المخاتلة... والرعب؟

هل نعي معنى التقاء الماضي والمستقبل في نقطة واحدة؟

أي جحيم هذا الذي علينا الفكاك منه وهو يعيش داخلنا؟

بهذا، نحن نعيش في المستقبل، ويعيش معنا الماضي. أي اختلاط هذا الذي يحدث؟ هل نستطيع، بهذا، أن نعيش في كل الزمان بصورة لم

ندركها بعد؟ هل نحن موجودون وفي الآن ذاته، غير موجودين؟

السفسطائيون سخروا من القوانين الرياضية الوصفية في القياس واعتبروا أن كل شيء غير موجود بالتعريف القياسي، متخذين مثالاً من قولهم إن الجدار غير موجود حسب القياس الرياضي، فالجدار كثافة، والكثافة كتلة، والكتلة مجموعة سطوح، والسطوح مجموعة من الخطوط، والخط مجموعة من النقاط، والنقطة بالتعريف الرياضي هي شيء وهمي. إذاً، فهذا الجدار مؤسَّس في الأصل على وحدة وهمية، وبالتالي فالجدار غير موجود.

ويبدو أن هذه السفسطة لم تكن نكتة ثقيلة ملوَّثة بالسخرية، لأن هذا التحليل الرياضي مقنع، خاصة إذا قرأت في الفيزياء عن السرعة. فمقدار السرعة يحدد الوجود والعدم. فبمفهوم السرعة نحن غير موجودين بتاتاً. نحن اهتزازة صغيرة وصغيرة جداً متناهية الصغر (ولا أجد لفظة تعبّر عن تناهي الصغر الذي أقصده حتى بالقياسات العلمية الحديثة). نحن نُتف في هذا الكون السرمدي لا تصل إليها الحسابات القياسية التي نعرفها. ووجودنا قائم على نتف من أجزاء من ملايين فتات الزمن. وهذه لحظة منفية في شلال الزمن المتدفق.

كل شي يتحرك وإن بدا متماسكاً، وفق قانون التجاذب أو ما يمكن أن أسميه -أنا- وحدة تجاذب الأجزاء. نحن نتماسك بسرعة جريان الإلكترونات، ومتى تباطأت تلك الإلكترونات في سرعتها المحسوبة لها تساقطنا وانتهينا. ليس نحن بل كل الكائنات لها سرعة محدَّدة تظل متماسكة بها. وإذا اختلت تلك السرعة نموت ظاهرياً في لحظة السقوط، بينما نحن كوحدات لا زلنا خامة لحياة أخرى تنشط فيها سرعاتنا ونتماسك وننهض من الفناء، وهذا ما يجعل الحجر حياً أو يجعلنا نحن أحياء. نحن أحياء في أذهاننا بينما نحن خارج هذا الوجود بمفهوم السرعة. حتى هذه التراتبية هي تراتبية تسعى في المقام الأول إلى خلق

إجابة مضلِّلة، وبالتالي نحن ندور في إجابات ارتضينا بها لتحقيق التوازن النفسي والاقتناع بما وصلنا إليه من حقيقة بينما هي إجابة تُخفي سلسلة من الكوارث التي نخشى الوصول إليها.

فالعالم كله مجاز لشيء آخر. فهل تستطيع الوصول إلى الحقيقة عن طريق اللغة، أم تصلها من ناحية المعنى والمعقول. كلتا الطريقتين عاجزة عن الوصول. فاللغة لعبة نتخذها كجسور للتواصل وفق قدرات ذهنية بدائية تعيننا على فهم بعضنا، والمعنى والمعقول نحن افترضناهما لكي نتماسك ولا يحدث الاهتزاز والانفلات والجنون. والحقيقة التي نرغب في الوصول إليها هي حقيقة سابقة لوجودنا، وهي افتراضية نعيش بها، تلهمنا الكتب المقدسة بشيء يسير منها. فهناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر... مجرد خاطر بتلك الحقيقة لم يخطر بقلب بشر... فهل تستطيع اللغة الوصول إلى ما لا يصل إليه الخاطر، وهل يستطيع المعنى اختراق تلك الحجب ووضع أنموذج لما بعد هذا الوجود الساقط في أذهاننا ظاهرياً.

ثمة لغز عن الموت لم نسأله لأنفسنا بعد.

إن جوهر الوجود يستوجب الدوران حول الذات البشرية. ثمة طريق آخر للحقيقة. نحن في حاجة إلى بحارة يعشقون الهجرة والبحث، فأولئك المكتشفون لمخابئ الأرض بحثوا عن أقصر الطرق وأيسرها للوصول من نقطة إلى أخرى، ونحن في حاجة لمن يوصلنا لتلك النقطة القصيرة التي ربما تقلب مفاهيمنا العتيقة عن هذا الوجود. إذا كانت المادة وفق التعريف الفيزيائي لا تفنى ولا تُستحدث... فأين تبقى؟

أين تبقى؟

لا تفنى ولا تُستحدث. إذاً، هي تسير في زمن لا ينتهي وهي لا تنتهي... حياة دائمة في أماكن مختلفة، وصور مختلفة.

هل توافُرُ الظروف الفيزيائية كفيل بإعادتها في زمن آخر؟

لا يكون السؤال هكذا، بل يكون: هل ندرك تواجدنا في كل نقطة بمدارك مختلفة عن سابقتها، أي هل ندرك وجودنا غير المنتهي بعقليات متطورة عن تواجدنا في الأزمان البدائية؟

أو يمكن تبسيط المسألة لتوافق تفكيرنا بهذه الصيغة: هل الزمن يجري جريانَ الماء، نصبّ في البحار ونتبخر ونصعد للسماء ونعود مطراً، نعود في المكان نفسه وفي فصل هطول الأمطار. هل تصدق هذه الحقيقة الفيزيائية مع الزمن؟

لا زلت أقف عند هذا السؤال. لم أبرحه. شيء ما يغريني بالتنقيب هنا علّي أصل للحقيقة التي حيّرت العقل البشري عبر تدفق آلاف السنين.

وبافتراض علمي: لو توفّرت ظروف معينة، فهل يمكن لنا العودة للماضي... والتقدم للمستقبل؟

وبافتراضية أخرى: لو اكتسبنا مدارك متطورة، فهل نقف على تواجدنا في كل نقطة نعبرها عبر الزمن مع احتفاظنا بذاكرتنا الأولى، أم يحدث تبدل في حالتنا كما يحدث التبدل في حالات الماء الثلاث؟

هناك من يمتلك علوماً لم يقف عليها العلم التقليدي... علوماً خارج المنطق، وفوق العقلية البسيطة المركّبة على افتراضات علمية. إن العلم التقليدي يتعامل وفق معطيات واقعية ويبني عليها افتراضات خيالية، وربما يصل للمتخيَّل وربما لا يصل. وعدم وصوله ليس لصعوبة تحقيق المتخيَّل، ولكن لقصور الأدوات المتوفرة أو قصوره الشخصي، أو أن هناك وسيطاً لم يتم اكتشافه بعد.

إن الإنسان يستطيع أن يمسك بحجر ويقذفه في أي جهة يريد، ولكنه لا يستطيع أن يقول لقلبه توقف أو تحرك... هكذا بالأمر المباشر. وهذا ما يُطلَق عليه «الفعل الإرادي» و«الفعل غير الإرادي».

إننا الآن نتقبل وجود شخص في أميركا وفي بقية العالم من خلال البث المباشر، نتقبله لوجود وسيط، ونقلّل من أهمية هذا الحدث بأن

المتواجَد في بقية العالم إنما هو صورة منتقلة عبر تموجات كهربائية أو مغناطيسية، بينما نرفض تماماً فكرة تواجد شخص واحد في مكانين مختلفين في الزمن نفسه، وهذا جهل بيّن بمقدرة صانع النظام. ولو أردنا استخدام الألفاظ الدينية لقلنا: كفر صريح بمقدرة الخالق.

هناك علمان لا يزالان غائبين عنا: علم السحر، وعلم الجن.

فالسحر، وفق ما يتناقله الناس، هو مقدرة على الحضور والغياب، ويمتلك مقدرة الانتقال بين الأزمان. فأي سر مخبوء عنّا؟

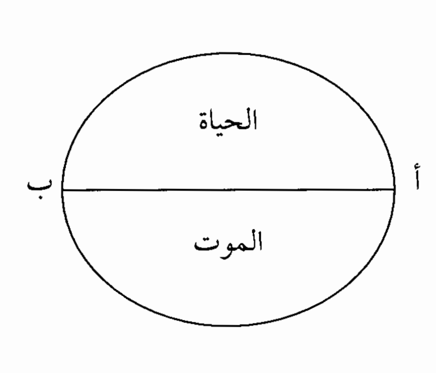
كما أن علم الجن مرتبط بالسحر، ارتباطاً قائماً على التوافق والمصالحة. ومعرفتنا تقودنا الى أن الجن يمكن لها أن تقوم بأفعال بعيداً عن السحرة. إن انتقال الكائن في الزمن نفسه، ومعيشته في مكان آخر في الزمن نفسه أيضاً، هما اللذان يرعبانني. أتذكرون ذلك الجني الذي خاطب سيدنا سليمان ووصفه اللّه بأن عنده علم بالكتاب. قال لسيدنا سليمان:

- «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طَرْفك».

هذا الجني حقق التواجد الزمني والمكاني في مكانين مختلفين ومتباعدين بفارق ضئيل للزمن: لحظة ارتداد الطرف. كم جزءاً من الثانية يحتاج إليها لينتقل لمكانين متباعدين ويتواجد في الزمن نفسه وفق إدراكنا للزمن المتباطئ فينا. فهل سار وفق السَّيْر الآني للحياة من اليمين الى اليسار، أم حدث سيره عكس الاتجاه الزمني الآني، أي سار من اليسار لليمين، وبهذا خرق الزمن المتعارَف عليه في حياتنا، وتوقف الزمن وحقق الوجودين؟

كل الأشياء تدور من اليسار إلى اليمين ابتداءً من أصغر شيء في النواة إلى أكبر شيء في الكون. فالإلكترونات تدور حول النواة من اليسار إلى اليمين. البويضة في رَحِم المرأة من اليسار لليمين. دوران: القمر، الشمس، الأرض، الأفلاك... والحجاج يدورون حول الكعبة من اليسار

لليمين. . . والكون كله قائم على نظام واحد في دورته: الدوران من اليسار إلى اليمين. والمعجزة ليست اختراق النظام ولكنها إيجاد النظام. إذاً، لماذا لا تدور الحياة من اليسار لليمين وتحقق الشكل الدائري. . . الشكل الكامل والنموذجي. . . شكل النظام العام.



فإذا افترضنا خطاً أفقياً مستقيماً يكون [أ ب]، وتكون بداية الميلاد من «أ»، فإن التقوُّس العلوي على شكل نصف دائرة يكون النقطة التصاعدية ثم تنحدر لتصل إلى «ب»، وبهذا تكون نصف دائرة لا تستقيم مع منطق الكون. فإذا افترضنا هذا الشكل فإن الحياة لا بدَّ من أن تستكمل دورتها وتعود الى «أ» لتكون دائرة، وإذا تكونت دائرة فالحركة يجب أن تكون عكس اتجاه الساعة أي من اليمين لليسار. إذاً، ستدور حول محورها [أب]، وبهذا تستقيم الحياة مع الدوران الكوني.

لكن مشكلتنا أننا نتصور أن الحياة تدور من اليمين الى اليسار مولداً وموتاً، أي من لحظة استشعارنا بتصاعد الزمن فينا وشعورنا بأننا نصعد ولا نلتف حول الزمن. هذا المفهوم سبَّب كارثة أساسية في حياتنا، فنحن نحسب الزمن بصورة خاطئة. إذا افترضنا صحة تلك الفرضية، فهذه الفكرة تنصب سؤالاً مهماً:

- هل حقاً نستطيع أن نتواجد في مكانين مختلفين وفي زمنين مختلفين؟

لذلك، أقف على كل التفاصيل التي يتفوه بها مريضي علّي أصل إلى

جزء من الغائب في هذه الحلقة. فربما كانت الحقيقة في كلمة يتفوه بها أحد الذين مروا في حياته، أو ربما اكتشفت أن اللغة قادرة على كشف ما هو مخبَّأ. مثلاً، السحرة أو الجن أو أصحاب الكرامات... ربما مرَّ به أحدهم وقال كلمة السر ومضى... ربما!

فهل يقف السر أمامي الآن من خلال هذا المريض (عفواً على كلمة المريض، فأنا لا أؤمن بذلك بل مؤمن بأنه الرسالة الغائبة التي ظلت البشرية تنتظرها عبر سنوات طويلة من البحث والتنقيب).

إننا نؤمن إيماناً مطلقاً بأن اللّه دائم باق لا تأخذه سِنة ولا نوم، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن. إذاً، الزمن ليس بداية ونهاية، بل هو بقاء دائم سرمدي.

ويصبح المكان هو القضية. فهل يمتلك المكان سرعة مهولة كسرعة الزمن. وبافتراضنا أن الزمن دائري فالمكان دائري. المكان، أيُّ مكان، نراه جامداً، ولكنه متحرك وفق الحقيقة الفيزيائية. وحركته الداخلية حركة تتم من اليسار لليمين، بسرعة فائقة، لتحقق تماسكاً ما، نطلق عليه الجماد. هذه الحركة تحقق تماسك الجماد وتحقق له الانتقال مع الزمن بصورة دائرية.

ملاحظة

هذا ليس تقريراً، بل مقطوعة إنشائية لا يعترف بها العلماء. والرأي عندي أن تتبع الخطوات التالية:

١- أن تدخل إلى لب قضيتك مباشرة وبجُمل علمية قصيرة.

٢- العمل على تحقيق رؤيتك بواسطة المعادلات والإحصائيات الدقيقة.

٣- أن تكون الفرضية معروفة الأبعاد، وأن تكثف كل المعلومات لتحقيق تلك الفرضية.

٤- نصيحتي أن تبدأ محاضرتك بتسليط الضوء على مريضك، فلا يكتشف الجميع الحالة المدهشة التي يقفون عليها.

٥- شعرت بالملل وأنا أقرأ، فأنت تكرر نفسك وتدور في دائرة مشتَّتة: مرة تريد أن تثبت حالة، ومرات تريد ان تقلب الكون كاملاً.

٦- سأكون سعيداً لو قرأت هذا التقرير بصورة أخرى.

أ. د. محمد الكامل
أستاذ الفيزياء والرياضيات(*)

(*) لم يَرُقْني رأي الأستاذ الدكتور الكامل، وأرى أن كل هؤلاء جميعهم الذين يقفون على آراء مسبقة، هم من يقف في وسط الطريق ليمنع المارة من العبور أو مجاورة خطواتهم خشية أن يسبقوهم.
مع ذلك، سأسعى إلى إعادة كتابة هذا التقرير خشية أن أصادف أمثاله في المؤتمر المزمَعة إقامته بعد شهرين من الآن.

الدكتور حسين مشرف

تقرير

مسودة ثانية

أيها السادة،

اعذروني - من البدء - فأنا متيَّم بالتشبيهات والمجاز، وعملي يقوم على هاتين الأداتين اللتين حاولتا أن تقرّبا لنا الكون فأبعدتاه، ولم أتنبه لفحشهما إلا متأخراً، ولم يكن من السهولة التخلي عنهما بهذه البساطة، فلا ينزعج أحدكم حين يلحظ اتكائي على التشبيه مرة، ومرة على المجاز (بالرغم من علمي بأن العلوم التطبيقية لا تقبل بهاتين الأداتين اللتين صنعتا واقعاً وهمياً ترسَّخ في أذهان العالم).

لن أطيل الحديث عن المجاز أو التشبيه، وسأقف بكم مباشرة على حالة نادرة (كما نصحني أحد الأصدقاء).

انظروا،

هذا مريضي، جاءني قاصداً، ووضع أمامي لغماً متفجراً، وتركني سنوات طويلة أبحث عن وسيلة لنزع فتيل هذا اللغم، وإيقاف لحظة انفجار يمكن لها ألا تُبقي شيئاً من المفاهيم القديمة على وجه هذه المعمورة (ربما مبعث يقيني هذا كوني تماهيت معه وأيقنت بقوله). لن أطيل الحديث هنا...

سأوقفكم مباشرة على حالته، وكل ما أرجوه ألا تأخذكم التجربة (التي سنجريها الآن) عما أود قوله من احتمال علمي غائب عن البشرية منذ ولادتها، ومنذ أن خطَّ الإنسان تاريخه على هذه الأرض:

هنا أقوم بتعريض مريضي لحزمة ضوء، وإظهار أنه كائن يسير بلا ظل. ولا بد من السيطرة على الحضور كي لا ينشغلوا عما أود قوله. سأصرخ بهم: كلنا بلا ظل!! نعم، كلنا بلا ظل، وليس في الأمر خديعة أو لعب حواه!!

أرجو أن تتخلصوا من دهشتكم وتتنبهوا لما أود قوله:

هناك حقائق علمية لم نعشها، كانت في ما مضى ضرباً من السحر أو رجماً بالغيب، والآن نتعايش معها من غير أن تثير دهشتنا البتة.

وحالة مريضي ستقودنا إلى نفق يقودنا بدوره إلى حياة أخرى. كيف؟

لكي أجيب عن هذا السؤال، كان عليَّ ان أُمضي سنوات طويلة باحثاً، وكانت مشكلتي أني لم أجد في الكتب ما يشير إلى فكرتي من قريب أو بعيد. كانت هناك أفكار مسبقة تنبَّه لها الإنسان من غير أن يصل إلى حل مقنع لها، فتعايش معها وفق الأسطورة مرة، ووفق المعجزة مرة. لقد تنبَّه الإنسان منذ القِدَم لوجود ملكات خفية لديه مثل التخاطر والجلاء البصري والسمعي والقدرة على تحريك الأشياء بالفكر، واختراق الماضي والمستقبل، والتعرف إلى مكامن الماء أو المعادن في الأرض، والوجود في مكانين في وقت واحد، والطرح النجمي أو الخروج من الجسد.

هذا التنبُّه كان الزلازال الذي يهرب منه في كل حين، ووجدت نفسي وسط هذا الزلزال وجئت إليكم بهذه الحالة كما جاء هدهد سليمان:

في السنوات الأولى من وقوفي على هذه الحالة، كانت تراودني فكرة دائرية الحياة، وأن هذه الحياة يمكن أن تصل بنا إلى منتهاها وتعيدنا مرة أخرى (ليس بطريقة التناسخ، بل تعيدنا نحن بذاكرة ممسوحة لنعيد السَّيْر كما فعلنا في ماضينا الممسوح). لكن هذه الفكرة تتعارض مع كثير من الحقائق العلمية (لكنها ليست مستحيلة، وكان عليّ أن أدلّل عليها بأدلة متوالية ودامغة، وكنت أسير في هذا الخط معظم وقت البحث، فجأة انقلبت، انقلبت إلى فكرة أخرى أكثر منطقية وتحققاً).

هذه الفكرة جاءت من قوله تعالى:

﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾ («سورة المعارج»، آية ٤٠).

وقد نبّهني لها أحد الأصدقاء الذين لجأت إليهم في حيرتي هذه، فبحثت كثيراً عن تفسير هذه الآية. كل ما قرأته لم ينسجم مع قناعتي. بدأت الفكرة تتسلل لمخيلتي إلى احتمال وجود عوالم أخرى غير التي نعيشها (عوالم في المكان والزمان نفسيهما لكننا مفصولون عن بعضنا بحاجز السرعة، حاجز التردد)، ثم تمسكت بهذه الفكرة، وبدأت أتساءل: ماذا يعني سبع أرضين، وماذا يعني ترديد الحيوات في القرآن الكريم. ثم بدأت الدخول في عالم الفيزياء بافتراض:

- هل بالإمكان أن يتواجد شخص في مكانين مختلفين في زمن واحد؟ وكان هذا الاحتمال ممكناً لو أن الشخص صار بسرعة الضوء. وهذا قادني للتردد. كنت مشغولاً بإثبات أن الحياة دائرة تسير وفق القانون الأكبر («دائرية الأشياء»)، وغدوت مسلوباً بهذه الحالة، كنت أصلي متتبعاً إشارة ما يقوله الإمام علّني ألتقط شيئاً من الآيات التي أسمعها، وكلما سمعتُ شيئاً يقترب من فكرتي دوَّنته وسعيت لدراسته. في إحدى المرات التقطت من الإمام قول اللّه عز وجل:

﴿وكل في فلك يسبحون﴾.

أحسستُ بالدوار حينما جالت في مخيلتي فكرة عاصفة، نعم «وكل في فلك يسبحون». كل شيء يسبح في فلكه، وهذا الذي يمنعنا من التواصل. كل له موجه وتردد يسير في فلكهما ووفق قانونهما. التردد قادني للبحث عن الإجابة عن السؤال التالي:

- هل يمكن أن تتواجد عدة حيوات على الأرض؟

هل تنبهتم للكارثة التي أوقعني بها مريضي. لقد أدخلني في يقين باحتمال تداخُل العوالم بعضها ببعض. أوقعني باليقين بأن ثمة حيوات

تعيش في اللحظة نفسها والمكان نفسه!! وأن الأرضين السبع هي متواجدة في حيز وجود واحد، ولكن بسرعات مختلفة.

فعلى شاشة التلفزيون يمكن استحضار مئات القنوات من خلال تغير سرعة «تردد» كل قناة. فهل يمكن أن يتحقق هذا بالنسبة للحياة، بمعنى أن تتواجد حيوات عدة في الزمان والمكان نفسيهما وتخضع لقانون السرعة، أي أن كل حياة لها ترددها؟

هذا السؤال الضخم ليس وليد لحظة انفعال أو انسياق خلف شهوة الاكتشاف، بل جاء بعد تفكير عميق وبحث مضن، وسرتُ خلفه بيقين صارم. فنحن المسلمين نؤمن بوجود أمور غائبة تعيش معنا، تلمحنا ولا نلمحها. هذه الكائنات هي: الجن، والملائكة «رقيب وعتيد». ونؤمن بانتقال الأشياء من مكان لآخر في زمن واحد، كما حدث مع من لديه علم بالكتاب وجلب عرش بلقيس في لمحة البصر. هذه الأمور جعلتني أيقن بفكرتي، وسوف أشرحها بصورة مبسَّطة من غير تعقيد علماء الفيزياء ومعادلاتهم المضنية (أعلم أن أي نظرية تتعلق بالزمن والسرعة تحتاج لمعادلة تتم برهنتها لكي تقود لإثبات تلك النظرية أو نفيها، لكنني لا أحمل معادلة بل أحمل فكرة تقود كل الإشارات إلى إمكانية تحققها من خلال المنظومة الكونية، وأن الكون يسير وفق نظام واحد، وأثبتنا أن هذا النظام ينطبق على كل محتويات الكون. فبالإمكان لعالم فيزياء أن يتتبع هذه الفكرة ويضع معادلتها التي ستوقفنا على الحقيقية المخبَّأة عن عيوننا، وهذه الحقيقة المخبَّأة أشبه بجيب خلفي لا نلمحها).

أشعر بأني أكرر الكلمات، وأحوم حول الفكرة. وربما قفز التململ إلى اعماقكم، فامنحوني صبركم، وتغاضوا عن لجلجتي. ببساطة شديدة أقول لكم:

لقد توصلت من خلال معايشتي لمريضي وتقليب الكتب، إلى فكرة أن ثمة كائنات بشرية تزامننا وتعيش معنا في دوائر متعددة؛ كل دائرة تسير

في فلكها وسرعتها من غير أن تلتحم بعضها ببعض. وبقيت معضلة حقيقية تُجابهني متمثلة في قول بعضكم:

- لو آمنا بما تقول عن تواجد هذه الحيوات في دوائر مختلفة وسرعات أو تردد معين، فكيف تفسّر مقولة مريضك إنه عاد للتو من الموت.

وإذا كان كذلك، فإن عودته إلى الدائرة نفسها التي كان يعيش فيها هي نقض صارخ لفكرتك.

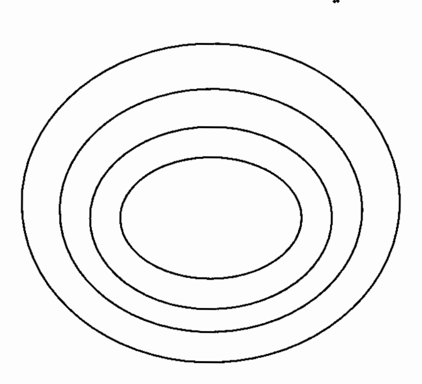
وفي الحقيقة، أنا جئت هنا لأعرض مشكلتي لكي نقف معاً على هذه الحقيقة، ولم أعد راغباً بالتفرد بهذا الاكتشاف.

أنا أتصور أن هناك حيوات متعددة بسرعات أو تردد مختلف، ولكل منا حياته. أليس مرعباً أن تتصور أن كائناً يسير فوقك من غير أن تشعر به. أُصاب بالهلع عندما أتصور ذلك. تصوروا أن يكون منزل شخص في منتصف خط سير سريع من غير أن نصطدم به.

كلنا نعيش داخل دوائر زمنية، وفي أماكن ذات تردد مختلف، وفي الدائرة نفسها التي نسميها الحياة.

ربما أستطيع تقريب هذا بالشكل التالي:

مع افتراض أن الدائرة الخارجية هي المكان الذي نتواجد فيه جميعاً، وأن ثمة حيوات متعددة في هذا المكان بسرعات أو تردد مختلف، أي أننا جميعاً داخل الإطار المكاني، وأزماننا تختلف باختلاف دورانها. إنها إعادة لمنظومة الكون.



وإذا أمعنا في الشكل الدائري فسوف نلمحه أشبه بشكل الدوامة، وهذا يؤكد أن شكل الدوامة يمكن أن يمثل شكل الحيوات المتعددة.

أيها السادة،

الحياة التي نعيشها هي حياة...[*].

جمعتُ هذا التقرير ونسّقته من مفكرتي الخاصة، لكي أتقدم به إلى مؤتمر دولي دُعي إليه المهتمون بمناقشة «علم النفس والميتافيزيقيا». وكنت عازماً على إيقاف المجتمعين على حالة مريضي، فقد أخبرته بذلك وجهزتُ له حجزاً لمصاحبتي... والذي حدث لم يكن متوقعاً!

الدكتور حسين مشرف

(*) لا داعي لكتابة التقرير، فلم يعد الأمر مجدياً.
الآن أجزم أنني كنت أتابع هواجس وأوهاماً قديمة... يا للحزن!

الدكتور حسين مشرف



الخاتمة

دخل كعادته، وإن كان أكثر هدوءاً اليوم. سحب الكرسي الذي يجاورني وقال معاتباً:

- أين كنتَ طوال هذه المدة؟

رفعت له عدة أوراق:

- ما هذه؟

- إنها مجموعة من المستندات والحكايات التي جمعتها من قريتك.

- قريتي!!

- نعم، قمتُ بزيارة قريتك ومكثتُ فترة أستقصي حكاياتك.

- وماذا وجدت؟

- أصْدقك القول لا زلت حائراً، فكلَّما وقفت على شيء انزلقتُ وكأني أقف على قمة جبل أمرد، زلق، وكلما تثبتُّ بصخرة أسلمَتْني لهاوية.

- المهم ألاّ تسقط بعد أن تثبتَّ من شيء أيقنتَ بوجوده.

- هيهات، لم يعد هناك مجال للتراجع.

- حسناً، هذا جيد.

- أريد منك خدمة.

- مني أنا!!

- لقد رفعت تقريراً عن حالتك لأحد المؤتمرات الدولية المعنية بمثل هذه الحالات، وأريد منك أن تصحبني لأقرأ تقريري ثم تتحدث أنت عن حالتك.

تبسَّم وأدار وجهه إلى الجهة الأخرى:

- لقد حولتني إلى مادة تكسب بها الشهرة.

- لا! لا! لا تفهمني بهذه الصورة.

- لا عليك، سأرافقك.

- أريد منك أن توصلني إلى حقيقة أخرى.

- ما هي؟

- دعني أنسّقْ أفكاري بصورة جيدة، وأقف على ما أريد بالتحديد، وأقُل لك.

- حسناً، غداً سأكمل لك ما تريد.

وفزَّ من مجلسه طوداً شامخاً، وقبل أن يغلق الباب تبسَّم في وجهي:

- يا دكتور... هل فعلاً تظن أن الحياة تتناسخ؟

ولم ينتظر جواباً. فقد أغلق الباب ومضى!

كانت هذه آخر مرة أراه. انتظرته في الجلسة المحدَّدة للقائنا فلم يأت، وكذلك في الثانية والثالثة.

شعرت بشيء من الخوف يداهمني. أجريت عدة اتصالات لكنني لم أعثر له على أثر، فخرجت أبحث، وفي كل خطواتي لا أجد سوى جواب واحد:

- عمن تتحدث!!

أيقنت أن الاسم هو صندوق بريدنا الذي نستقبل به أقدارنا.

رسالة أخيرة

قانط اليوم.

كيف سمحتُ لهذا الكائن بأن يستخف بي كلَّ هذا الاستخفاف.

أين يمكن أن أجده. لقد ترك جمرة مشتعلة في صدري ومضى. إلى أين يمكن له أن يمضي.

لم أستقرَّ طوال النهار. وضعت كل الاحتمالات التي يمكن أن توصلني إليه. فتشت كلَّ الأماكن ولم أجد له أثراً.

كان عليَّ أن أنسى كلَّ هذا وأعود إلى حياتي القديمة، أتابع تلك الحالات التي فقدتْ توازنَها وأعمل على إصلاح خللها. يكفي أن أقوم بهذا الدور؛ أن اقف كالحيطان أحمل سقوفاً تبحث عن دعائم تتكئ عليها قبل أن تسقط على الأرض.

جلست إلى مكتبي تحوطني الأوراق من كل مكان؛ أوراق متداخلة ومتراكمة كأنها جثث في أرض معركة سقط بها الجنود ولفظوا أنفاسهم من غير أن يتمتعوا برؤية من أطلق عليهم ذلك الرصاص الكثيف. كل رسالة تحمل دمها وتنعطف صوب جارتها في سكون كشاهد وحيد على هزيمة نكراء لم ترفع بها راية الاستسلام.

كان عليَّ أن أتخلص من هذه اللعبة التي سكنتُها سنواتٍ طويلةً. بزغ

من ذاكرتي إبراهيم مكي وهو يتمطّى في سخريته: «أنت تبحث عن مستحيل لتعيش داخله وتنسى ما حولك!!».

هل فعلاً كنت أبحث عن شيء يُخرجني من سأمي، ودفنت نفسي داخل حكاية اخترعها ذلك الرجل ليوهمني بأني أقف على سر الوجود، ثم رحل ساخراً من عقليتي ويقيني بما كان يقول؟

ها هي الحياة تتجسد أمامي، مجردَ أوراق، آلاف الكلمات صُلبت بين هذه الأوراق، وليس فيها شيء سوى كلمات تقودنا لكتابة تاريخ نغزله من حكايات ربما يكون معظمها مجرد وسواس عبر مخيلة ما سجلت لنا تاريخ وساوسها!!

أخذت أجمع تلك الأوراق محتاراً بين رغبتين: حرقها أو قذفها في برميل لنفايات كي لا تعود؛ قذفها بكل أحبارها وجنونها. انتصر الحريق على القذف، فقررت حرقها - هنا في مكتبي -. كنت راغباً في رؤية كل الأشياء وهي تحترق أمامي، ربما لأخلق في داخلي يقيناً بأن كل ما مضى كان لعبة تنتظر هذا الحريق. كوّمت كل الأوراق بشكل هرمي، وأشعلت القداحة وأخذت أدنو بلهبها منها وقد تجمعت، بعضها على بعض، في ارتعاشات واهتزازات من هواء المكيف الذي استقر على قمتها. لهب القداحة يقترب من إشعال الحريق الكبير وطبول ظفر تُقرَع في مخيِّلتي تحمّس خاطرها: أحرقها، هيا... هيا أحرقها.

ثمة شيء خر يصارع تلك الأصوات، شيء يقف كجبل راسخ يرفرف بذكريات لصبيّ مفتون بنفسه يلمح عيون الصبايا تلاحقه، ويسمع الهمسات تتبع ممشاه: هذا هو... هذا هو!

تل كبير من الأوراق، تتساقط من على قمته الأوراق الثقيلة التي لا ترغب في مغادرة حروفها. كنت أتأمل كل ورقة وهي تسقط وأقرأ لمن هي. سقطت أمامي ردود كثيرة ممن استشرتهم، سقطت كلماتي، سقطت

ملاحظاتي التي جمعتها من هنا وهناك. كل شيء أخذ يتساقط. استهوتني اللعبة وأخذت أهيل بعضها على بعض، وأُدني ورقة مني أقرأها:

- يا اللّه، زمن طويل مضى وأنا أجمع كل هذه الحروف.

كنت أكتبها بلوعة العاشق، وها أنا أفرشها أمامي كذكريات عاشق رست بأرضه كل مراكب الوصل، تصحَّرت أيامه ولم يعد باقياً له إلا إطلال نبع شاخ فيه الماء فلم يعد قادراً على مدك إلا بالغبار.

غبار، غبار. أهيل تلك الأوراق، أبعثرها، أقلِّبها، وأجمعها مرة أخرى على هيئة تل كبير. في فعلي هذا سقط أمامي مظروف لرسالة لم أفضَّ ختمها. كنت يائساً من مواصلة العبث في هذه الوساوس التي غدت معتقة تذهب بالعقل لمجرد شمِّها. قلبتها بين أصابعي:

- من صاحب هذه الرسالة؟ ربما شخص آخر يضحك من أفكاري التي خرجت كأفعى لتجد الكل يمسك بعصاً لقتلها.

طرأ ببالي أن تكون رسالة من مريضي ليضاعف سخريته مني. هذا الخاطر لسعني، ففضضتها على عجل. قرأت شيئاً فاح له قلبي المحترق:

الأخ حسين مشرف:

ربما ذكَّرتني هذه الحادثة بدعواتك القديمة (أتذكرها). لم تزل في الذاكرة كالآن حينما خرجت على فتيان الحي تحمل نبأ مقدرتك على الانشطار. هذه اللعبة المضحكة جعلتك سخرية بين أصدقاء الحي، ولم تكفَّ عن هذا الادّعاء إلا حينما تبرَّع رجال الحارة بالوقوف بك على شيخ توعَّدك بأن يجز قامتك إلى نصفين إن عدتَ لمثل هذه الترَّهات. ولخشيتك كففتَ عن ادّعائك.

كل ما أخشاه عليك - الآن - أن يظهر ألف شيخ ليجز هامتك ويتركك تلملم وساوسك كما تشاء (عذراً على هذه القسوة، فما تقوله يدخل في باب الهذيان).

حسين،

يتمك وحياتك المتقلِّبة عند الأقارب نخرا داخلك وجعلاك تُقْدم على فعل أمور نكراء ظانّاً أنها ستقودك إلى اهتمام الجميع بك. أتذكر مجيئك من القرية وكيف كنت تبدي كثيراً من الاعتداد بنفسك، وحينما لا يكترث بك أحد، تجذبنا بألاعيب مبتكَرة كي نكون تحت سطوتك.

لم تجتذب أحداً. لم تجتذب سوى هند.

أتذكر هنداً!!

آه! هند؛ هذه الزهرة التي ضمرت في عروة قميصك حين كنتَ تهرب من الوهم للوهم. لقد أفسدتَ حياتي يا حسين، أفسدتَها من حيث لا تعلم، ودائماً أنت لا تعلم أنك تسير لتفسد كل ما هو أمامك!!

لن أذكِّرك بما كنت تسرده من حكايات تجعلك سخرية للجميع.

أعتذر يا حسين لهذه القسوة، وأجد نفسي راغباً في أن أذكّرك باللعبة إياها حين كنتَ تقوم بأحاجي عديدة لتوهمنا بمقدرتك على الظهور تحت أشعة الشمس من غير ظل.

فهل وجدتَ في اللعبة القديمة نشوة لتجعل بقية الناس يقفون مندهشين من أحاجي الصِّبا.

طارق الباشا؛ صديق طفولتك القديم
وأستاذ علم الفيزياء حالياً
٩-٩-١٩٩٩

بدأ العمل في هذه الرواية بتاريخ ١-٦-١٤١٩هـ.

وانتهت في ٧-١-١٤٢٣هـ.

طبيعة العالم الذي تجوس هذه الرواية فضاءه غريبة:

بطل الرواية إنسانٌ غريب كالطين تماماً؛ غريب في لزوجته وصلابته، تشكُّله وثباته، وجوده وعدمه.

وُلِد من رَحِم الموت، ولم يأتِ من نطفة، ولم يعايِش رحم أمه. يعيش حياتين معاً: حياةَ واقعه وقريته، وحياةً أخرى يصرُّ - بطل الرواية - على وجودها في تزامن واحد يجعلنا نجزم أن الرواية تقدّم سراً جديداً من أسرار الحياة، وتطرق باباً مهمَلاً لتنقّب من خلفه عن سر الوجود.

رواية تخلط بين عوالم متعددة يشارك في سردها علماء نفس واجتماع وتاريخ وفيزياء وشعراء وسحرة ودجالون. وتهزأ من التغيّرات السياسية وما تحدثه من مواقف عصيبة في حياة البسطاء والهامشيين. كما تسلّط الضوء على جوانب مثيرة من شبق الحياة الجنسية، وتُظهر بطل الرواية نموذجاً لهذا الشبق، وتكشف لنا كيف شبَّ ورأى نفسه رجلاً تعبث برجولته بنات قريته ونساؤها.

الرواية بحث مضن في كثير من مفردات حياتنا اليومية لتتحول إلى كابوس يجعلنا نعيد التفكير في حقيقة وجودنا البشري.

ISBN 1 85516 726 3

